أهرام مصر

في العصور القديمة

تأليف

إ. إ. س. ادواردز

المصاطب. الهرم المدرج. هرم دهشور. هرم ميدوم
هرم سنفرو. هرم خوفو الأكبر. أبو الهول. معبد الوادي
المجموعة الهرمية للملك خفرع. هرم منكاورع. معبد الشمس
أهرام أبو صير. المجموعة الهرمية لساحورع. هرم
أوناس. متون الأهرام. المجموعة الهرمية لببي الثاني
المجموعة الهرمية لسنوسرت الأول. هرم امنمحات الثالث
بهوارة. مقابر الأشخاص بدير المدينة. هرم لهرقاقا. طريقة بناء
الهرم والغرض منه.

ترجمه
مصطفى أحمد عثمان
أثري بمشروع دراسة الأهرام
بمصلحة الآثار المصرية

راجعه
دكتور أحمد فخري
أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

١٩٨٩

أهرام مصر

في العصور القديمة

تأليف

إ. إ. س. ادواردز

المصاطب. الهرم المدرج. هرم دهشور. هرم ميدوم
هرم سنفرو. هرم خوفو الأكبر. أبو الهول. معبد الوادي
المجموعة الهرمية للملك خفرع. هرم منكاورع. معبد الشمس
أهرام أبو صير. المجموعة الهرمية لساحورع. هرم
أوناس. متون الأهرام. المجموعة الهرمية لببي الثاني
المجموعة الهرمية لسنوسرت الأول. هرم امنمحات الثالث
بهوارة. مقابر الأشخاص بدير المدينة. هرم طهراقا. طريقة بناء
الهرم والغرض منه.

ترجمة
مصطفى أحمد عثمان
أثري بمشروع دراسة الأهرام
بمصلحة الآثار المصرية

راجعه
دكتور أحمد فخري
أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

١٩٨٩

مؤلف الكتاب

مؤلف هذا الكتاب الأستاذ إ . إ . إدواردز من علماء الآثار المعروفين فى بلاده ، وقد نشر كثيرا من الأبحاث العلمية . ويشغل منذ عام ١٩٣٤ وظيفة أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى ، وله مقام مرموق بين علماء الآثار فى انجلترا بل وفى جميع البلاد الأخرى .

ولهذا وقع عليه اختيار شركة پليكان لكتابة كتاب عن أهرام مصر ، فقضى سنوات عدة فى إعداده أثناء الحرب العالمية الأولى ، وزار المناطق الأثرية المختلفة ، وتيسرت له الفرصة لقراءة ما كتب عن هذا الموضوع ، فأخرج هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، ونجح إلى حد كبير فى جعله سهلا ليتسنى لكل شخص أن يستفيد منه .

ولم يقتصر المؤلف على وصف بعض هذه الأهرام ، ولكنه شرح تطور فكرة بناء الهرم من الناحيتين الدينية والمعمارية ، مما زاد من قيمته . ومما يشهد على الإقبال الشديد على هذا الكتاب من القراء أنه قد أعيد طبعه أربع مرات حتى الآن .

هذا الـكتاب

أتم إ . إ . إدواردز كتابه عن أهرام مصر قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولم يدخل عليه إلا القليل النادر بعد عام ١٩٤٥ ، ولهذا نرى أن كل ما فيه من معلومات ، وما حاول المؤلف استخلاصه من نتائج، مبنى على معلومات عن الأهرام حتى ذلك التاريخ . ولـكن بالرغم من مضى أكثر من عشر سنوات على كتابه ، وظهور كثير من الأبحاث العلمية عن الأهرام فى هذه الفترة ، وعمل حفائر كثيرة ، فإن الـكتاب لم يفقد أهميته بعد ، وما زال كما كان منذ صدوره من خير ما يقرأه محبو الاطلاع عن فكرة الأهرام وتطورها فى صورة مختصرة مقبولة ، ولهذا لم أتردد فى التوصية على ترجمته فى مشروع الألف كتاب ، وقبلت راضيا مراجعته لإيمانى بفائدته ليكون بين أيدى قراء العربية رغم صعوبة موضوعه وتعقيد أسلوبه ، وهذا ما جعل ترجمته أمرا لا يمكن أن يوصف بالسهولة .

وتقضى أمانة الترجمة بإعطاء صورة صحيحة عن الموضوع ، وأسلوب المؤلف، ولو كان ذلك فيه مشقة على القارئ

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الـكتاب فى عام ١٩٤٧ ، وقد شاءت الظروف أن تظهر بين أعوام ١٩٤٥ — ١٩٥٦ معلومات كثيرة عن الأهرام ، وضعت حدا لـكثير من المشاكل التى تعرض لها المؤلف ،

كما أظهرت الحفائر المختلفة نتائج غيرت الكثير مما ورد فى هذا الكتاب ، ولهذا آثر المعرب أن يضيف فى الهوامش بعض ما جدّ ، حتى لا يعتقد القارئ العربى فى عام ١٩٥٧ أن جميع المعلومات الواردة فى الكتاب هى آخر ما وصلت إليه أبحاث الأثريين عن الأهرام .

وإنى أرى من واجبى الإشارة فى هذا التصدير المختصر إلى أهم الأبحاث الجديدة عن موضوع الأهرام ، منذ صدور كتاب « أهرام مصر » باللغة الإنجليزية حتى الآن :

أولا — فى منطقة دهشور :

الجزء الأكبر من أبحاث المرحوم عبد السلام محمد حسين كان فى منطقة دهشور حول الهرمين المشيدين بالحجر ، وقد نظف أركان الهرمين وداخلهما ووجد فى كل منهما اسم الملك « سنفرو » . وبهذا أخذت معلوماتنا عن هذه الفترة من تطور بناء الأهرام تتغير ، لأننا نعلم من النصوص المختلفة أن سنفرو — مؤسس الأسرة الرابعة ووالد خوفو بانى الهرم الأكبر — بنى هرمين ، وكان المفروض ، حتى وقت القيام بالحفائر وكما هو وارد فى هذا الكتاب ، أن أحد هرمى سنفرو فى دهشور ، وهو الهرم البحرى ، أما هرم سنفرو الثانى فهو هرم ميدوم . ولكن حفائر مصلحة الآثار الجديدة أثبتت أن الهرم المنحنى فى دهشور ، وهو المعروف بالهرم الجنوبى ، قد بنى أيضاً فى عهد سنفرو ، وبذلك تحدد أن هرمى سنفرو هما هرما دهشور . وعلينا الآن

أن نجد اسم مشيد هرم ميدوم ، ونعرف تماما متى شيد .

ومات الأستاذ عبد السلام مأسوفاً عليه فى عام ١٩٤٩ فى ريعان شبابه دون أن يتمكن من نشر نتيجة أبحاثه نشراً علميا ، أو يكمل معلوماتنا عن معابد تلك الفترة الدقيقة فى تطور العمارة المصرية والفن المصرى ، وثبت بشكل قاطع أن الهرم المنحنى هو الهرم الجنوبى لسنفرو الذى ذكر كثيرا فى النقوش المختلفة من العصور التالية .

ثانياً — فى منطقة سقارة (١٩٥١ — ١٩٥٥) :

وفى الوقت الذي كانت تجرى فيه حفائر دهشور ، كانت تجرى أيضا حفائر لمصلحة الآثار خلف الهرم المدرج فى سقارة تحت إشراف الأستاذ زكريا غنيم . وقد ثبت من حفائره أنه يوجد بخلف الهرم المدرج هرم مدرج آخر لم ينته العمل فيه . وقد أراد مشيدوه أن يكون صورة من هرم زوسر المدرج ، ولكن لم يكمل بناء هذا الهرم سواء فى داخله أو فى تشييد مصاطبه ، ورغم أنه لم يعثر على ما يثبت أن مشيده قد دفن فيه ، فقد ثبت أنه من عصر الملك « سخم — خت » ، الذى تولى الملك بعد زوسر فى الأسرة الثالثة .

ثالثاً — فى منطقة أهرام الجيزة :

وفى صيف عام ١٩٥٤ عثر أيضا فى أعمال مصلحة الآثار على سفينتين جنازيتين للشمس فى الجهة القبلية من الهرم الأكبر ، وقد

كشف عن إحداهما فقط حتى الآن . وثبت أنها من خشب الأرز وأنها وضعت فى مكانها بعد وفاة خوفو ، فى عهد خلفه « ددفرع » . وليست هاتان السفينتان هما أول مانعرف عن السفن الجنازية حول المقابر ، إذ توجد الأمكنة المحفورة فى الصخر لسفينتين أخريين فى شرق الهرم الأكبر ، كما توجد خمس سفن من هذا النوع حول الهرم الثانى ، ونعرف وجود أمثال هذه السفن منذ الأسرة الأولى ، ولكن امتاز الاكتشاف الجديد بأن سفينة خوفو أكبر حجما من أى سفينة عثر عليها ، وأفخم منها جميعا ، وهى كاملة بكل أدواتها ومعداتها . وقد أفاض المستر ادواردز فى موضوع فكرة هذه السفن ، فلا داعى هنا للحديث عنها .

رابعاً — فى منطقة الفيوم :

وكأنما شاء القدر أن تكون فترة هذه السنوات العشر ملأى بالاكتشافات الخاصة بالأهرام ، فكان هناك كشف خامس جديد فى عام ١٩٥٦ . ولم يكن هذه المرة فى منطقة أهرام الدولة القديمة فى سقارة ، أو فى الجيزة أو فى دهشور ، بل كان فى منطقة أخرى هى الفيوم وعلى مقربة من هرم الملك إمنمحات الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة .

أرادت مصلحة الآثار أن تستوثق مما هو تحت بعض الكتل

الحجرية الكبيرة داخل سور من الطوب التى تحيط بتلك الكتل ، كشفت عنه أعمال استصلاح الحقول فى تلك المنطقة منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، فقررت رفع الأحجار ، وعثرت هناك على حجرة دفن لإحدى الملكات تولت الملك فى آخر أيام هذه الأسرة ، وهى الملكة « نفروبتاح » .

وبالرغم من أن جثة هذه الملكة قد دفنت دون عناية ، ودون أن يكون معها شىء من الحلى التى اعتدنا العثور عليها مع ملوك وأميرات هذه الأسرة ، إلا أنه عثر على أوان فضية كبيرة الحجم خارج التابوت تعتبر من أهم ما عثر عليه فى هذه الأسرة ، وبذلك يمكننا أن نضيف هذا الكشف الجديد إلى جـــدول الأهرام فى مصر ، ولو أنه لم يبق منه غير حجرة الدفن فقط ، وزال مبناه العلوى الذى كان من الطوب التى تكسوه كتل من الحجر الجيرى .

تلك هى أهم الأبحاث الأثرية الجديدة عن الأهرام ، أضفتها لكى تكون فى متناول يد القارئ فكرة عنها ، وذلك ليضعها فى ذهنه عند قراءة هذا الكتاب . وإنى أكرر ما سبق أن قلته ، وهو أن هذه المعلومات الجديدة لم تضيع من قيمة الكتاب الأصلى أو فائدته ؛ والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

أحمد فخرى

أهرام مصر

تأليف

إ . إ . س . إدواردز

I. E. S. Edwards

كيف ولماذا شاد ملوك مصر أهرامهم ؟ هذان سؤالان من بين الأسئلة التي وضع هذا الكتاب للإجابة عليها ، مع تقديم إيضاحات جديدة عن أسباب بناء الهرم . وقد أماطت الحفائر التي أجريت داخل وحول الأهرام في القرن الماضي ، اللثام عن الاحتياطات العظيمة المدهشة التي لجأ إليها الملوك القدماء ليحصلوا على ما كانوا يعتقدون أنهم في حاجة إليه في الحياة الأخرى ، أو ليدرأوا بها — ولكن دون طائل — تسلل لصوص المقابر . وسنجد هنا قصة كفاحهم لتحقيق هذين الغرضين ، وذلك بإدخال التعديلات والتطورات المستمرة على الأهرام .

سنقص هنا تلك القصة ، وسيساعد على توضيحها الكثير من الرسوم والصور الفوتوغرافية التي تبين التغيرات الأساسية .

تمهيد

نجد فى الفصول القادمة وصفا للمعالم الأساسية لعدد من الأهرام ، بنيت كلها تقريباً فى فترة طولها نحو ألف عام . وقد عنينا عناية خاصة ببحث تلك الأهرامات التى توضح لنا جيداً ما مر على هذا النوع من القبور من التطور ثم التدهور ، فكتبنا عنه بشىء من التفصيل ، ومررنا على الأهرام الباقية مراً سريعاً ، وفى الفصل الأخير يرى القارئ بعض البيانات عن الطرق التى استخدمها المصريون فى البناء ، والدوافع التى جعلت الملوك القدماء يفضلون الشكل الهرمى لمقابرهم .

ومع أنى زرت — سواء قبل أو أثناء الحرب العالمية الثانية — معظم الأهرام المذكورة فى هذا الكتاب ، واعتمدت على المذكرات التى كتبتها أثناء الزيارات ، إلا أن الضرورة قد ألزمتنى بأن أنقل كثيراً من المعلومات والبيانات الأساسية عن تلك الأهرام من مؤلفات العلماء الأثريين الذين قاموا بأخذ مقاييس تلك الآثار أو قاموا بالكشف عنها فى القرن الماضى . وسيرى القارئ بنفسه مبلغ ما أدين به لهؤلاء الأثريين وللناشرين الذين طبعوا مؤلفاتهم . وقد استندت فى معظم التفسيرات الواردة فى هذا الكتاب على ما ورد فى كتب المؤلفين

السابقين ، إلا أنني اجتهدت في بعض الحالات في تقديم تفسيرات خاصة وصلت إليها بنفسي .

وإني أقدم شكري للأصدقاء الذين ساعدوني بمختلف الوسائل أثناء تأليف هذا الكتاب ، وأخص بالذكر « جون كريكشانك روز » (John Cruikshank Rose) الذي قام بعمل الرسوم ، ورسومه جزء لا غنى عنه في صلب الكتاب ، إذ أضاف مستر روز إلى بعض الرسوم المنقولة من المؤلفات تفصيلات جديدة لتلائم أغراض هذا الكتاب ، أو إضافات ضرورية لما ظهر من اكتشافات لاحقة . وقد أعد كشفا بأسماء مؤلفي الكتب والمقالات التي أخذت منها الرسوم في أول هذا الكتاب ؛ وقد سنحت لي فرصة دراسة تلك الأبحاث حينما كنت في الشرق الأوسط ، وإني مدين لمستر « بير نهارد جردسلف » (Bernhard Grdseloff) أمين مكتبة المعهد المصرولوجي الخاص بالمرحوم الدكتور لدويج بورخارد (Dr.Ludwig Borchardt) في القاهرة ، وللدكتور إ. بن دور (Dr. I. Ben-Dor) أمين مكتبة متحف فلسطين بأورشليم ، وللدكتور نلسن جليك (Mr. Nelson Gluick) مدير المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في أورشليم ، وللمستر سيتون لويد (Mr. Seton Lloyd) المستشار الفني لمصلحة الآثار في بغداد ، وللمستر جاي برنتن (Mr. Guy Bronton) من المتحف المصري الذي مكنني من الحصول على صور فوتوغرافية

لبعض القطع الأثرية المعروضة فى ذلك المتحف والمنشورة مع غيرها من الصور فى هذا الكتاب . كما أشكر المستر دوس دنهام (Mr. Dows Dunham) من متحف الفنون الجميلة ببوسطن الذى ساعدنى أيضا فى الحصول على صورة لمجموعة التماثيل المنشورة فى اللوحة رقم ١٢ وقد أبدت إدارة متحف المتروبوليتان كرما عظيما بالسماح لى بوضع شكل ٣٦ قبل نشر التقرير النهائى لحفائرها . وقد سهل زياراتى إلى مناطق الأهرام المختلفة الدكتور إتيين دريتون (Dr. Etienne Drioton) مدير عام مصلحة الآثار المصرية (سابقا) وكذا موظفو هذه المصلحة فى الأقاليم . وانى أقرر أيضا أنى لم أصل إلى تكوين الرأى النهائى لبعض المسائل التى نوقشت فى هذا الكتاب إلا بعد الاستفادة القيمة من مناقشاتى مع بعض الزملاء مثل البكباشى و . ب . إمرى (Lt. Col. W. B. Emery) الذى طالما ذكرت حفائره فى نص هذا الكتاب، ومع الأستاذ چ . شيرنى (Professor J. Cerny) من جامعة لندن ومع المستر بيرنهارد جردسلف (Mr. Bernhard Grdseloff) ومع المستر هـ . و . فيرمان (Mr. H.W. Fairman) مدير حفائر جمعية الاكتشافات المصرية فى السنتين اللتين سبقتا الحرب، ومع البكباشى ر . د . هـ . چونس (Lieut. Colonel R. D. H. Jones) من المهندسين الملكيين . وأخص بالذكر الأستاذ أ . م . بلاكمان (Professor A. M. Blackman) من جامعة ليفربول . والأستاذ

س. ر. ك. جلانفيل (Professor S.R.K. Glanville) من جامعة كمبردج لتفضلهما بقراءة النص الكامل لهذا الكتاب قبل الطبع ، وكان لاقتراحاتهما الفضل فى إدخال بعض التحسينات على هذا الكتاب . وكذلك الدكتور سدنى سميث (Dr. Sidney Smith) أمين قسم الآثار المصرية والآشورية فى المتحف البريطانى الذى قرأ الفصل الاخير وابدى كثيراً من التعقيبات . وأخيراً أذكر ما أدين به من الشكر الخالص لزوجتى التى لم تقم بكتابة كل الأصول على الماكينة فحسب ، بل ساعدت أيضاً فى تحسين نصوص كثير من العبارات والفقرات الواردة فى نصوص الكتاب .

لندن سنة ١٩٤٦ ا. ا. س. ادواردز *I. E. S. Edwards*

اللــــوحات

لوحــة

١ — أهرام الجيزة مصورة من الجو (بإذن من وزارة الطيران)

٢ — الهرم المدرج بسقارة . الجانبان الجنوبى والغربى

٣ ا — نقوش بارزة على الحجر للفرعون زوسر وهو يؤدى بعض الطقوس الدينية

سقارة (من مؤلف س . م . فيرث ، ج . ا . كويبل — « الهرم المدرج » المجلد الثانى لوحة ١٦)

(From C.M. Firth & J.E. Quibell, "The Step Pyramid" Vol. II, Plate 16)

٣ ب — تمثال للفرعون زوسر من الحجر الجيرى بالمتحف المصرى

٤ — الهرم المدرج . مدخل صالة الأعمدة بسقارة (من مؤلف ج . ب . لاوير « الهرم المدرج » الجزء الثانى لوحة ٥٤)

(From J.P. Lauer, "La Pyramide à Degrés", Vol. II, Pl. XIV)

٥ — التغطية بالقيشانى كما كانت فى المصطبة الجنوبية سقارة (من مؤلف س . م فيرث ، ج . ا . كويبل — « الهرم المدرج » لوحة الغلاف)

(From C.M. Firth & J.E. Quibell Op. cit., Vol. I, Frontispeice)

٦ ا — هرم ميدوم

٦ ب — أبو الهول بالجيزة

لوحـــة

٧ — تمثال للفرعون خوفو من العاج بالمتحف المصرى

٨ — تمثال خفرع من حجر الديوريت بالمتحف المصرى

٩ — لوحة تمثل ثالوثا لأحد أقاليم مصر نرى فيها منكاورع ، وحاتحور والسّهة إقليم ابن آوى بالمتحف المصرى

١٠ — مجموعة تماثيل منكاورع وحاتحور والملكة خع — مررنبتى فى متحف الفنون الجميلة ببوسطن

١١ ا — الطريق الجنازى لهرم أوناس بسقارة (من مقال الأستاذ سليم حسن « حفائر سقارة ٣٧ — ١٩٣٨ » فى مجلة أخبار مصلحة الآثار مجلد ٣٨ لوحة ٥٤)

(From Selim Bey Hassan, "Excavations in Sakkara, 1937—1938", in "Annales du Service des Antiquités" Vol. XXXVIII, Plate XCIV

١١ب — منظر مجاعة من رسوم طريق هرم أوناس الجنازى بسقارة (من مقال الدكتور اتين دريتون « رسم المجاعة على نقوش مصرية فى الأسرة الخامسة » شكل ٣ ص ١١٥ من مجلة المعهد المصرى مجلد ٢٥ (٤٢ — ١٩٤٣)

(From E. Drioton, "Une Representation de la Famine sur un Bas-relief Egyptien de la Ve Dynastie" fig 3, p. 115. of "Le Bulletin de l'Institut d'Egypte". Vol. XXV (1942—1943).

١٢ — المعبـد الجنازى المهدم من عهد نب . حيت رع « منتوحتب بالدير » البحرى (تصوير ا . ج . آركل)

(Photograph by A. J. Arkell, Esq, M.B.E., M.C., E.S.A.)

لوحة

١٣ ا — تمثال صغير من المرمر للفرعون ببى الثانى وهو طفل . بالمتحف المصرى

١٣ب — امنمحات الثالث فى شبابه . بالمتحف المصرى

١٤ ١ — أهرام مروى (تصوير ف . أديسن)

(Photograph by F. Addison, Esq.)

١٤ب — أدوات نحاسية من الأسرة الأولى . بالمتحف المصري (من مقال و. ب. إمرى فى مجلة أخبار مصلحة الآثار المجلد ٣٩ (١٩٣٩) لوحة ٤٥ ا)

(From W.B. Emery, "A Preliminary Report on the First Dynasty Copper Treasure from North Sakkara" in "Annales du Service des Antiquités" Vol. XXXIX 1939, Plate LXV, A.)

١٤ جـ — ثقوب فى الجرانيت من أعمال عمال المحاجر القدماء فى أسوان

١٥ — تمثال سنوسرت الأول من الحجر الجيرى . بالمتحف المصرى

رسومات الكتاب

شـكل

٧ — تاج عامود مركب من أوراق شجر متدلية (من مؤلف ج . ب . لاوير « الهرم المدرج » الجزء الثانى لوحة ٦٠ الشكل ٤)

(After J.P. Lauer, Op. cit, Vol. II, Plate LX, 4)

٨ — عامود متصل ذو قنوات (من مؤلف ج . ب . لاوير « الهرم المدرج » الجزء الثانى لوحة ٧٠)

(Adapted from J.P. Lauer, Op. cit, Vol. II, Plate LXX).

٩ — عامود متصل مضلع (من مؤلف ج . ب . لاوير « الهرم المدرج » الجزء الثانى لوحة ٤٥)

(Adaptep from J.P. Lauer, Op. cit., Vol. II, Plate XLV).

١٠ — الهرم المنحنى ، قطاع فى اتجاه الناحية الشمالية (من مؤلف الكولونيل هـ . ڤيس « أبحاث على أهرام الجيزة » الجزء الثالث . الرسم المواجه لصفحة ٦٦)

(From Col H. Vyse, "Operations carried on at the Pyramids of Gizeh", Vol. III, Plan facing page 66)

١١ — الهرم المنحنى ، قطاع فى اتجاه الناحية الشمالية (من مؤلف الكولونيل هـ . ڤيس « أبحاث على أهرام الجيزة » الجزء الثالث . الرسم المواجه لصفحة ٦٦)

(From Col. H. Vyse, loc. cit.).

١٢ — هرم ميدوم ، قطاع فى اتجـاه الناحية الغربية (من مؤلف ل. بورخارت « تشييد الأهرام » اللوحتان ٣ و ٤)

(Adapted from L. Barchardt, "Die Enistehung der Pyramide" Plates 3 & 4).

١٣ — المعبد الجنازى لهرم ميدوم (من مؤلف و . م فلندرز پترى « ميدوم » لوحـة ٤)

(From W.M. Flinders Petrie, "Medum" Plate IV).

شكل

١٤ — الهرم الأكبر ، قطاع فى اتجاه الناحية الغربية (من مؤلف الكولونيل هـ . ڤيس « أبحاث على أهرام الجيزة » الجزء الأول . الرسم المواجه لصفحة ٣)

(Adapted from Col. H. Vyse, Op. cit, Vol. I, Plan facing Page 3)

١٥ — معبد الوادى والمعبد الجنازى لهرم خفرع (عن مؤلف ى ، هولشر « مدفن الملك خفرع » لوحة ٣)

(After U. Holscher, "Das Grabdenkmal des Konigs Chephren", Plate III)

١٦ — هرم خفرع ، قطاع فى اتجاه الناحية الغربية مع رسم قطاع أفقى (من مؤلف ى . هولشر « مدفن الملك خفرع » لوحات ٢ ، ٧)

(From U. Holscher, Op. cit, Plates II & VII).

١٧ — هرم منكاورع ، قطاع فى اتجاه الناحية الغربية مع رسم قطاع أفقى (مقتبس من مؤلف الكولونيل هـ . ڤيس « أبحاث على أهرام الجيزة » الجزء الثانى : الرسمان المواجهان لصفحتى ٧٢ ، ٨٠)

(Adapted from Col. H. Vyse, Op. cit., Vol II, plans facing p. 72 & 80).

١٨ — أهرام أبو صير ، رسم تصورى لما كانت عليه عند تشييدها (مقتبس من مؤلف ب . بورخارت « مدفن الملك نى . اوسر . رع » لوحة ١)

(Adapted from L. Borchardt, "Das Grabdenkmal des Konigs Ne-User-Re", Plate I)

١٩ — معبد الشمس للملك نى . وسر . رع (من مؤلف ب . بورخارت « معبد رع للملك نى . وسر . رع » الجزء الأول اللوحة ١)

(From L. Borchardt, "Das Re-Heiligtum des Konigs Ne-Woser-Re", Vol. I, Plate 1)

شكل

٢٠ — عامود من الطراز النخيلي (من مؤلف ب . بورخارت «مدفن الملك ساحورع» الجزء الأول لوحة ٩)

(From L. Borchardt, "Das Grabdenkmal des Konigs Sahu-Re", Vol. I, Plate 9)

٢١ — المجموعة الهرمية لساحورع (مقتبس من مؤلف ب . بورخارت ، الجزء الأول لوحة ١٦)

(Adapted from L. Borchardt, Op cit, Plate 16).

٢٢ — عامود من طراز حزمة البردى (من مؤلف ل . بورخارت « مدفن الملك ساحورع » الجزء الأول لوحة ١١)

(From L. Borchardt, Op. cit, Plate 11)

٢٣ — الحجرات والممرات فى هرم أوناس (من مؤلف ك . زيته « نصوص الأهرام » الجزء الثالث ص ١١٦)

(From K. Sethe, "Pyramiden-texte". Vol. III, p. 116)

٢٤ — المجموعة الهرمية لبيبى الثانى (من مؤلف ج. چكييه « الآثار الجنازية لبيبى الثانى » الجزء الثالث لوحة ١)

(From G. Jequier, "Le Monument Funeraire de Pepi II", Vol. III, Plate 1)

٢٥ — المعبد الجنازى لـ « نب . حيت . رع منتوحتب » كما كان عند تشييده (من مؤلف أ . ناڤيل « معبد الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى » الجزء الثانى لوحة ٢٣)

(After E. Naville, "The XI^th Dynasty Temple of Deir El-Bahri", Vol. II, Plate XXIII)

شكل

٢٦ — المجموعة الهرمية لسنوسرت الأول (جمعت بإذن خاص من متحف المتروبوليتان للفنون من التقارير التمهيدية لحفائر اللشت المنشورة فى نشرة متحف المتروبوليتان للفنون الجزء الثانى يوليه ١٩٢٠ صفحة ٤ والجزء الثانى مارس ١٩٢٦ صفحة ٣٧ ، الجزء الثانى نوفمبر ١٩٣٤ صفحة ٢٣ ومن معلومات خاصة من لندسلى ف . هول من متحف المتروبوليتان للفنون)

(Assembled by permission of the Metropolitan Museum of Art from "Preliminary Reports of the Excavations at Lisht" published in the "Bulletin of the Metropolitan Museum of Art" Part II. July 1920, p. 4, Part. II, March 1926 p. 37, Part II, November 1934, p. 23, and from a private communication from Lindsley F. Hall of the Metropolitan Museum of Art)

٢٧ — هرم امنمحات الثالث بهوارة (من مؤلف و . م . فلندرز بترى « كاهون وغراب وهوارة » لوحة ٢)

(From W.M. Flinders Petrie "Kahun, Gurab and Hawara" Plate II)

٢٨ — حجرة الدفن لأمنمحات الثالث بهوارة (من مؤلف و . م . فلندرز بترى « كاهون، غراب وهوارة » لوحة ٤)

(From W.M. Flinders Petrie, Op. cit. Plate IV).

٢٩ — مقابر الأشخاص بدير المدينة (من مؤلف ب . برويير « تقرير عن حفائر دير المدينة » ١٩٣٠ لوحة ٣٢)

(After B. Bruyere, "Rapport sur les Fouilles de Deir-El-Medineh" 1930, Plate XXXII)

شكل

٣٠ — النيل من أسوان إلى الخرطوم

٣١ — هرم طرهاقا (من مؤلف ج . ا . ريزنر « ملوك اثيوبيا — المعروفون منهم والمجهولون » فى نشرة متحف بوسطن للفنون الجميلة مجلد ١٦ ص ٧٠)

(After G.A. Reisner, "Known and Unknown Kings of Ethiopia" in Bulletin of Boston Museum of Fine Arts Vol. XVI, p 70)

٣٢ — طريقة لمعرفة الشمال الحقيقى

٣٣ — نقل تمثال كبير (عن ب . ا . نيوبرى « البرشا » الجزء الأول لوحة ١٥)

(After P.E. Newberry "El-Bersheh", Part I. Plate XV)

٣٤ — هرم ساحورع ، قطاع فى اتجاه الناحية الشرقية (عن ب . بورخارت « مدفن الملك ساحورع » المجلد الأول لوحة ٧)

(After L. Borchardt, Op. cit. Vol. I, Plate 7)

مقدمة

إن السؤال الأول الذى يخطر على ذهن كل من يتطلع إلى أثر قديم هو التساؤل عن تاريخه ، وغالباً ما تكون الإجابة على هذا السؤال صعبة، بل وفى بعض الأحيان مستحيلة بالنسبة للآثار المصرية، إذا أردنا تحديد التاريخ بالسنين قبل بدء العصر المسيحى؛ لأن معلوماتنا عن التقويم المصرى - وبالأخص فى العصور المبكرة - لم تكتمل بعد . فنحن نعرف تماماً تتابع الحوادث وغالباً ما نعرف أيضاً ارتباطها ببعضها ، ولكن - خلا حالات نادرة - قدلا يكون التاريخ المضبوط ممكنا، اللهم إلا إذا عثر الباحثون على أشياء أخرى محددة التاريخ أكثر مما عثرنا عليه حتى الآن ، للتسهيل من ناحية ولأن قرنا من الزمان قد مضى فى دراسة الآثار وأثبت صحة طريقة ترتيب ملوك مصر فى واحدة وثلاثين أسرة وهو ما عرفناه من مؤلف مانيتون « تاريخ مصر » (Manetho's " History of Egypt ") والذى أجمع المؤرخون المحدثون على الاعتماد عليه فى تحديد التاريخ. ولما كانت نهاية كل أسرة لم تستلزم حدوث تغييرات سياسية أو فنية هامة ، فقد وجد المؤرخون أنه من الأوفق أن تجمع الأسرات فى عصور تتناسب مع أهم ما طرأ من تغييرات. وهناك تسعة عصور أساسية هذه هى أسماؤها وتواريخها على وجه التقريب :

الأسرتان الأولى والثانية :

العصر العتيق ٣١٨٨ — ٢٨١٥ ق . م

من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة :

الدولة القديمة ٢٨١٥ — ٢٢٩٤ ق . م

من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة :

عصر الفترة الأولى ٢٢٩٤ — ٢١٣٢ ق . م

من الأسرة الحادية عشرة إلى الأسرة الثانية عشرة :

الدولة الوسطى ٢١٣٢ — ١٧٧٧ ق . م

من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة :

عصر الفترة الثانية ١٧٧٧ — ١٥٧٣ ق . م

من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين :

الدولة الحديثة ١٥٧٣ — ١٠٩٠ ق . م

من الأسرة الواحدة والعشرين إلى الأسرة الخامسة والعشرين :

الدولة الحديثة المتأخرة ١٠٩٠ — ٦٦٣ ق . م

الأسرة السادسة والعشرون :

العصر الصاوى ٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م

من الأسرة السابعة والعشرين إلى الأسرة الواحدة والثلاثين :

العصر المتأخر ٥٢٥ — ٣٣٢ ق . م

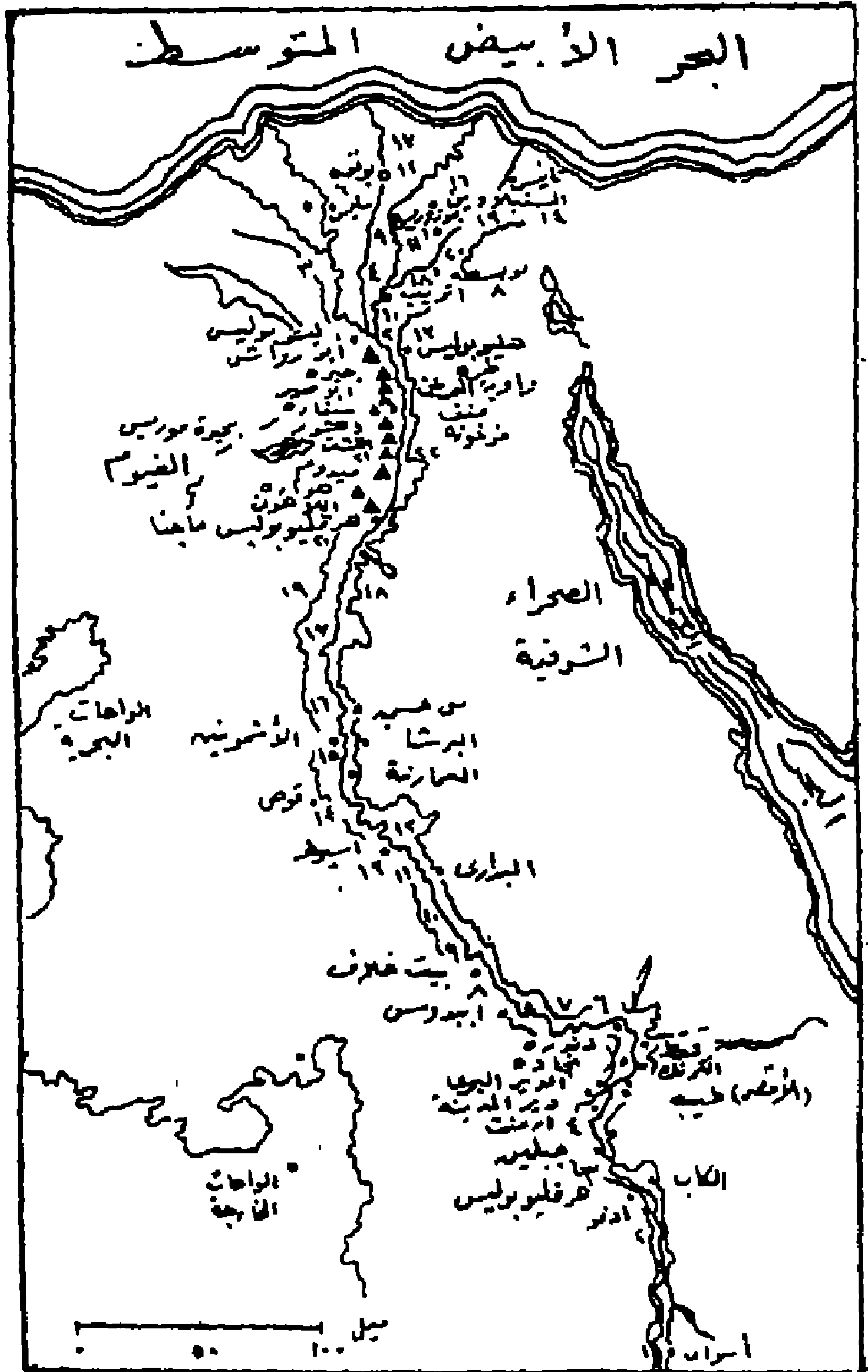
ويستغرق عصر بناة الأهرام المدة الثانية من هذه المجموعة والمدة التى تبدأ بالأسرة الثالثة وتنتهى بالأسرة السادسة . وكان الملوك وبعض الملكات خلال هذه الفترة ـ ماعدا بعض حالات قليلة ـ يدفنون فى مقابر يعلوها بناء هرمى الشكل . وقد شيدت الأهرام أيضا لبعض الملوك والملكات فى أسر تالية ، ولكنها كانت تحاول تقليد القديم ولا يعوزها الكثير من الفخامة المعمارية التى كانت للأهرام السابقة فحسب ، بل يعوزها أيضاً بعض المعانى الدينية . ومجموع عدد الأهرام المعروفة لنا فى مصر ثمانون هرماً تقريباً ، ولو أن معظمها فى الحقيقة قد تحول إلى أكوام من الرمال والرديم إلا أنها مع ذلك ما زال من الممكن لعلماء الآثار أن يعرفوا أمكنتها وهم متأكدون أنهـا كانت يوما من الأيام أهراماً قائمة .

والأهرام التى تنتمى إلى عصر بناة الأهرام مشيدة على الضفة الغربية للنيل على مقربة من مدينة منف القديمة (Memphis) بين ميدوم جنوبا وأبو رواش شمالا . وإذا أخذنا بما جاء فى الأخبار المتواترة فإن منف بنيت على أرض استصلحها الفرعون مينـا (Menes) أول حاكم فى الأسرة الأولى ، بعد عمل جسر للنيل لجعله يشق طريقه إلى الشرق من مجراه الأصلى . ومها يكن مبلغ هذه الأخبار المتواترة من

الصحة فى تفاصيلها فلا ريب فى أن مينا هو على الأرجح مؤسس مدينة منف ، لأن كثيرا من البقايا الأثرية الموجودة حولها مباشرة يرجع تاريخه إلى أيام الأسرة الأولى . ولم يعثر على شيء يمكن أن ينسب إلى عصر سابق عليها ، وإن اكتشاف عدد كبير من المحلات الأثرية من عصر ما قبل الأسرات بالقرب من تلال المقطم على الضفة المقابلة من النهر يؤكد الحقيقة الأولى وهى عدم وجود أمثال هذه المحلات فى مدينة منف نفسها .

وحتى الآن لا يمكننا الجزم بما إذا كان مينا قد أنشأ منف لتكون عاصمة مصر أو أنها بنيت فى الأصل لتكون مجرد مدينة محصنة ثم أصبحت مقر الحكومة فى عصر لاحق ، ربما كان فى بدء الأسرة الثالثة . إن الظروف التى أحاطت بتولى « مينا » عرش البلاد ترجح بدون شك اختياره هذا المكان ليكون عاصمة ملكه ؛ فقبل أيامه كانت مصر مكونة من مملكتين منفصلتين ، الأولى تمتد من أسوان فى الجنوب إلى منطقة منف ، والأخرى تشمل باقى القطر من جهة الشمال ، أى تشمل الدلتا بأكملها . وكانت عاصمة المملكة الجنوبية (مصر العليا) تقع عند مدينة نخن (Nekhen) (هيراكونبوليس Hierakonpolis) أما عاصمة المملكة الشمالية (مصر السفلى) فكانت عند مدينة بى Pe (بوتو Buto) . وتغلب مينا — الذى كان ملكا للمملكة الجنوبية فقط — على المملكة الشمالية ، وأدمج المملكتين فى مملكة واحدة ، وثبت ملكه

على البلاد كلها . ولهذا كانت منف هى أنسب مكان ليشيد فيه مدينة



شكل ١ — خريطة تقريبية لمصر

محصنة ، لأنها تقع تقريبا على الحد الفاصل بين المملكتين السابقتين ، وتصلح لصد أية محاولة يقوم بها أهل الشمال المغلوبون على أمرهم إذا ما أحسوا يوما من الأيام بتسرب الضعف إلى الجنوب ، كما كانت فى الوقت ذاته أنسب الأمكنة لإدارة شئون المملكة الجديدة المتحدة .

وباتحاد المملكتين أمكن لمينا أن يقوم بعمل حربى ربما حاوله غيره من قبل فلم يكتب له الا نجاح مؤقت ، وعلى كل حال فقد تمكن مينا من القيام بالعمل الحربى اللازم لاتحاد المملكتين ، وأمكنه أيضا أن يتثبت من استمرار ماوصل اليه من نتيجة ذلك باتباعه سياسة رشيدة ، قامت عليها عظمة مصر فى الأسر التالية . ومع ذلك لم ينس أهل مصر الحقيقة التاريخية بأن بلدهم كانت تتكون يوما من مملكتين منفصلتين ، لأن الفراعنة — الى آخر أيامهم — ظلوا يستخدمون من بين ألقابهم لقب « ملك الوجهين القبلى والبحرى » .

ولا يكاد يوجد لدينا معلومات مفصلة عن طرق الإدارة السياسية التى سار عليها مينا وخلفاؤه الأولون ، ولكنه يلوح أنهم اتبعوا نظام تركيز السلطة الى حد كبير .

لقد كشفت الحفائر الحديثة التى قام بها و . ب . إمرى (W·B·Emery) بسقارة فى جبانة منف (Memphis) عن عدد كبير من مقابر رجال البلاط والموظفين فى الأسرتين الأولى والثانية ، وما زال كثير منها تحت الرمال ينتظر الكشف عنه . ويتضح من

عدد هذه المقابر ومن ألقاب أصحابها ، أن الملك كان محاطا بعدد كبير من المستشارين والموظفين الذين يقومون بالتنفيذ ، ولكن عدم معرفتنا لأى شىء عن تفاصيل حياتهم يجعل محاولتنا لفهم تاريخهم الشخصى أمرا متعذرا .

وقبل حكم مينا كانت مصر مقسمة الى مناطق نسميها عادة أقاليم (Nomes) — وهى كلمة مشتقة من أصل يونانى — وعددها يختلف من وقت إلى آخر نظرا لإغارة القوى منها على الضعيف وضمه إليه ، أو لأنه كثيرا ما يحدث أن يصيب الوهن والانحلال بعض الأقاليم الكبيرة فتتفكك . وحينما تم النصر لمينا كان عددها على ما يظهر اثنين وأربعين إقليما : اثنان وعشرون منها فى مصر العليا ، وعشرون فى مصر السفلى . وسمح مينا أن تظل هذه الأقاليم كما كانت وحدات منفصلة ولكنه عين لكل واحد منها حاكما مسئولا عن الإشراف على أموره الاجتماعية والدينية . وفى البداية كان هؤلاء الحكام — أو رؤساء الأقاليم كما كانوا يسمون عادة — يباشرون أعمالهم لمدة معينة فقط ، ثم تدرجت هذه المناصب فأصبحت حقاً وراثياً لبعض العائلات ، وهكذا أخذت تتكون طبقة حكام الأقاليم التى أخذت تهدد سلطة الملك حتى وصل بها الأمر فى نهاية الأسرة السادسة فقامت بدور هام فى تقويض أركان الملكية نفسها . ولسنا نعرف عن النظم السياسية لتلك الأقاليم أو عن الصلات التى كانت تربطها بالعاصمة إلا القليل .

وما من شك فى أن كل إقليم كان مكلفا بتوصيل الدخل للخزينة الملكية، ولكن — على ما يظهر — كانت الأقاليم متمتعة بالكثير من استقلالها الدينى، وكان لكل إقليم إلـهه أو آلهته المحلية الخاصه ترسم عادة فى صورة حيوان أو إنسان له رأس حيوان، مثل وپواوت (Wepwawet) الإلـه الذئب الذى كان يعبد فى إقليم أسيوط ، وباستت (Bastet) الإلـهة القطة معبودة بوباستت (Bubastis) ، وحرسافس (Hersaphes) الإلـه ذو رأس الكبش الذى كان يعبد فى إهناسية (Herakleopolis). وكان بعض الآلهة المحلية تمثل على صورة الإنسان. مثل پتاح (Ptah) فى منف (Memphis) والإلـه مين (Min) فى قفط (Coptos) وأوزيريس (Osiris) وهم ثلاثة من أهم الآلهة المعروفين .

وربما عبد فى إقليم واحد آلهة كثيرة مختلفة تتباين أهميتها النسبية تبعا لعدد المؤمنين بها أو تبعا لثروة معابدها . ففى إقليم منف مثلا نجد إلى جوار إلـهه الرئيسى پتاح الإلـهة سخمت (Sekhmet) ذات رأس اللبؤة ، والإلـه نفرتوم (Nefertum) ويرسم على صورة إنسان وفوق رأسه زهرة اللوتس، وسكر (Sokar) وهو إلـه ذو رأس على هيئة رأس الصقر وكان يسكن الصحراء غرب منف . وكان لكل من هذه الآلهة هيكله الخاص ، ولكن على مرور الزمن اعتبروا الآلهة پتاح وسخمت ونفرتوم عائلة واحدة وعبدت فى معبد واحد . ونجد أمثال هذا الثالوث فى بلاد أخرى، مثل ثالوث أوزيريس وإيزيس وحورس وهم

الذين يكونون أشهر ثالوث فى الديانة المصرية .

ونحن لا نستطيع أن نقول إن الملوك الأوائل عند ما سمحوا للأقاليم بأن تتمتع باستقلالها الدينى كانوا يحاولون تصريف الأمور وفقا لما تمليه عليهم الضرورة السياسية ، ففى عهد سادت فيه فلسفة تعدد الآلهة لم تكن هناك ضرورة أو رغبة لتغيير النظام الدينى السائد إذ ذاك . ولو استثنينا بعض الآلهة القليلة العدد المتصلة بعناصر الكون ، والتى يبدو أنه كان معترفا بها إلى حد كبير منذ عهد بعيد ، فان العدد الأكبر من الآلهة كان ينحصر نفوذه فى حدود جغرافية معينة . ولا جدوى من التكهن بالاثر الذى كان يحدث على تطور الديانة المصرية لو لم يتبع الملوك سياسة التسامح ، إلا أنه من الأهمية بمكان أن نضع فى أذهاننا أن العناصر المختلفة التى حددت طبيعة هذا الدين — كما هو معروف لنا — كانت محلية فى أساسها ، وهذا هو سبب ذلك التشعب ، بل والتناقض ، فى بعض العقائد التى كان يعتنقها المصريون فى أيام الأسرات .

وبدأ نضج واكتمال دين رسمى لمصر فى عصر بناة الاهرام ، فقد استمدوا ذلك من طقوس معبد له كهنوت قوى ، يقع بالقرب من شمال منف عند المدينة التى أطلق عليها اليونانيون فيما بعد اسم هليوبوليس (Heliopolis) التى كان يسميها قدماء المصريين أون (On) وذكرت

بهذا الاسم فى كتاب سـفر التكوين حيث وصف بوتيفار (Potipherah) بأنه كاهن من كهنة أون .

وفى العصور الموغلة فى القدم كان يرمز للمعبود الذى فيه برمز على هيئة عمود ، ولكن ابتداء من عصر الأسرات أصبح ذلك المعبد مركزا لديانة الشمس ، وكان أعظم الأشياء تقديسا فى هذا المعبد هو الـ «بنبن» (Benben) وهو حجر هرمى الشكل كانوا يعتقدون أن إلـه الشمس أظهر نفسه وهو واقف عليه على هيئة طير العنقاء (Phoenix) طائر الخلود .

وما جاءت العصور التاريخية حتى كان كهنة هليوبوليس قد وضعوا قصة خلق الكون وقالوا فيها إن رع — أتوم (Ra-Atum) إلـه الشمس قد خلق نفسه من نون Nun المحيط الأزلى . وجاء من نسل رع — أتوم الإلـه شو Shu ، وهو إلـه الهواء ، والإلـهة تفنوت (Tefnut) ، وهى إلـهة الرطوبة ، اللذان أنجبا بدورهما جب (Geb) إلـه الأرض ونوت (Nut) إلـهة السماء . ومن جب ونوت أتى إلى الوجود أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس Osiris, Isis, Seth and Nephthys

وأطلقوا على هذه الآلهة التسعة «تاسوع هليوبوليس العظيم» . وكان هناك أيضا تاسوع صغير يتكون من مجموعة من الآلهة الذين يقلون أهمية عن السابقين ، وكان يتزعمهم الإلـه حورس . ومع ذلك فلم يكن

رع ـ أتوم هو الصورة الوحيدة التي عبد فيها إلـه الشمس فى هليوپوليس، فهناك أشكال أخرى مثل حوراختى (Horakhti) ـ وترجمتها حورس الذى فى الأفق ـ وخپرى (Khepri) على هيئة جعل، وكانا يعبدان هناك. وقد حاول كهنة هليوپوليس أن يفرقوا بين هذه الأشكال ، فقالوا بأن خپرى هو الشمس المشرقة فى الصباح ، ورع — أتوم الشمس الغاربة فى المساء، ولـكن المصريين القدماء لم يراعوا بدقة هذه التفرقة. ووجد المصريون فى عهد بناة الاهرام صعوبة يسيرة فى اعتبار إلـه الشمس أنه لم يكن كائنا واحدا لا يتجزأ بل كان إلـها مكونا من أكثر من عنصر واحد مستمد كل منها من أحد آلهة الشمس المحلية التى كانت فى الاصل منفصلة عن بعضها ثم اتحدت فيما بعـــد دون أن تتساوى فى المرتبة مع رع إلـه هليوپوليس . ولم يكن عجيبا إذن أن تحوى عبادة الشمس متناقضات عدة كما نرى ذلك فى أقدم مجموعة للنصوص الدينية التى وصلت إلينا ، وهى النصوص المحفورة على جدران حجرات وممرات الاهرام فى الأسرتين الخامسة والسادسة .

ولـكى نوضح العقائد المختلفة التى ربما وجدت فى وقت واحد ، يكفى أن نذكر التفسيرات المختلفة التى فسروا بها تحرك الشمس اليومى عبر الأرض . فأكثر النظريات قبولا ، هى النظرية القائلة بأن رع كان يعبر السماء كل يوم مصحوباً بأتباعه راكباً أحد القوارب .

واعتقدوا أيضاً أن القمر والكواكب تعبر السماء أيضاً فى قوارب،

وذلك لأنه لم تكن هناك طريقة للمواصلات أنسب عند المصرى القديم من القارب ، لأنه هو وأجداده قد ركبوا متن النيل ليسافروا عليه من مكان إلى آخر ، ولهذا فإن سفر الكائنات المقدسة فى رحلتها السماوية بنفس الطريقة ، كان أمراً منطقياً .

وهناك مدرسة فكرية أخرى كانت تقول بأن الشمس كانت تحمل فى الجو على أجنحة مثل الطائر، وكان هذا الاعتقاد متصلا بصفة خاصة بإلـٰه الشمس فى صورة حورا ختى الذى كانوا يعتبرونه منذ أقدم العصور أنه كان على صورة الصقر .

ونظراً لأنه لا يمكن لأى كائن منظور أن يحمل نفسه فى الفضاء مدة طويلة إلا إذا كانت له أجنحة ، فلهذا كان معقولا أن تخضع الشمس لنفس القوانين الأساسية كالأشياء الأخرى ، ووقع اختيارهم على الصقر لأنه يفوق كل الطيور الأخرى المعروفة للمصريين فى قدرته على التحليق فى الجو على ارتفاع عال جداً .

وربما كان أطرف الآراء المختلفة التى وضعت لتفسير سير الشمس عبر السماء ، ذلك الذى قال بأن إلـٰه الشمس كان على شكل الجعل ، وكان هذا التصور يتجاوب على الأخص معه فى اسمه خپرى . كان المصرى القديم يعرف جيداً منظر الجعل ، وكثيراً ما كان يلاحظه وهو يدفع أمامه على الأرض كرة صغيرة من الروث حتى يعثر على شق مناسب يضعها فيه . واعتقد المصرى أن صغار الجعل تخلق نفسها بنفسها ،

ثم تخرج من تلك الكرة . وتخيل المصرى أنه يوجد شبه بين الشمس منبع الحياة كلها وتلك الكرة من الروث التى اعتقد أن صغار الجعل تخرج منها . فليس من المستغرب إذن أن تكون القوة التى تدفع بالشمس عبر السماء ، وهى إلـٰه الشمس، شبيهة بجعل هائل الحجم يدفع الشمس أمامه كما يدفع جعل الأرض كرة الروث ، فرسموه على هذه الصورة . وبهذه المناسبة يجب أن نذكر أنه ليس بالأمر ذى البال أو الأهمية إذا كان علماء الحشرات يقررون أن كرة الروث التى يدحرجها الجعل أمامه إنما تحوى مايختزنه من طعام ، بينما الكرة التى تحوى بيض الجعل ليست مستديرة بل كمثرية الشكل وتحفظها أنثى الحشرة فى ثقب حتى يحين وقت فقسها .

وكان سير الشمس أثناء الليـل سبباً فى ظهور نظريات مختلفة . فهناك التفسير الطبيعى أنها تمضى ساعات الظلام سائرة فى مركب خلال العالم السفلى المسمى دات (Dat) قبل أن تظهر مرة ثانية فوق الأرض فى كل يوم عند الشروق ، ويفرض تفسير آخر فيه الكثير من الخيال أن السماء ليست إلا جسم الإلـٰهة نوت التى تظلل الأرض على هيئة قنطرة هائلة رأسها فى مستوى الأفق الغربى وعجزها فى مستوى الأفق الشرقى ويمتد ذراعاها ورجلاها تحت الأفق ، وتغيب الشمس فى هذه الإلـٰهة كل مساء عند الغروب ، وتمر فى جسدها أثناء الليل لكى تولد ثانية عند الشروق . ولم يقل قبول المصريين لهذا التفسير فى أى وقت

من الأوقات ، بل استمر حتى آخر العصور جنباً إلى جنب مع نظرية رحلة الشمس أثناء الليل خلال الـ «دات» .

واضطرت ديانة الشمس فى هليوبوليس — فى الوقت الذى كانت تتمتع فيه بأعظم نفوذ فى عصر بناة الأهرام — إلى قبول ، ثم إلى إدماج ، ديانة أخرى لم يكن لها صلة بعبادة الشمس ، ألا وهى ديانة الإلـٰه أوزيريس . وهذه الديانة — بالشكل الذى نعرفه — حوت كثيراً من المتناقضات ، مثل عبادة الشمس ، كما اضطرت أيضاً إلى إدماج معتقدات كانت فى أصلها متصلة بآلهة محلية أخرى لم تكن فى الأصل ذات صلة بالإلـٰه الرئيسى الذى اندمجت فيه .

وفى الأزمنة الغابرة — قبل اتحاد مصر العليا بمصر السفلى تحت حكم مينا — ربما كان الإلـٰه أوزيريس فى الأصل ملكا ، ثم أصبح الإلـٰه المحلى للإقليم التاسع من أقاليم مصر السفلى وعاصمته أبو صير (Busiris) وانتشر نفوذه فيما بعد حتى أصبح الإلـٰه الرئيسى لمجموعة من الأقاليم فى شرق الدلتا . وعبد فى وقت ما أثناء هذا التقدم مع إلـٰه محلى يسمى عنجتى (Anjeti) وكان الرمز الخاص به هو عصا الراعى والسوط . وكان حورس ، الذى اعتبر فيما بعد ابنا لأوزيريس ، فى ذلك الوقت إلـٰهاً مستقلا تماماً له نفوذه وسلطته على مجموعة من الأقاليم فى غرب الدلتا . أما إيزيس — التى اعتبرت فى عصر بناة الأهرام زوجة لأوزيريس —

فيلوح أنها كانت هى الأخرى إلـٰهة فى الدلتا، ولـكننا لا نعرف على وجه التحقيق شيئاً عن أصلها .

وبعد أن ارتبطت عبادة أوزيريس بعبادة حورس الإلـٰه المجاور له ، اعتبر هذان الإلـٰهان كوالد وولد ، وبدأ نفوذهما ينتشر جنوباً حتى أصبح أوزيريس فى عصر بناة الأهرام يعبد مع سكر إلـٰه جبانة منف ، ومع وپواوت الإلـٰه الذئب فى أسيـــوط ، ومع خنتى — أمنتيو Khentiamentiu الإلـٰه الذى كان على صورة ابن آوى وكان يعبد فى أبيدوس ، وربما مع آلهة آخرين أيضاً ، ولـكن أهم هذه الصلات هى بلا شك تلك التى كانت مع خنتى — أمنتيو ، لأنه بمرور الزمن أصبح أوزيريس ذا صلة رئيسية بأبيدوس بينما فقدت أبوصير — مقره الأصلى — أهميتها تدريجاً .

واحتوت نصوص الديانة المصرية على إشارات لا حصر لها إلى القصة التى كانت أساساً لديانة أوزيريس ، ولـكن لا توجد قصة متصلة كاملة منها . وليس من الصعب علينا أن نتكهن بالسبب فى هذا ، فالقصة لا بد أنها كانت معروفة تماماً منذ زمان بعيد لدرجة أنهم لم يجدوا ضرورة لإثبات نصها .

وأول نسخة كاملة معروفة فى الوقت الحاضر هى ما كتبه پلوتارخ (Plutarch) فى مؤلفه «إيزيس وأوزيريس» (De Iside et Osiride) وهى وإن اختلفت فى بعض التفاصيل إلا أنها تتفق فى كل المواقف

المهمة مع الإشارات الواردة فى النصوص المصرية . ولهذا يمكننا اعتبارها ممثلة بوجه عام للقصة الأصلية فى جميع الأزمان .

وفيما يلى النقط الأساسية لهذه القصة كما جاءت فى مؤلف بلوتارخ والنصوص المصرية :

كان أوزيريس ـ الابن الأكبر لإلـه الأرض جب وإلـهة السماء نوت ـ ملكا عادلا محبا للخير يحكم الأرض كلها ، وعلم الناس مختلف الفنون والصناعات وحولهم من حالة الهمجية إلى الحضارة . وفى يوم من الأيام قتله أخوه ست مدفوعاً بعوامل الحسد . ويقرر بلوتارخ أن الجريمة قد ارتكبت بحيلة دبرت بدهاء . فقد أقام ست وليمة مدعياً أنها لتكريم أخيه بمناسبة عودته إلى مصر من بلد أجنبى ، ودعا إليها اثنين وسبعين من أصدقائه ، وفى أثناء الوليمة جىء إلى الحجرة بصندوق دقيق الصنع ، وأعلن ست أنه يقدمه هدية إلى أى شخص ينام فيه فيناسبه تماماً . وتنفيذاً للخطة التى اتفقوا عليها حاول عدد من الضيوف أن يناموا فى الصندوق ، ولكن حجمهم لم يوافق حجم الصندوق تماماً . وقام أوزيريس بعد ذلك ونام داخل الصندوق فكان مناسبا له كل المناسبة نظراً لحجم جسمه غير العادى ، وأسرع بعض المتآمرين فأغلقوا الصندوق بينما كان أوزيريس فى داخله ، ثم حملوه إلى النيل . وبعد أن حملوه فى الماء حتى مدخل فرع النيل عند تانيس ، دفعوه ليعوم فى البحر حتى قذفت به الأمواج على الشاطىء عند مدينة جبيل (Byblos) .

وعندما علمت إيزيس بأن أوزيريس قد اغتيل، بدأت تبحث عن جثمانه بجاطو يلا مليئاً بالحوادث، حتى عثرت عليه فى النهاية وعادت به إلى مصر من جبيل، وأقامت مدة من الزمن بمدينة خميس (Khemmis) فى مناقع الدلتا تحرس تابوت أوزيريس وتنتظر ولادة ولدها الذى حملت به على ما يظهر بعد موت أبيه . وعثر ست على التابوت عند ما خرج فى أحد الأيام للصيد ، فأخرج الجثة وقطعها إلى أربع عشرة أو ست عشرة قطعة بعثرها فى بلاد مصر المختلفة . وذهبت إيزيس للمرة الثانية للبحث عن الجثة ودفنت كل قطعة وجدتها : الرأس فى أبيدوس، والرقبة فى هليوبوليس ، والفخذ الأيسر فى بيجه (Bigeh) وباقى الأجزاء فى بلاد أخرى . وكان عضو التذكير هو الجزء الوحيد الذى لم تعثر عليه ، لأن ست ألقى به فى النهر فابتلعته سمكة الأنومة (Oxyrhynchus) .

ويذكر نص آخر لهذه القصة أنه بعد عثور إيزيس على الجثة أمر رع الإله أنوبيس (Anubis) ليحنطها، ورفرفت إيزيس بجناحيها حينذاك عليه فأعادت إليه الحياة . وهذه النقطة فى غاية الأهمية، لأن عملية التحنيط كما عرفناها من المومياءات المصرية ، كانت متصلة اتصالا مباشراً بأسطورة أوزيريس ، لأنه بعد أن أعيدت له الحياة أصبح أوزيريس ملكا على الموتى، وبذا أصبحت له هذه الصفة التى ظهر بها فى جميع العصور التاريخية . ولهذه القصة بقية مسجلة على ملف من البردى سلم من أى

عطب ويرجع تاريخه إلى أيام الدولة الحديثة، تقرأ فيه قصة الصراع الطويل العنيف بين ست وحورس الذى صمم على قتل عمه انتقاماً منه لقتل والده . وفى أثناء الصراع قلع ست إحدى عينى ابن أخيه . ولكن حورس انتصر فى النهاية وجلس على عرش أوزيريس ، وأعاد الإله تحوت (Thot) إلى حورس عينه المفقودة، وأيده فى أحقيته فى الجلوس على عرش أبيه حكم محكمة الآلهة فى هليوبوليس .

وكنتيجة لهذه القصة أصبح حورس على مر العصور نموذجاً للابن البار ، بينما اعتبرت عينه التى فقدها أثناء الصراع رمزاً لأى نوع من أنواع التضحية .

وفى الحقيقة لم تكن هناك صلة بين ديانة الشمس وديانة أوزيريس، سواء فى الأصل أو من ناحية التفكير اللاهوتى . فقد كان رع قبل أى شىء آخر إلـهاً للأحياء ربما صحبه فئة من الأشخاص المحظوظين بعد الموت، بينما كان أوزيريس إلـهاً للموتى يختص بمنطقة الأموات. ولكن اشترك هذان الإلـهان فى صفة على أكبر جانب من الأهمية، فقد أعطيا مثلا إلـهياً للخلود بعد الموت . فبالرغم من أن ست قد اغتال أوزيريس فقد عادت الحياة إلى هذا الأخير بسحر إيزيس ،وكذلك اعتبر اختفاء رع اليومى تحت الأفق الغربى موتاً له ثم يولد من جديد فى الصباح عند الشروق. ووجد المصرى القديم فيما مر على كل من هذين الإلـهين ما يجعله يأمل فى الخلود نفسه ، ولكن استمرار الحياة بعد موت الجسد لا يمكن قبوله

كأمر طبيعي معقول ، ولا يمكن أن يتحقق إلا بالقيام بطقوس خاصة وبإمداد الميت بكل المساعدات المادية التى كانت تتطلبها الآلهة لاستمرار بقائه ، ومن هنا جاءت الحاجة لأن يكون للميت قبر — سواء أكان هرما أم غير ذلك — ويكون دفنه متفقا مع جميع النقط الجوهرية حسب نظام متبع .

وبالرغم من تدقيق المصريين فى عصر بناة الأهرام ، وعنايتهم بالتفاصيل فى الأمور العملية ، إلا أنهم لم يكونوا لأنفسهم فكرة واضحة دقيقة عن الحياة بعد الموت . ونلاحظ محافظتهم الشديدة فى الفن المصرى ، ولكنهم كانوا أكثر محافظة فيما يتعلق بالأمور الدينية ، فقد استمرت بعض العناصر التى كان مسلما بها فى يوم ما جنبا إلى جنب مع ما استجد بعد ذلك ، حتى ولو كان ذلك أمرا تافها من ناحية المنطق أو لا يمكن تطبيقه فى بعض الأحيان .

ومثل هذا يجعل الذين يحللون الأمور فى ضوء التفكير الحديث يحسون بأن قدماء المصريين كانوا قوما يبحثون فى الظلام عن مفتاح الحقيقة ، وأنهم لم يجدوا مفتاحا واحدا فحسب بل وجدوا عدة مفاتيح تشبه كلها النوع المناسب للقفل ، فاحتفظوا بها جميعاً لئلا يحدث لسبب من الأسباب أن يكون المفتاح الذى يتركونه هو المفتاح الصحيح . .

وحتى فى العصور الموغلة فى القدم ، وقبل أن يكون لديانة أوزيريس أو ديانة الشمس أتباع كثيرون ، اعتقد المصريون أن الإنسان مركب

من الجسم والروح ، واعتقدوا أيضاً أن الروح يمكن أن تبقى حية بعد موت الجسد إذا حافظوا على الجسم وزودوه بما يحتاج إليه من القوت اللازم . ولسنا نعرف تماماً المكان الذى كانت تعيش فيه الروح بعد الموت، إذ ربما كانت تعيش فى مكان من العالم السفلى يمكن الوصول إليه عن طريق بئر المقبرة . وهذه الفكرة البسيطة عن الحياة بعد الموت وصلتها بالقبر والمحافظة على الجسم ظلت دائماً صاحبة المكانة الأولى ولم تأخذ مكانها فكرة أخرى . إلى أن جاء فى العصور المتأخرة الوقت الذى كانوا يضعون فى القبور كل ما يطرأ على الذهن من أدوات يمكن أن يستعملها الميت . فقبرة توت عنخ أمون (Tutankhamon) وما حوت من أدوات فخمة شملت حتى العربات والملابس الملكية الحربية لم تكن إلا مثلا من الإصرار على اتباع تلك الفكرة فى صورة مهذبة جدا بعد مضى أكثر من ألفى سنة على أول ظهورها .

وفى الوقت ذاته نمت نظرية تقدمية عن الحياة بعد الموت ، وهى ديانة أوزيريس . وقد أظهرت الاكتشافات الأثرية الحديثة أنه كان لتلك الديانة أتباعها منذ الأسرة الأولى على الأقل، ولكن عدم ظهور أية وثيقة مكتوبة عن هذه العقائد والمذاهب يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ـ بل لم يصلنا عنها إلا من العصور المتأخرة ـ جعل من الصعب معرفة تلك الديانة فى أصلها الأول . وحتى فى العصور المبكرة ربما اعتبر المصريون أن الحياة بعد الموت ـ حسب ديانة أوزيريس ـ ليست

إلا صورة مجسمة من الحياة فى الدنيا ، ولكنها كانت فى جهة تقع تحت الأفق الغربى، وأن أوزيريس كان حاكما عليها. وهذا المكان الذى أطلق عليه المصريون اسم حقول الغاب(Fields of Reeds) وعرف فيما بعد عند اليونانيين بحقول الفردوس Elysian Fields مثلوه فيما بعد بمجموعة من الجزر يمكن الوصول إليها فى قارب سحرى حيث يستطيع أن يسكن فيها فى ربيع دائم أولئك الذين رضى عنهم الإلـٰه. ونظراً إلى أن أوزيريس كان إلـٰهاً للخصب فإنه يصبح أمراً طبيعياً أن تنتج أرض مملكته محصولا خياليا من القمح النامى إلى ارتفاع تسعة أذرع ، وكانت زراعة هذه المحاصيل هى العمل الذى يقضى فيه سكان الفردوس المحظوظون وقتهم وهو عملهم الرئيسى .

وأصبح لأبيدوس مركز ممتاز بين أتباع المذهب الأوزيرى ، وحلت محل أبوصير كمركز رئيسى لتلك الديانة ، وأقيمت بها معابد لهذا الإلـٰه تضارع أفخم المعابد التى بنيت فى أى جهة أخرى فى مصر . وبناء على ما جاء فى إحدى الأساطير كانت أبيدوس (Abydos) هى المكان الذى عثر فيه إيزيس على رأس أوزيريس وأنها دفنتها هناك ، وفى رواية أخرى أنها دفنت فيها الجسم كله ما عدا عضو التذكير .

وفى كل سنة كان يقام فى أبيدوس احتفال مؤثر تمثل بين براجه تمثيلية دينية يمثلون فيها الحوادث الأساسية لحياة وموت أوزيريس ، وتشهد الآلاف من قطع الفخار الملقاة على الأرض بعدد القرابين التى قدمها

قربانا لهذا الإلـه أولئك الذين كانوا يفدون إلى تلك المدينة حاجين إلى معبد أوزيريس . وكان من الصعب على المصرى القديم أن يتصور ، وهو يعتبر الحياة بعد الموت كمرآة للحياة الدنيا ، أن حادثا له تلك الأهمية الكبرى فى حياته الدنيوية — وهو الاحتفال السنوى فى أبيدوس — لا يكون له مثيل فى الحياة المستقبلة . فلهذا نرى — ابتداء من نهاية الدولة القديمة — أن كثيراً من المقابر تحتوى على قوارب لكى تمكن أصحابها من أداء الرحلة إلى أبيدوس . ولما جاءت الدولة الوسطى ـ وربما قبل ذلك ـ حتى كان القادرون على دفع التكاليف يبنون مقبرة أخرى رمزية فى أبيدوس ، وبهذا تستطيع أرواحهم — إذا شاءت — أن تسكن بالقرب من أوزيريس وتساهم فى احتفاله السنوى ، بينما يظلون عن طريق مقابرهم الحقيقية متصلين بمدنهم الأصلية ؛ فمثلا أمر سنوسرت الثالث (Senusret III) أعظم ملوك الدولة الوسطى بأن ينحتوا له فى الصخر مقبرة رمزية فى أبيدوس ، بينما دفن جسمه فى هرمه بدهشور . أما هؤلاء الذين لم يستطيعوا بناء مقابر رمزية ، فكانوا يقيمون فى الغالب بالقرب من الهيكل الذى ينسبونه إلى أوزيريس لوحة من الحجر نقش سطحها ، وعليها كتابة حسب الطراز المعروف لكى يضمنوا الخلود لأسمائهم فى حضرة الإلـه .

وفى كل الأمور التى تتعلق بالدين اعتمد المصريون اعتمادا كبيراً على القوة السحرية الكامنة فى الكلمة المكتوبة ، واعتقدوا أنه

باستعمالهم الصيغ الصحيحة يستطيعون أن يملوا إرادتهم على الآلهة ؛ وإن التعاويذ المنقوشة على جدران الحجرات والممرات فى أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة لتعد أحسن الأمثلة لهذا النوع من السحر فى عصر بناة الأهرام . وهناك مثل واضح كان يفعله معتنقو المذهب الاوزيرى ، وهو وضع اسم أوزيريس كلقب قبل اسم الميت ، وذلك ليجعلوا الميت يتحول فيصبح الإلـه نفسه . وتفسير هذا التأليه العام أنه ربما جاء امتدادا لامتياز خاص كان وقفا على الملك وحده ، فى أثناء حياة الملك الدنيوية كانوا يعتقدون أن الإلـه حورس بن أوزيريس قد تجسد فيه ، ولهذا كان طبيعيا أن يصبح بعدوفاته مثل الإلـه أوزيريس ، وأن يكون ابنه الذى يتلوه على العرش هـو الذى يتجسد فيه الإلـه حورس . وبمرور الزمن أصبح امتياز التحول إلى أوزيريس شاملا لأفراد العائلة المالكة أولا ، ثم شمل نخبة منتقاة من الناس من دم غير ملكى ، وفى النهاية أصبح حقا يطالب به جميع الناس . ولا نستطيع حاليا أن نتتبع الدرجات المتعاقبة لهذه الديمقراطية فى العبادة الأوزيرية ، ولكن — قياسا على ماحدث فى الديانات الأخرى وبعض الطقوس الجنازية — يمكننا أن نستنتج ماحدث من تطور ونحن واثقون إلى حد غير قليل .

وفى عبادة الشمس اعتبروا الحياة بعد الموت أنها كانت فى الأصل وقفاً على الملك ، إلا أن هذه الحياة بعد الموت لم تكن فى الغرب أو فى

العالم السفلى ، وإنما فى منطقة سماوية فى ناحية الشرق . ولكى يصل الميت إليها يتحتم عليه أن يعبر بحيرة تسمى « بحيرة الزنبق » (Lily Lake) امتدت من الأفق الشمالى إلى الأفق الجنوبى، وهناك مخلوق صارم يسمى « الناظر إلى الخلف » . وسمى بذلك لأنه كان يؤدى أعماله ناظراً إلى الخلف، وكان هذا المخلوق يعبر به فى البحيرة ولكن فقط بعد أن يقتنع بأن الملك قد أعطى الإذن بالدخول إلى « الحقول التى ولدت فيها الآلهة وبها يفرح الآلهة فى أعياد السنة الجديدة» وذلك هو اسم الناحية الشرقية من السماء . ولكى يقتنع المعداوى كان على الملك أن يلتجىء إلى عدد من الحيل المختلفة، فمثلا يستطيع أن يقنعه بأنه أحضر لإله الشمس بعض الأشياء التى يحتاج إليها ، ويمكنه أن يدعى أن إله الشمس طلب منه أن ينجز له بعض الأعمال ، أو ربما يلجأ إلى السحر ويأخذ معه جره تحتوى على مادة تجعل المعداوى عاجزاً عن معارضة طلباته ، فإذا فشلت باقى الطرق يستطيع الملك أن يتوسل إلى إله الشمس نفسه ليصدر أمره إلى المعداوى لينقله إلى الناحية الأخرى .

وبعد أن يعبر الملك البحيرة يقف على بوابة العالم الآخر . وكان المنادون يقفون على استعداد لإعلان خبر وصوله وتتجمع الآلهة فى الحال لتحيته . وشرح نص من نصوص الأهرام ذلك المنظر فى الكلمات الآتية : « وجد الملك پيى هذا ، الآلهة وقوفاً ملتفين بملابسهم وأحذيتهم البيضاء فى أرجلهم ، إنهم يلقون أحذيتهم البيضاء

على الأرض ويرمون بملابسهم قائلين : لم يفرح قلب حتى بمجيئك » (تعويذة رقم ٥١٨)

كيف كان الملك يقضى وقته بعد السماح له بالدخول إلى العالم الآخر ؟ إن النصوص المصرية غير متفقة فى هذه النقطة . فى نص من أقدم نصوص الأهرام يذكر أنه يصبح أميناً لسر إله الشمس ويصف واجباته كما يلى : « يجلس الملك أوناس وأمامه (رع) ، ويفتح الملك أوناس صندوقه (الذى به الأوراق) . ويكسر الملك أوناس أختام أوامره ، ويوقع الملك أوناس أوامره ، ويبعث الملك أوناس رسله الذين لا يعتريهم تعب ، ويفعل الملك أوناس ما يأمر به (رع) الملك أوناس » (تعويذة رقم ٣٠٩) . فى حين أن نصوصاً أخرى تمثل لنا الملك وهو يحكم بكل ما كان له من جلال عندما كان يعيش فى الدنيا ، ويحيط رجال البلاط بعرشه ، بينما تسجد رعيته أمامه وتقبل الأرض عند قدميه ، ويجلس هو أحياناً للفصل فى قضاياهم ، ويصدر الأوامر كما كان يفعل عندما كان يعيش فى الدنيا .

وفى كل يوم يرافق الملك إله الشمس فى رحلته عبر السماوات ؛ فأحياناً يوصف بأنه أحد المجدفين فى السفينة ، فمثلا : « يتسلم الملك ببى بنفسه مجدافه ، ويأخذ مجلسه ، ويجلس فى مقدمة السفينة ، ويجدف برع (ليوصله) إلى الغرب » (تعويذة رقم ٤٦٩) .

وفى مكان آخر نراه وقد رقى إلى وظيفة قائد السفينة ، وأثناء الليل

تجرى الرحلة فى الاتجاه المضاد فى العالم السفلى، وتمنح بذلك نورها إلى الأموات العاديين غير الخالدين الذين كان يظن أنهم يقطنون هناك .

وعلى مر الأيام أصبح الملك الميت أكثر قرباً من إلـه الشمس، إلى أن أصبح فى الأسرة السادسة هو إلـه الشمس نفسه . فى نص من النصوص فى هرم تيتى (Teti) تبدو العلاقة فى العبارة الآتية : « يارع .. إنك تيتى ... وتيتى أنت ... وأنت تضىء كتيتى .. وتيتى يضىء مثلك » (تعويذة رقم ٤٠٥) . وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فى نصوص الأهرام أيضاً نراهم يوجهون القول إلى الملك پيبى هكذا : « أنت تركب السفينة (سفينة الشمس) مثل رع . أنت تجلس على عرش رع ، لكى تستطيع أن تأمر الآلهة ، لأنك أنت رع الذى ولدته نوت والتى تلد رع كل يوم » (تعويذة رقم ٦٠٦) .

ويتصل اتصالا وثيقاً بمسألة موقع مكان الحياة الأخرى وماذا يفعله الناس فيها مسألة الصورة التى يكون عليها الملك حينما يدخلها . فكان الجسد عادة وفى كل العصور يوضع فى القبر أو قريباً منه ، بينما كان المصريون يعتقدون أن العنصر غير المادى يصبح عند الموت وحدة منفصلة تسمى « با » ، وكانت الـ « با » فى الكتابة الهيروغليفية فى العصور المبكرة تمثل ببجعة لها خصلة من الريش فى مقدم رقبتها . وبعد ذلك تغيرت هذه العلامة إلى طائر له رأس آدمى ملتح وأمامه مصباح. وربما كانت هذه العلامة الأخيرة تشير إلى اعتقاد قديم بأن النجوم

لم تكن إلا عدداً كبيراً لا حصر له من الـ « با » مضاءة بمصابيحها .
ومع أن الجسم والعناصر الروحية كانت هكذا منفصلة ، إلا أنها لا تزال تعتمد على بعضها البعض لأنه يشترط لبقاء الروح (BA) أن يبقى الجسد على حالة من الحفظ تمكنه من استقبالها . وهذا هو سبب الاعتناء الفائق فى المحافظة على الجسد من أن يعتدى عليه معتد أو يتحلل .

وهناك شيء آخر لعب دوراً هاماً فى حظ الملك ، ألا وهو القرين (KA) . كان القرين يمثل أحيانا برمز على هيئة إنسان ملتح يلبس تاجا مكونا من ذراعين مرفوعين إلى أعلى ومثنيين عند المرفقين وأحيانا أخرى بالذراعين على هذه الصورة بدون باقى القسم . ويأتى القرين إلى الوجود وقت ولادة الملك ويبقى معه بعد الموت . ونرى فى نقشين هامين أحدهما فى معبد الدير البحرى والثانى فى معبد الأقصر يرجع تاريخهما إلى الأسرة الثامنة عشرة ، نرى الإله خنوم يخلق فى وقت واحد كلا من الطفل الملكى وقرينه بتشكيلهما على عجلة الفخار .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ما هى طبيعة القرين . وقد قدم الباحثون أربعة تفسيرات مختلفة ، فاعتبره « جاستون ماسبرو » (Gaston Maspero) أحد كبار الأثريين الفرنسيين كتوأم أو صورة مزدوجة لصاحبه مصنوعة من نفس مادته ومساوية له تماما . وظن أدولف إرمان (Adolf Erman) أنه تجسيم لقوة الحياة وأنه ذلك

العنصر الخفى الذى يميز بين الحى والميت . واعتقد چ . ه . برستيد (J. H. Breasted) أنه ليس إلا قوة حافظة لصاحبها كفكرة الملاك الحارس لدى المسيحيين . ووجد فيه كيس (Kees) تشخيصاً لتلك المزايا المجردة ، مثل القوة والنجاح والاحترام والفخامة التى كانت أساسية لاستمرار هذه الحياة التى نحياها على الأرض . وكل هذه التفسيرات الأربعة يمكن تبريرها فى مناسبات مختلفة ، ولكن لا يوجد واحد من بينها ينطبق على كل المناسبات فى جميع الحالات . وربما كان المصريون القدماء أنفسهم لم يلزموا دائماً فكرة واحدة ثابتة عن القرين ، وإنما سمحوا لأفكارهم أن تتعدل حتى فى المسائل الأساسية تبعاً لعقائدهم المختلفة عن تركيب الإنسان .

ومهما تكن وظيفة القرين بالنسبة لصاحبه أثناء حياته ، فإنه من المؤكد أنه كان يتوقع أن يكون اشتراك القرين معه فى الحياة الأخرى يمده بأحلى أمانيه فى الحياة بعد الموت .

ففى نصوص الأهرام نراهم يذكرون دائماً الملك وقرينه معا ، وفى مملكة إلٰه الشمس يعمل القرين أحيانا كدليل له ، بل يصل الأمر إلى أن يقدمه إلى الإلٰه أو يمده بالطعام اللازم لبقائه ، ونراه أحيانا فى القبر ، حيث يشاطر القرين ما فيه من مزايا مع صاحبه ، وفى الواقع كان أحد أسماء القبر عند قدماء المصريين « بيت القرين » ،

وكان الكهنة المسئولون عن المحافظة عليه يسمون «خدمة القرين». فلا عجب إذن إذا أشارت النصوص المصرية فى بعض الأحيان إلى الأموات بأنهم «الذين ذهبوا إلى قرنائهم»، لأن الاتحاد مع القرين كان عنصراً مهما فى الحياة السعيدة التى يتوقعون أن يحيوها فى العالم الآخر.

الفصل الأول

« المصاطب »

إن الجزء الأكبر من مجموعة الآثار المصرية القيمة الموجودة الآن فى متاحف مصر وأوربا وأمريكا حصلنا عليه من المقابر . وهذه حقيقة واقعة وتفسيرها بسيط ، فبينما نجد عدد المقابر من كل عصر تقريباً خلال الثلاثة الآلاف سنة من تاريخ عصر الأسرات المصرية وافراً كبير العدد ، إذا بنا لا نجد إلا قليلا من المنازل التى كان يعيش الناس فيها ، وقليلا من المبانى التى كانوا يعملون فيها ما زال قائماً إلى الآن . حتى العواصم الكبيرة المهمة مثل منف وطيبة قد اختفت ولم تكد تترك أثراً منها . فلم يبق شىء من قصور هؤلاء الملوك الذين أصبحت أهرامهم من أوسع الآثار شهرة فى العالم ، بل إننا لا نعرف على وجه التحديد أين أقيمت هذه القصور ، هل كانت فى منف نفسها أم فى مكان آخر قريب من مناطق الأهرام الحالية ؟ ومثل هذا الاختفاء الكامل لا يمكن أن يحدث إلا بسبب طبيعة المواد والطريقة التى استعملت فى البناء . فن المؤكد أن المنازل والقصور كانت دون ريب تبنى من الطوب اللبن والخشب والجبس ، بل وأدهى من ذلك أنها كانت تبنى فوق سطح

الأرض . بينما يقع جزء من المقابر تحت الأرض ، وكان ما يعلو منها فوق سطح الأرض — بعد الأسرات الأولى — يبنى عادة من الحجر . ومع أن عدد ما تبقى منها حتى يومنا هذا كبير جداً ، إلا أنه ليس إلا جزءاً مما بنى أصلا لأن الأجيال المتعاقبة التى سكنت مصر كانت تأخذ الأحجار من مبانى أجدادهم عندما كانوا يبنون مايحتاجون إليه .

وربما يبدو غريباً فى بلد يمكن فيه الحصول على كميات كبيرة من أصناف الحجر الجيد أن يقضى الملوك والطبقة الحاكمة أعمارهم فى بناء مقابرهم من مواد رديئة . ولكن المصرى القديم كانت له وجهة نظر مختلفة . فمنزله أو قصره كان يبنى ليظل عدداً محدوداً من السنين يمكن بعدها أن يجدده أو يبنى غيره مكانه إذا لزم الأمر ، ولكن قبره الذى يطلق عليه اسم « حصن الخلود » كان يصمم على أساس أنه سيبقى إلى الأبد . وكان شيئاً عادياً طبيعياً أن ينتهى من بنائه أثناء حياته ، ويحدث أحياناً أن يموت صاحب القبر قبل أن يتمه ، وفى مثل تلك الحالة يتعدل أحياناً التصميم الأصلى للبناء لينتهوا منه على وجه السرعة ، إما ليدفن فيه فى أقرب وقت دون تأخير ، وإما لأن أقاربه يريدون أن يوفروا على أنفسهم التكاليف اللازمة إذا واصلوا العمل فيه . كما أنه من المحتمل أيضاً أنه إذا طالت حياة الشخص فرأى قبره يسير قدماً نحو الانتهاء ، فربما وسع فيه ليزود نفسه بمكان أكبر وأرحب مما كان يريد تشييده فى الأصل .

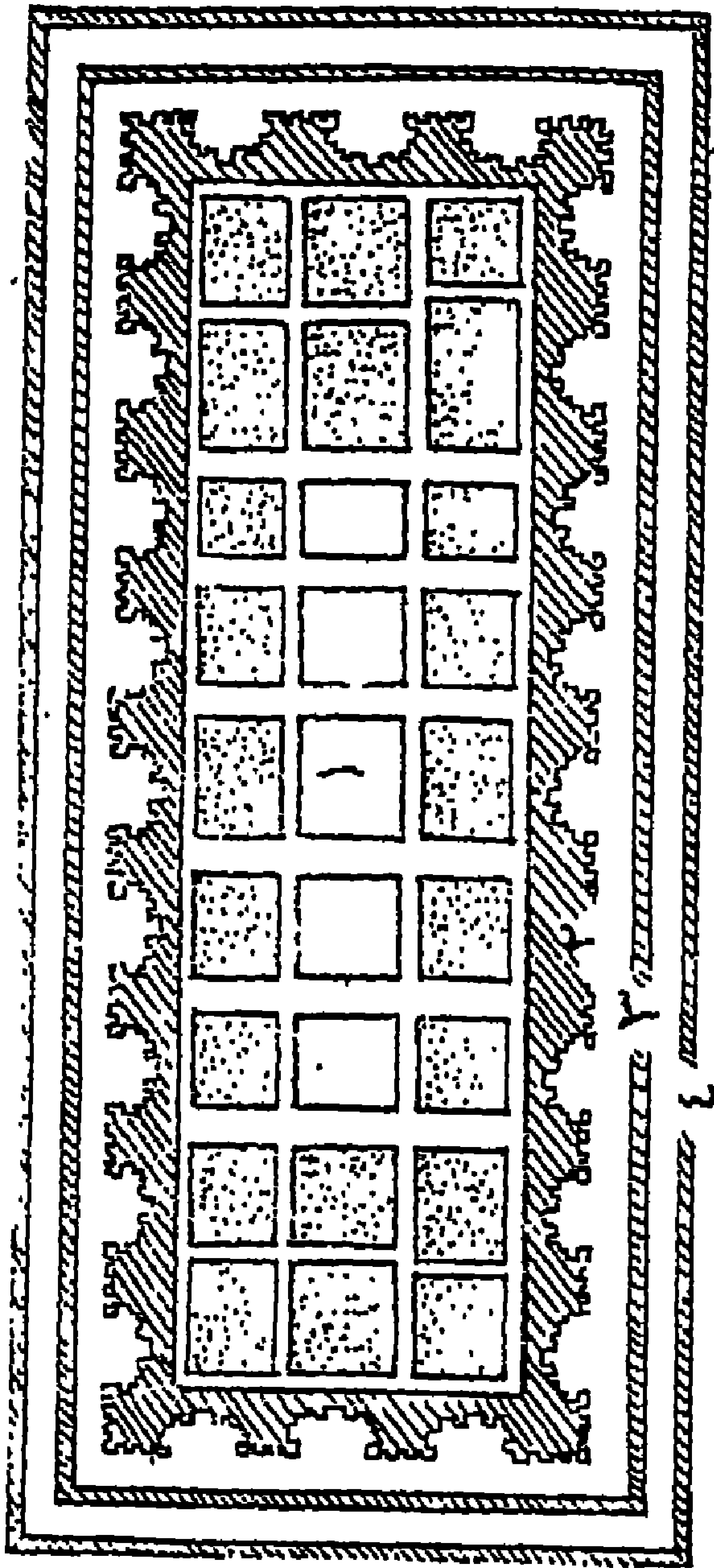
وكان الباعث الذى دفع المصرى القديم على أن يصرف هذا المجهود الضخم فى بناء قبره ، هو اعتقاده بأن الوصول إلى الحياة التى يتمناها فى العالم الآخر يتوقف على تحقيق غرضين أساسيين : أولهما ضرورة حفظ جسمه من التلف أو التحطم ، وثانيهما ضرورة حصوله هو وقرينه على ما يحتاجان إليه من أشياء مادية . وظل هذا الباعث لا يتغير طوال أيام التاريخ المصرى ، وكثيرا ما كانت تطرأ تغييرات فى شكل القبر ، وكان ذلك راجعاً إلى نتيجة الخبرة أو إلى تطورات دينية جديدة ، ولكن الغرض الأساسى من القبر ظل كما هو لم يعتوره تغيير .

وفى عصر ما قبل الأسرات كان الموتى يدفنون فى حفرة مستطيلة أو بيضية الشكل حفرت فى الرمل . وكان الجسم الملحد على جانبه فى هيئة مقرفصة يلف فى حصير من البوص ، ويوضع حوله قليل من ممتلكات صاحبه الشخصية ، مثل العقود والأساور وأدوات الصيد والأوانى التى تحوى الطعام والشراب . وكانت جوانب هذه القبور فى كثير من الأحيان تغطى بألواح من الخشب تربط إلى بعضها من الأركان بسيور من الجلد، فيتكون منه ما يشبه التابوت حول الجسد . ولم تحفظ لنا الأيام مثالا من الأبنية التى كانت فوق الأرض ، ولكنها على أى حال لم تزد على الأرجح عن كومة من الرمال يدعم جوانبها إفريز من الخشب . وكان الرمل معرضاً على مر الزمن بأن يتطاير

فى الهواء ، فينتج من جراء ذلك أن يتعرى الجسم وما معه ، فإذا لم يبادروا بدفنه ثانية فإنه يتعرض حتما للفنـاء . وبدون شك علمت التجارب أحفاد هؤلاء المصريين السابقين أن قليلا من الأجساد إذا تعرى مرة يصبح من غير المتوقع أن يعاد دفنها .

وابتداء من عصر الأسرات تغلب الملوك والنبلاء على ما عساه أن يصيب قبورهم من تحطيم بسبب عناصر الطبيعة ، وذلك بإقامة بناء فوق حفرة الدفن ، وكان هذا البناء من الطوب اللبن المجفف فى الشمس . وأصبح هذا النوع من المقابر معروفاً فى العصور الحديثة تحت اسم «مصطبة» ، وهى كلمة عربية معناها مقعد طويل ، وسميت كذلك لأنها — حينما تغمر بالرمل إلى ما يقرب من أعلاها — تشبه المقعد الواطئ المبنى خارج بعض البيوت المصرية الحديثة والذى يجلس عليه صاحب الدار مع أصدقائه ليشربوا القهوة .

ومن بين أقدم المصاطب المعروفة من العصر العتيق تلك التى كشف عنها بسقارة و . ب . إمرى والتى يظهر أنها كانت قبر الفرعون «عحا» (Aha) الملك الثانى لمصر العليا والسفلى . ويتكون هذا المدفن من حفرة مستطيلة قليلة الغور سقفت بالخشب وقسمت إلى خمسة أقسام منفصلة بحوائط فاصلة . وربما احتوى القسم الأوسط (شكل ٢ ، ١) جسم الملك داخل تابوت خشبى ، بينما وضعت بعض أدواته الخاصة فى الحجرات المحيطة بذلك القسم . وعلى أى حال فإن هـــذا المدفن



شكل ٢ — مصطبة الملك عحا بسقارة

ليس إلا صورة مكبرة لمدافن عصر ما قبل الأسرات . وكان يعلو هذه الحجرات ويغطى مساحة لا بأس بها ، بناء من الطوب اللبن قسم داخله إلى سبع وعشرين حجرة صغيرة خصصت لخزن أوانى الخمر وصحاف الطعام وأدوات الصيد وحاجيات الحياة الأخرى ، وبنيت الأوجه الخارجية لجدران هذا البناء الذى يميل إلى الداخل ، من أسفل إلى أعلى ، على هيئة مجموعة من الدخلات العميقة تسعة منها على كل جانب وثلاثة منها فى كل طرف (شكل ٢ ، ٢) .

أما شكل السقف فعلينا أن نتخيله ، لأنه لم يعثر حتى الآن على مصطبة من هذا العصر لها سقف محفوظ فى مكانه ، ولكنه يحتمل أنه كان منحنياً أو مستقيما . ويحيط بهذا البناء سوران خارجيان يتصل بينهما طريق مرصوف بالطين . وربما كان بين السور الداخلى والواجهة الشرقية للمصطبة مكان لتقديم القرابين ، حيث يستطيع الأقارب أن يضعوا عليه ما يحضرونه من الأطعمة الطازجة لصاحب المقبرة ، كما لطسوا البناء العلوى والأسوار الخارجية بطبقة من الجير كانت بعض أجزائها مزينة برسوم ملونة .

وكانت المصطبة من هذا النوع صورة طبق الأصل من المنازل المعاصرة لها، أى أنهم اعتبروا القبر المكان الذى يسكنه الميت . ولا شك أن الحجرات الصغيرة كانت حسب ما يحتاجه المدفن ، ولكنها تمثل حجرات المنزل المختلفة . أما الردهات التى قد تضعف متانة البناء فلم يكن

لوجودها ضرورة، لأن روح الميت كانت تستطيع أن تخترق الحواجز المادية دون عائق .

وما جاء عصر الأسرتين الثانية والثالثة حتى كان الجزء العلوى من المصاطب قد أصبح كتلة صلبة من الرديم كسيت من الخارج بطبقة من الطوب ، ولكنها ما زالت تحتفظ بمظهرها الخارجى على شكل منزل . ونقص عدد الدخلات فى الحوائط إلى اثنتين: واحدة بالقرب من كل من طرفى الحائط الشرقى .ثم تحولت الجنوبية منهما إلى حجرة للقرابين، فأحياناً نجدها داخلة فى نفس البناء العلوى للمصطبة، وأحياناً أخرى تبنى خارج هذا البناء . وكان يوجد فى الجدار الغربى لهذه الحجرة — التى كان يطلق عليها حجرة القرابين — جزء غائر فى الجدار ، استخدموه كباب وهمى كانت تستخدمه الروح عند ما تترك القبر أو تعود إليه كما تشاء . أما البناء السفلى للمصطبة فقد زاد حجماً وأهمية وأصبح يحتوى غالباً على ردهة وسطى تتفرع منها عدة غرف جانبية كان الغرض منها حفظ الأشياء التى كانت توضع من قبل فى البناء العلوى . ومن بين هذه الحجرات السفلية التى كانت تنحت فى الصخر نرى حجرة صغيرة لاستخدامها كمرحاض (رمزى) . ونصل إلى الردهة من باب يفتح من الجنوب فى أسفل بئر عمودية عميقة تبدأ من سطح الأرض، ويتصل بالبئر عدد من درجات سلم أو منزلق يبدأ من طرف المصطبة الشمالى ، ويلتقى به عند نقطة ترتفع عن قاعه بعدة أقدام . وعن طريق هذا المنزلق أو هذا

السلم يدخل الجسد وبعض الأشياء الشخصية المهمة إلى القبر ، وبعد أن يوضع كل شيء داخل القبر ، ينزلون سقاطة حجرية (Portcullis) وهى عبارة عن لوح سميك ثقيل من الحجر كانت تحمل فوق دعامات ، وتنزل هذه السقاطة عمودية داخل مُخدَّتين داخلتين على جانبي الباب ، وعند ذلك يملأ البئر والسلم الموصل إليه بالحصى أو الرديم ، ويغطى من الخارج بطبقة من الطوب اللبن ليختفى كل أثر يدل عليهما .

وأما السبب فى نقل حجرات المخازن من البناء العلوى إلى البناء السفلى بالمصطبة ، فيرجع إلى ما استلزمته ضرورة التفكير فى حماية الجسم وما يدفن معه .

واتفق البدء فى إدخال نظام المصطبة مع الزيادة الملحوظة فى العناية بتأثيث القبر ، فزاد فى الوقت ذاته تعرضه للنهب . وحينما كان هذا الأثاث يوضع فى بناء فوق سطح الأرض أو فى حفرة قليلة العمق تقع تحت الجزء الأوسط من البناء ، فإن لصوص المقابر لم يجدوا صعوبة كبرى فى الوصول إلى مقصدهم . ولكن المرافق العميقة تجعل مهمة السارق عسيرة وتعيقه . ولكنها فى الوقت ذاته تزيد من المصاعب الملقاة على عاتق من يبنى المقبرة ، ولذلك فقد استلزمت هذه الزيادة فى العمق تقليلا فى مساحة المخازن وتبسيطاً فى التصميم .

كان كثير من مصاطب الأسرة الرابعة ما زال يبنى من الطوب اللبن ، ولكن استعمال الحجر الذى كان مقصوراً من قبل على آثار

الملوك كان له الأثر الأكبر فى تطور بناء المقابر فى ذلك العصر ، حتى المصاطب التى بنيت باللبن كانت حجرة القرابين والحجرات السفلية فيها تكسى جدرانها غالباً بالحجر . واستخدموا فى هذه الأغراض أحجاراً من أجود أنواع الحجر الجيرى المقطوع من جبال المقطم عند طرة ، واستعملوا أيضاً هذا النوع من الحجر الجيرى فى تغطية جوانب المصاطب المبنية بالحجر ، بينما أقيم البناء الداخلى للمصطبة من نوع ردىء من الحجر المأخوذ من المحاجر القريبة .

وفى المبانى السفلية لمصاطب الأسرة الرابعة ، سواء المبنى منها باللبن أو الحجر ، نرى عدة ظواهر جديدة . وكان لكل من هذين النوعين من المصاطب دخلة عميقة فى أحد جدرانها خصصت لوضع تابوت من الخشب أو الحجر . وفى الزاوية الجنوبية الشرقية لهذه الحجرة احتوت المصاطب المشيدة من الحجر على حفرة لا نعرف على وجه التحقيق الغرض من وجودها ، ولكن من المحتمل أنها كانت تحفظ بها الأحشاء التى تستخرج من جسم الميت لتساعد على بقائه . وبعد الدفن يسد مدخل هذه الحجرة بسقاطة ثقيلة من الحجر الجيرى ويملأ بعد ذلك البئر العمودى الموصل إلى سطح البناء العلوى بالرديم وتقفل فتحته بغطاء محكم من الحجر . أما المنزلق الواصل إلى هذا البئر ، والذى نراه عادة فى مصاطب الأسرتين الثانية والثالثة ، فقد استغنى عنه فى المصاطب الحجرية ، ولكنهم ظلوا محتفظين به فى المصاطب المبنية بالطوب .

واحتوت المبانى العلوية لمصاطب الأسرة الرابعة فى بعض الحالات على تجديدين واضحين لم يعم استعمالها إلا فى عصر الأسرة الخامسة. وكانت الظاهرة الأولى هى وجود تمثال لصاحب القبر مصحوب أحياناً بتماثيل لأعضاء آخرين من أسرته، أما الثانية فهى تزيين الجدران الحجرية لحجرات القرابين بمناظر نقشت بالبارز ولونوها بعد ذلك. وكانت التماثيل توضع داخل حجرة فى داخل بناء المصطبة، ونطلق عليها الآن اسم السرداب (Serdab)، وهى كلمة عربية تعنى مبنى تحت الأرض. وسمى السرداب بذلك لأنه لم يحتو على أبواب ولا نوافذ ولا أى نوع من الفتحات سوى ثقب أو فتحة ضيقة فى أحد جدرانه فى مستوى وجه التمثال تقريباً ولم يكن ينفذ إلى داخله أى ضوء. وفى بعض المصاطب الحجرية فى منطقة الجيزة وضعوا بدلا من السرداب والتمثال رأساً للميت مصنوعاً من الحجر الجيرى. وكانت هذه الرأس توضع فوق بعض الاحجار خلف السقاطة عند مدخل حجرة الدفن.

ولم يكن تزيين حجرات القرابين إلا بداية لعدد من التطورات، ففى الأسرتين الخامسة والسادسة أصبح فى المبنى العلوى للمقبرة حجرات وأبهاء ذات أعمدة غطيت جدرانها جميعها بنقوش بارزة، ونعرف مثلا أن إحدى المصاطب الشهيرة فى الأسرة السادسة حوت ثلاثين حجرة نقشت جدرانها، وكان من بين المناظر المألوفة المنقوشة على الجدران تلك التى تصور الخدم وهم يحملون القرابين من الطعام

والشراب إلى سيدهم الذى مات، كما نرى مناظر الحصاد ومختلف الأعمال، وتفقد صاحب المقبرة لضياعه أو خروجه للصيد، إلى جانب مناظر أخرى متعددة الأغراض ولكنها متصلة اتصالا وثيقاً بعمله أثناء حياته .

وكانت أهم التطورات التى أدخلت على المصطبة — ابتداء من الأسرة الرابعة — نتيجة مباشرة لإدراكهم أن الوسائل التى اتبعت للتغلب على العناصر الجوية ولصوص المقابر لم تحقق الهدف الرئيسى لها وهو المحافظة على الجسم . فقد كانت النتيجة الحتمية لدفن الجثة فى حجرة عميقة بعيدة عن الجفاف الناتج من سخونة الرمل هو تحلل هذه الجثة، مالم يلجأوا إلى بعض وسائل التحنيط ، وما من شك فى أنهم قاموا بتجارب عديدة لحفظ الجسد ، ولكنهم لم يكتشفوا طريقة تحنيط فعالة إلا فى العصور التالية .

ويلجأ الناس إلى السحر عندما تفشل الوسائل المادية ، فقد كان من معتقدات المصريين المتعلقة بالموتى أنه يمكنهم عمل نموذج من أى شىء ليكون بديلا عما لم يقدموه الميت ، دون أن يكون فى ذلك حرمان للميت من الحصول على الفوائد التى كان يرجوها من الشىء الأصلى نفسه. ففى بعض مصاطب الأسرة الثانية مثلا نرى أنهم كانوا يضعون نماذج تشبه الأوانى بدلا من الأوانى المملوءة بالأطعمة ، وكانوا يعتقدون أنها كانت تؤدى نفس الفائدة لصاحب القبر . وكذلك كانوا

يعتقدون أن التمثال — أو حتى الرسم المنقوش على الجدار — يستطيع أن يكون بديلا من الجثة فى حالة فنائها . وفى إحدى المصاطب الشهيرة من عصر الأسرة الثالثة — وهى مقبرة موظف كبير يسمى حسى.رع (Hesy. Ra) — نراهم قد وضعوا فيها صوراً بالبارز على ألواح من الخشب وركبت فى الدخلات الواقعة فى الواجهه الشرقية لجدار البناء العلوى فى المصطبة . وكان القصد من هذه الصور أنها تمكن حسى.رع من مغادرة القبر والعودة إليه . إلا أن هذا النوع من الألواح كان معرضاً للضياع . بينما ضمن تصميم السرداب أن يحفظ التمثال دون أن يؤثر فى قوته الفعالة ، كما حصلوا على ضمان أقوى عندما استخدموا التماثيل المصنوعة من الحجر بدلا من التماثيل الخشبية .

وما أقر المصريون مبدأ الاستعاضة عن الشئ الأصلى بصورته حتى بدأوا خطوة أخرى ، فجعلوا هذا المبدأ لا ينطبق على الأشياء الشخصية مثل أوعية الطعام والتماثيل فحسب ، بل ينطبق أيضاً على المناظر التى تتناول بعض نواحى حياة صاحب القبر التى أراد أن يتمتع بها فى الحياة الأخرى .

فالمناظر التى تمثله وهو يصطاد الحيوانات والطيور أو يتفقد ضياعه كانت تمده بالوسائل التى تمكنه من الاستمرار فى مباشرة هذه الأعمال بعد موته ، كما أن مناظر الحصاد وذبح الحيوانات وصنع البيرة والخبز كانت تضمن له مؤونة دائمة مما تنتجه .

ولكى يتفادوا أى مخاطرة فى أن تضل روح الميت فى التعرف

على تمثاله ، فإنهم كانوا يكتبون على التمثال عادة اسمه وألقابه بالهيروغليفية ، كما كانوا يكتبون جملا قصيرة على المناظر المنقوشة على الجدران لتوضيح الغرض منها. وكثيراً ما نرى عليها أسماء الأشخاص المرسومين ، وأحياناً ما توضح الكتابة الأعمال التي يقومون بها . وكان هؤلاء الأشخاص فى أغلب الأحيان أقرباء الميت أو خدمه ، وكانوا يضمنون بذلك الحياة بعد الموت واستمرارهم فى خدمة سيدهم .

وبالرغم من كل التدابير المختلفة التى اتخذت لمد صاحب القبر بما يحتاجه بوضعه معه فى القبر ، فإنهم كانوا يعتقدون أيضاً أن انتظام تقديم الأطعمة الطازجة أمر ضرورى لضمان سعادة الميت ، ولهذا كانوا يضعونها على مائدة مسطحة واطئة أمام الباب الوهمى الذى يبنى فى الحائط الغربى لحجرة القرابين التى كانوا يبنونها فى الجهة الشرقية من البناء العلوى للمصطبة . وربما نتج هذا من تشييد المصاطب فى بقعة مرتفعة من الصحراء غرب النيل ، ولذلك عندما كان يطل الميت من الباب الوهمى يرى أمامه الوادى الذى كانت تأتيه منه القرابين .

ومن الممكن أن القرابين الأولى كان يقدمها الابن — الذى كان بتقديمه ما يحتاج إليه والده المتوفى يمثل حورس بن أوزيريس — أما ما يتلو ذلك من قرابين فإنه كان من شأن كهنة الأموات ، الذين كانوا يكلفون بهذه الخدمات بعقود مكتوبة ويأخذون أجراً على عملهم ؛ وكانت تلك الأجور تدفع أرضاً يوصى بها المتوفى للكهنة . ولنضرب لذلك مثلا بأحد أولاد الملك خفرع بانى هرم الجيزة الثانى الذى أوصى

باثنتي عشرة مدينة على الأقل لتكون وقفاً جنازياً لهذا الغرض، وتصبح هذه الأراضي ملكا للكهنة تنتقل بعدهم إلى ورثتهم الذين يرثون أيضاً كل الالتزامات التي عليهم نحو العناية بالقبر. وقد علمتهم التجارب أن أشد العقود لا يستمر العمل بها إلا لمدة محدودة، ولذلك وضعوا ما يسمى اللوحة الجنازية في القبر منذ العصور المبكرة، لتقوم مقام القرابين الفعلية. وتحتوى هذه اللوحة على صيغة سحرية معلنة أن المتوفى قد تسلم القرابين اليومية بكمية وافرة، وفوق هذه الصيغة كانوا يرسمون فى أغلب الحالات منظراً يمثل صاحب القبر جالساً إلى مائدة كدست فوقها القرابين التي قدمها إليه أفراد أسرته. وهم إذ يفعلون ذلك لم يقصدوا الاستغناء عن تقديم الأطعمة الطازجة، ولكنهم اعتقدوا أن اللوحة تمد المتوفى بما يؤكد له بطريقة عظيمة الجدوى أنه لن يتعرض للجوع أو الإهمال، وذلك بما كان للكلمات المسطرة على اللوحة من قوة سحرية.

ومهما بدت لنا فكرة المصرى القديم عن الحياة بعد الموت بدائية ومادية، إلا أنه يجب أن نسلم بأنها كانت سبباً فى إنتاج عدد من أحسن ما أخرجه العالم القديم من أعمال فنية. فلولا الحافز الذى جاء نتيجة لدافع عملى، فإننا نشك أنهم كانو يصنعون جزءاً ولو قليلا من العدد الكبير من التماثيل والنقوش والكتابات التي صنعوها والتي أجمع الناس على الإعجاب بها.

الفصل الثانى

الهرم المدرج

كان الملوك والنبلاء – إلى نهاية العصر العتيق – يدفنون على الأرجح فى مقابر بنيت من اللبن ، إلا أنه فى الأسرة الثالثة ابتدأ الملوك استخدامهم الحجر على نطاق واسع ، ولكنهم لم يستخدموه قبل ذلك إلا فى مواضع متفرقة من المبانى . وإلى إيمحوتپ (Imhotep) معمارى الفرعون زوسر (Zoser) يعزى دائماً بناء أول مقبرة مشيدة بالحجر . وأصبح اسمه أسطورة تروى فى الأجيال المتعاقبة عند المصريين الذين لم يعتبروه معماريا فحسب ، بل ساحراً وفلكيا ، وأبا علم الطب أيضاً . وفى العصر الصاوى ألهه المصريون وقالوا إنه ابن پتاح (Ptah) ، بينما وحده اليونانيون مع إله الطب عندهم المسمى أسكليپيوس (Asklepios) .

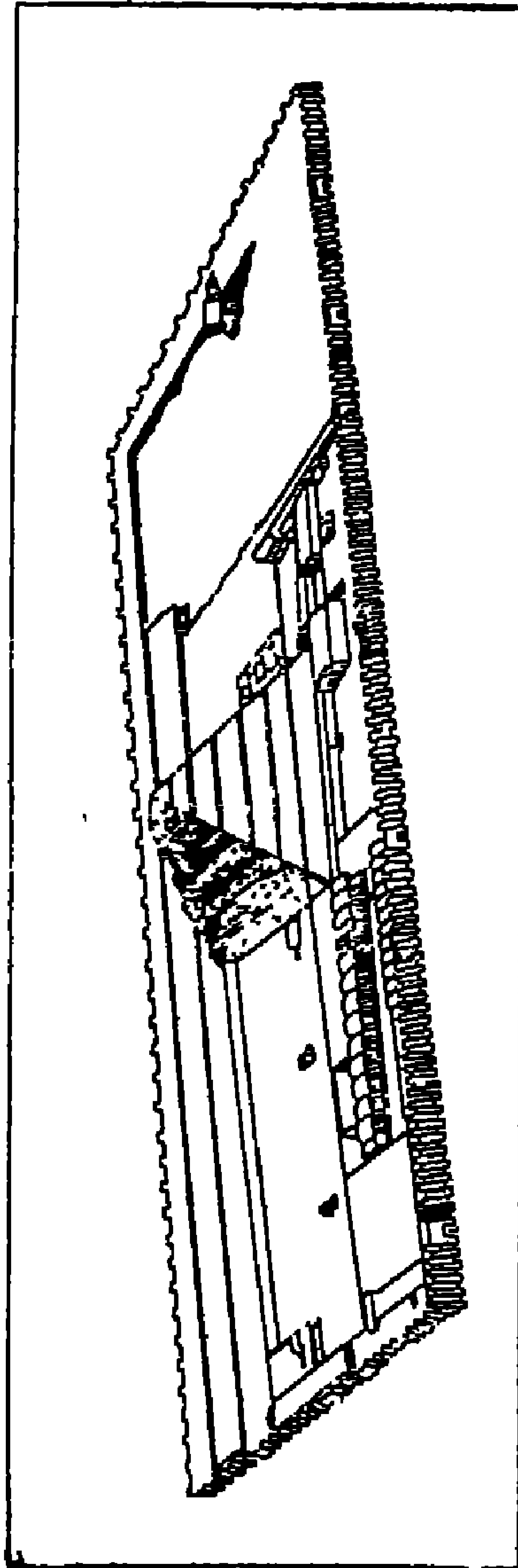
والموقع الذى اختاره إيمحوتپ لبناء ذلك المدفن ليس إلا جزءاً من منطقة مرتفعة عند سقارة ، تطل على مدينة منف وتشغل مساحة طولها ٥٩٧ ياردة من الشمال إلى الجنوب ، وعرضها ٢٠٤ ياردة من الشرق إلى الغرب ، وعلى مسافة قريبة من شمالها تقع جبانة الأسرتين الأولى

والثانية بمصاطبها العظيمة التى تضم مصطبة عحا (Aha') ، وربما أثبتت الحفائر المستقبلة أنها تحوى مقابر من سبقوا زوسر أيضاً . ولم يدفن زوسر فى مصطبة مثل من سبقوه ، بل دفن تحت بناء كبير يطلق عليه الآن اسم الهرم المدرج (لوحة رقم ٢) .

وكان هذا البناء هو أعظم المجموعة من المبانى الحجرية التى حوله ومركزها الرئيسى ، وكانت تلك الأبنية وما حولها من أبهاء واسعة مخصصة لإقامة الطقوس الدينية المتعلقة بالحياة الأخرى لهذا الملك (شكل ٣) ، وأقيم حول هذه المجموعة من المبانى سور ضخم ، واستخدموا الحجر الجيرى المقطوع من محاجر طره لكساء السطح الخارجى لتلك المبانى ، أما قلب المبانى نفسها فكانت مبنية من أحجار المنطقة نفسها .

ومع أن معظم الأجزاء الواقعة تحت سطح الأرض من الهرم المدرج قد فحصت أثناء القرن التاسع عشر ، فلم يعرف أحد حتى العشرين سنة الأخيرة شيئاً عن المبانى المحيطة به ، وقد أحال الزمن والهدم المتعمد تلك المبانى — ما عدا الهرم نفسه — إلى أكوام من الخرائب تعلوها طبقة سميكة من الرمال . وقد قامت مصلحة الآثار المصرية بحفائر علمية منظمة أتبعتها بترميم دقيق . وكلفت بذلك س. م. فيرث C. M. Firth وج.إ. كويبل J.E. Quibell وج.ب. لوير J. P. Lauer ، فكان من نتيجة تلك الحفائر أنه أصبح فى استطاعتنا معرفة شكل تلك المجموعة كلها أيام دفن الملك زوسر .

كان شكل الهرم المدرج عندما تم بناؤه عبارة عن كتلة من البناء ترتفع فى ست طبقات غير متساوية فى الحجم إلى علو ٢٠٤ قدما .



شكل ٣ — السور الخارجى حول الهرم المدرج

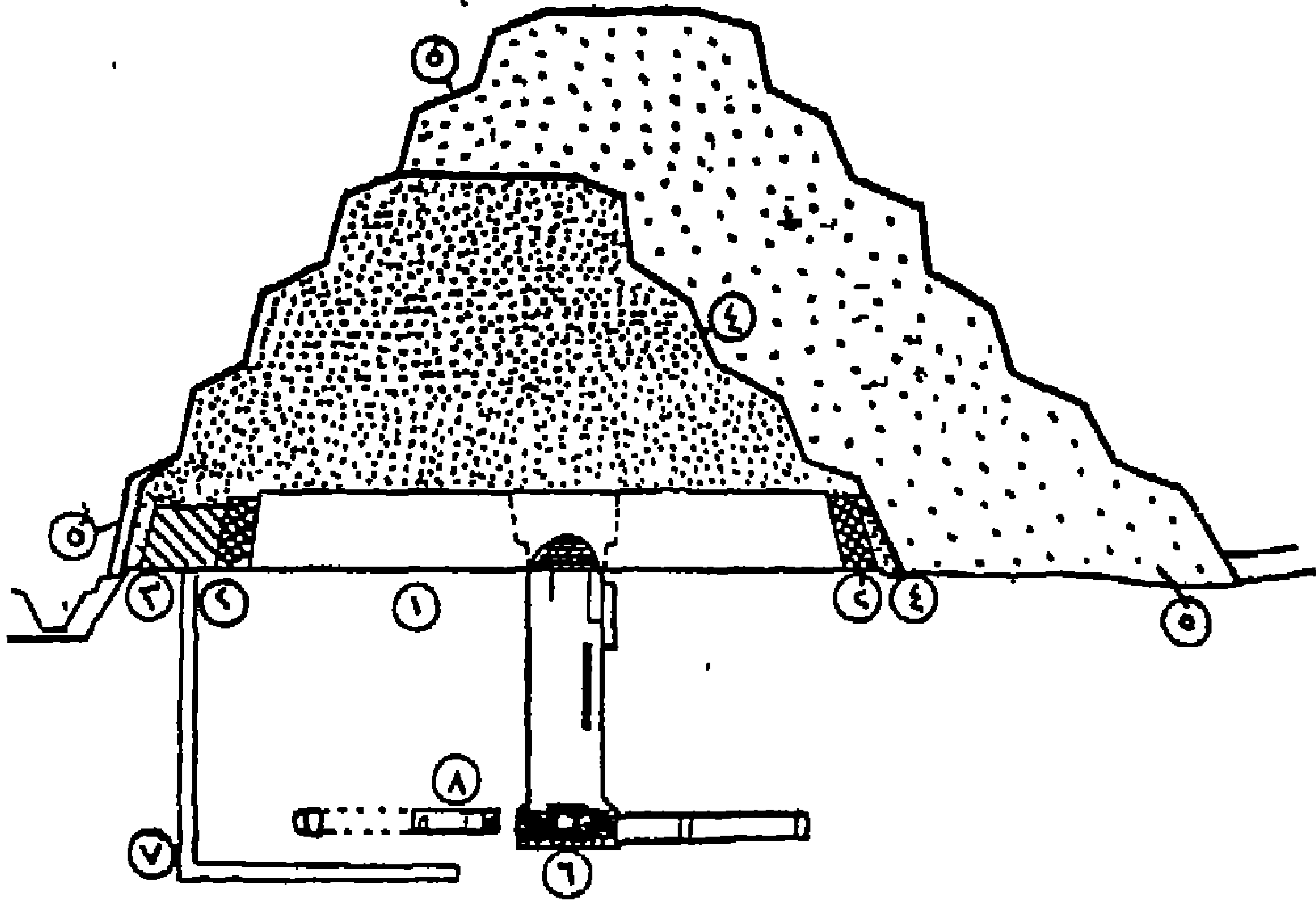
وكانت أطوال قاعدته ٤١١ قدما تقريباً من الشرق إلى الغرب ، و٣٥٨

قدماً من الشمال إلى الجنوب ، إلا أنه قبل أن يستقر الرأى على هذه الأبعاد حدثت عدة تغييرات فى تصميم البناء .

ويمكننا بسهولة مشاهدة بعض تلك التغييرات ، أما الباقى فقد أمكن تصوره ولا يمكن إثباته بدون هدم جزء كبير من بناء الهرم نفسه . وتوجد التغييرات التى أمكن إثباتها فى الأجزاء المتهدمة من الأثر ، إذ كانت مغطاة بطبقات من الأحجار زالت الآن وأصبح ما تحتها ظاهراً للعيان . وهى حالة من الحالات التى تكررت فى علم الآثار ، حيث زادت معلوماتنا العلمية على حساب خسارتنا الفنية .

وقد أقام زوسر فى أول الأمر مصطبة بنيت من أحجار المنطقة وكسيت من الخارج بطبقة من الحجر الجيرى الذى جاءوا به من طره (شكل ٤ ، ٥ — ١) . ويظهر أن هذه المصطبة — التى كان ارتفاعها ٢٦ قدماً والتى بنيت على مساحة مربعة ويواجه كل جانب منها تقريباً إحدى الجهات الأصلية الأربع ويبلغ طوله ٢٠٧ أقدام — كانت فريدة فى تصميمها . وبعد إتمامها زيدت جوانبها الأربعة بمقدار ١٥ قدما تقريباً ثم غطيت ثانية بعد ذلك بكساء من الحجر الجيرى (شكل ٤ ، ٥ — ٢) وكان ارتفاع هذه الزيادة أقل من ارتفاع المصطبة الأصلى بمقدار قدمين تقريباً ، وبذا تكونت مصطبة مدرجة (شكل ٤ — ٢) . وأضيفت زيادة ثالثة ، حوالى ٢٨ قدما من الجانب

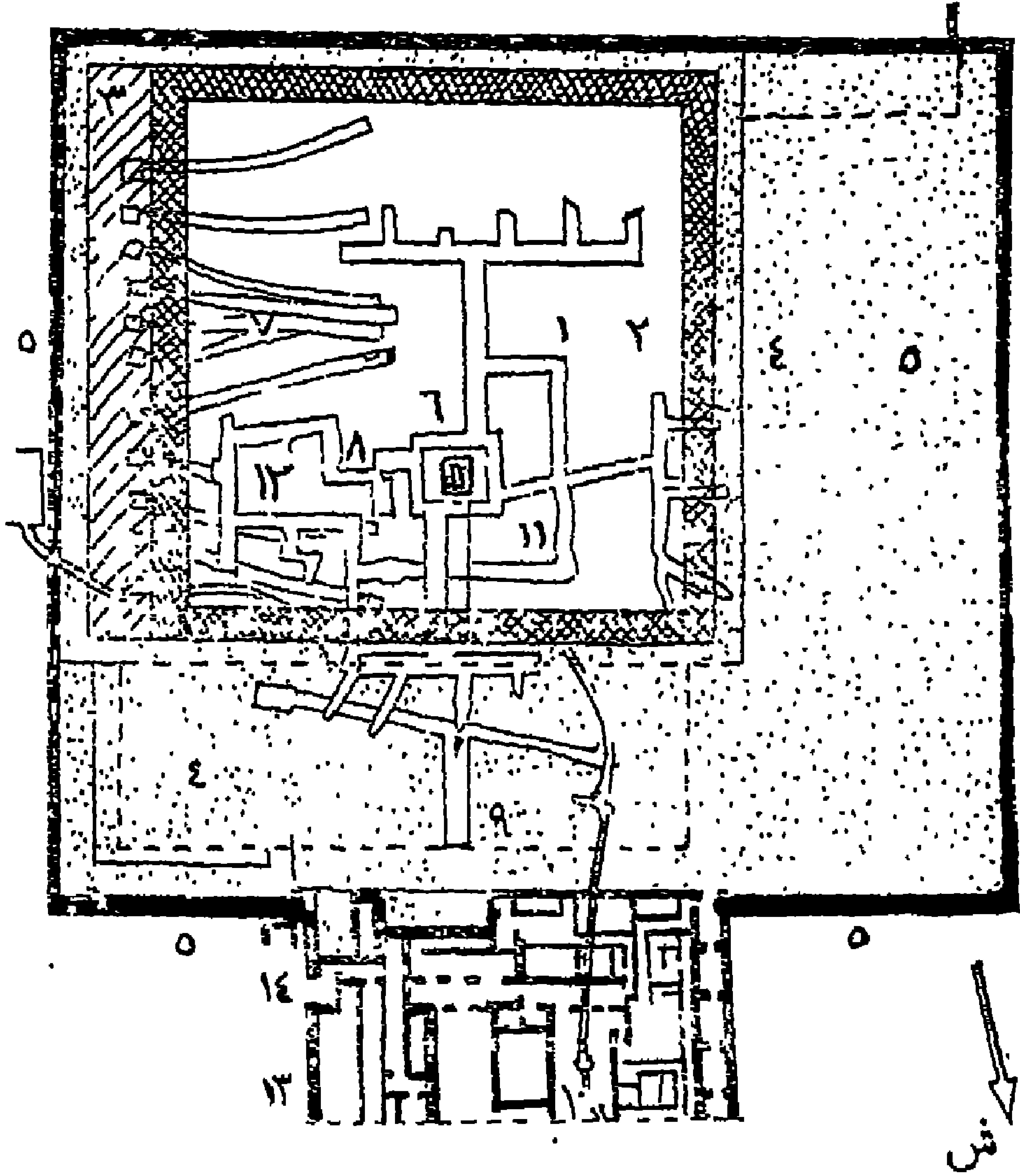
الشرقى ، جعلت القبر مستطيلا محوره الأطول من الشرق إلى الغرب (شكل ٤ ، ٥ — ٣) .



شكل ٤ — الهرم المدرج . قطاع فى اتجاه الناحية الجنوبية

وقبل تغطية الزيادة الثالثة بكساء ، غيروا تصميم البناء كله وأصبحت المصطبة التى زيدت من كل جانب ٩,٥ قدم هى الدرجة السفلية لهرم ذى أربع درجات (شكل ٤ ، ٥ — ٤) . وبدئ فى بناء معبد جنازى من الناحية الشمالية ، ولكن قبل أن يتم أى بناء منها قرروا أن يزيدوا بناء الهرم نحو الشمال والغرب (شكل ٤ ، ٥ — ٥) . ولو نفذت هذه الزيادة لزاد ارتفاع الهرم ، ولزيد عدد الدرجات إلى ست ، ولكنهم أوقفوا التنفيذ عند مستوى الدرجة الرابعة . والتغيير السادس والأخير فى تصميم الهرم المدرج كان عندما أضافوا شيئا قليلا إلى كل جانب من

الجوانب الأربعة وأتموا الدرجات الست وكسوا البناء كله بطبقة نهائية من حجر طرة الجيرى (شكل ٤، ٥ – ١٥).



شكل ٥ — الهرم المدرج : الأبنية الواقعة تحت سطح الأرض مع قطاع أفقى

ويتكون البناء السفلى للهرم المدرج من بئر عميق يفضى إلى عدد كبير من الممرات والحجرات ، جعلت منها مدفنا لا مثيل له بين الأهرام الأخرى التى من عهد الدولة القديمة ، لأن بعض هذه الأجزاء السفلية لم يكن قد تم بناؤه ، فليس من الميسور أن يعرف أيها كان من تصميم عهد زوسر وأيها أضيف فيما بعد أثناء البحث أو من عمل اللصوص . إلا أنه يمكن تحديد مدفن زوسر ومراحل البناء المتعاقبة بكل اطمئنان (شكل ٥) . فقد حفروا بئرا مساحتها ٢٣ قدما مربعا تقريبا وتصل إلى عمق ٢٨ قدما فى باطن طبقة الحجر الجيرى ، ثم حفروا نفقاً مسقفا على عمق ٢٣ قدما تحت سطح الأرض يبدأ من هذه البئر إلى مسافة ٦٦ قدما تقريباً ، وعند هذه النقطة — أى بعد اجتياز الحد الشمالى للمصطبة التى قصد زوسر فى ذلك الوقت بناءها — يستمر النفق مسافة ٧٠ قدما أخرى على هيئة خندق مفتوح تنحدر أرضيته إلى أعلى حتى تصل إلى مستوى الأرضية (شكل ٥ — ٩) . ثم عادوا يحفرون فى البئر حتى وصل إلى عمق ٩٢ قدما (شكل ٥ — ٦) . وترتب على تعميق البئر أن انخفضت أرضية الخندق حتى أصبحت منزلقاً ينحدر تدريجاً إليها . ولكنهم لم يخفضوا الأرضية إلى آخر مستوى عمق البئر ، بل إلى نقطة تبلغ نحو ٤٠ قدماً فوق قاعدته فقط .

وقد كان تصميم البئر والمنزلق فى الجزء السفلى للهرم المدرج شبيها بما كان متبعاً فى المصاطب الخاصة فى ذلك العصر . ولكننا نجد

فى المصاطب باباً عند قاع البئر يفضى إلى ردهة أحيطت بعدد من الحجرات تحوى واحدة منها الجسد ، ولكن حجرة الدفن فى الهرم المدرج أصبحت هى الجزء المركزى فى ترتيب الحجرات ، فقد بنيت كلها من حجر الجرانيت الوردى المجلوب من أسوان ، وتقع فى قاع البئر (شكل ٤ ، ٥ — ٦) .

وفى طرفها الشمالى ثقبوا فتحة فى أحد أحجار السقف لينزلوا منها الجثة عند الدفن . وبعد أن وضعوا الجثة فى الحفرة سدوا هذه الفتحة بسدادة من حجر الجرانيت ارتفاعها ستة أقدام تقريباً وتزن حوالى ثلاثة أطنان على وجه التقريب ، وفوق حجرة الدفن هذه كانت توجد حجرة يصلون إليها من المنزلق بواسطة باب وضعوا فيها السدادة الجرانيتية حتى جاء وقت وضعها فى مكانها . ولم يبق لهذه الغرفة من أثر الآن ، ولكنها ربما كانت مبنية من كتل من الحجر الجيرى ، ومن المرجح أن سقفها كان يتداخل كلما ارتفع (Corbelled) وكان متينا إلى درجة استطاع معها أن يتحمل ثقل وزن الرديم الذى ملىء به باقى البئر .

وعلى بعد ٧٠ قدما تقريباً من حجرة الدفن وموازياً لجوانبها قدت فى الصخر أربعة ممرات طويلة . وتوجد بضع درجات من السلالم تبدأ من أبواب فى الجدارين الشرقى والغربى للمنزلق مؤدية إلى توصل ممرات هذه الردهات ببعضها (شكل ٥ — ١١) . ولم يتم إنجاز

بعض هذه الردهات والممرات ، ولكنه من المرجح أنهم كانوا ينوون تغطية كثير من جدرانها بألواح صغيرة من الفيانس بطريقة تجعلها تشابه الحصر المصنوعة من نبات القصب المائى التى كانت تغطى جدران قصر زوسر ، وقد عثر على ألواح الفيانس من هذا النوع فى الممر الشرقى (شكل ٥ — ١٢) التى كشف عنها فى سنة ١٩٢٨ ، وكذلك فى حجرتين قريبتين من الزاوية الجنوبية الشرقية لحجرة الدفن (شكل ٤ ، ٥ — ٨) . وبين لوحات الفيانس على الحائط الغربى من الممر الشرقى وضعوا نقوشا بارزة على الحجر الجيرى تمثل الملك وهو يؤدى بعض الطقوس الدينية (لوحة ١٣) . وحول الحافات الخارجية للدخلات التى رسمت داخلها هذه المناظر كتب اسم الملك وألقابه . وتوجد كتابات مماثلة على جانبى الباب الذى يفصل بين الحجرتين المكسيتين بالفيانس الأزرق بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لحجرة الدفن . وقد نقل عالم الآثار الألمانى ريتشارد ليبسوس Richard Lepsuis الباب وبعض الفيانس إلى متحف برلين فى عام ١٨٤٣ .

ومن المحتمل أنه عندما وضع التصميم الأصلى لمصطبة زوسر كان يقصد أن يحتوى البناء السفلى على الحجرتين فقط اللتين فى أسفل البئر وعلى الردهات الأربع والممرات الموصلة بينها ، ولكن بعد أن قرروا الزيادة فى تصميم البناء العلوى لأول مرة حفروا إحدى عشرة بئرا

فى الأرض الواقعة فى الجانب الشرقى إلى عمق ١٠٨ أقدام تقريباً . ونجد فى أسفل كل بئر من الإحدى عشرة ، ردهة متجهة نحو الغرب تحت البناء العلوى (شكل ٤ ، ٥ — ٧). وقد عثر على تابوتين صنعا من المرمر الجميل احتوى أحدهما على جثة طفل فى نهاية الردهة الخامسة من اليسار ، كما عثر على قواعد من الحجر الجيرى لمثل هذين التابوتين فى بعض الردهات الأخرى . وبناء على ذلك يتضح لنا أن هذه الآبار والردهات كانت فى الغالب قبورا لأفراد الأسرة الملكية . ومن الجائز أنهم كانوا يريدون إقامة بناء علوى فوق كل قبر ، ولكنها دفنت جميعاً تحت الزيادة الثالثة للهرم ، وكانت الوسيلة الوحيدة للوصول إليها هى سلم طويل يوصل إلى القبر الذى فى أقصى الشمال .

ومنذ البداية حتى تعديل البناء العلوى للمرة الخامسة ، كان الوصول إلى الحجرات السفلية والردهات عن طريق النزول فى الخندق المفتوح والمنزلق من الجانب الشمالى (شكل ٥ — ٩) . إلا أن هذا الخندق المفتوح قد سد بالردم عندما عدل البناء العلوى من جهة الشمال ، وأصبح من الضرورى أن يحفر نفق آخر بدلا منه . وبدأ النفق الجديد ببعض درجات من السلالم قريبة من الطرف الشمالى للبناء العلوى (شكل ٥ — ١٠) ثم يسير فى طريقه إلى غرب الخندق السابق ، ثم ينحنى نحو الشرق ليلتقى بالمنزلق الأصلى بالقرب من نهايته العلوية . وواضح أنه أخذ طريقا متعرجا من غير ضرورة ، ومن الصعب أن نفهم الدافع الذى حدا بهم إلى بذل هذا المجهود دون مبرر .

وإذا استثنينا المعبد الجنازى والسرداب فليس للمبانى المحيطة بالهرم المدرج أى مثيل أو أصل نقلت عنه فى المبانى المصرية السابقة . وحتى المعبد الجنازى (شكل ٥ — ١٣) يمكن مقارنته بحجرة القرابين فى المصطبة من ناحية واحدة فقط ، وهى أنه المكان الذى كانت تتام فيه الشعائر الجنازية ، ويختلف كلية فى تكوينه المعمارى عن المصاطب المعاصرة ، فهو بناء ضخم مستطيل ملتصق بالواجهة الشمالية من الدرجة الأولى للهرم . ووضع المعبد فى الناحية الشمالية من هذا الأثر كان غير مألوف ، وفى جميع ما شيد بعد ذلك من أهرام نجد المعبد فى الناحية الشرقية ، مثل حجرة القرابين فى المصاطب التى كانت دائماً فى الناحية الشرقية من القبر ، ولم يوضع باب على مدخل المعبد ولكنهم نحتوا فى الحجرة شكل باب مفتوح فى الخد الشمالى للمدخل . وفى كثير من المبانى فى هذه المجموعة نراهم نقشوا فى الحجر ما يشابه الأبواب ، وكان حجم النقوش يماثل دائما المقاييس الحقيقية لتلك الأبواب ، فإذا ما دلفنا من المدخل نجد أنفسنا فى رواق طويل له منحنيات عديدة تؤدى إلى فناءين لا سقف لها ينزل من أحدهما درجات سلم تؤدى إلى البناء السفلى للهرم . وفى الطرف الجنوبى لكل فناء توجد ثلاثة ممرات تفضى إلى بهو واسع ، وقامت الحوائط القصيرة المزينة بأعمدة متصلة ذات قنوات على الجانب الشمالى منها فكانت فواصل لهذه الممرات . ومن أهم الخصائص المعمارية فى مبانى الهرم

المدرج تلك الأعمدة المتصلة المحلاة بزخارف مختلفة ، فهى والأبواب المقلدة لا يوجدان إلا فى هذا الأثر ، أما تصميمها فهو إما من وحى ساق واحد لنبات من النباتات أو من حزمة من سوق النباتات ضمت إلى بعضها .

وفى الجانب الغربى للفناءين المكشوفين توجد حجرتان فى كل منهما حوض من الحجر فى أرضيتها وهيكل له دخلتان غائرتان فى واجهة الهرم ، وهاتان الحجرتان تكملان العناصر القليلة لهذا المعبد التى بقيت فى حالة جيدة من الحفظ بجعلها كافية للتعرف عليها .

ومن المستحيل أن نتكهن على وجه التحقيق بالأصل المعمارى الذى استرشد به إيمحوتب عندما صمم هذا المعبد الجنازى ، ولكن يمكن اعتباره نسخة مبنية بالحجر من القصر الملكى فى منف . وهذا التفسير يساير النظرية التى لاقت القبول ، وهى أن معظم مبانى مجموعة الهرم المدرج ليست إلا نسخاً من المبانى التى كانت حول القصر الملكى . ولكن مهما كان التفسير الصحيح فإننا نلاحظ أن معظم العناصر المعمارية الأساسية (مثل الأبهاء وحجرات التطهير والدخلات فى الهيكل) نراهم قد بنوها مزدوجة ، مما يجعلنا نعتقد أن المعبد قد صمم لإقامة بعض الطقوس التى يجب تكرارها ، أى أن الملك يقوم بتلك الطقوس مرة بصفته حاكماً الوجه القبلى ومرة ثانية على أنه حاكم الوجه البحرى .

ويقع السرداب على مسافة قصيرة من شرق مدخل المعبد الجنازى

(شكل ٥ — ١٤) وقد بنى كله من الحجر الجيرى المجلوب من طره ، ويميل جداره الأمامى إلى الداخل بزاوية مقدارها ١٦° عن الخط العمودى ليماثل زاوية أسفل درجة من درجات الهرم التى كانت للمعبد بمثابة حائطه الخلفى ، وفى داخله نجد تمثال زوسر جالسا على عرشه (لوحة ٣ ب) يلبس رداء طويلا لا يظهر منه غير يديه وقدميه والجزء الأعلى من كتفيه وعلى رأسه جمة (شعر مستعار) طويلة يغطيها لباس للرأس من نسيج الكتان ، وربما كانت عيناه من البلور الصخرى فى تجويف من النحاس ، وظل عالقا بذقنه جزء من اللحية المستعارة ، وهى رمز الملكية . وثقب ثقبان فى الجدار الأمامى لهذا السرداب أمام وجه التمثال ، إما لكى يسمحا بدخول دخان البخور ليصل إلى التمثال ، وإما ليمكنا التمثال من النظر إلى ما أمامه .

وفى خارج السرداب كان هناك سور صغير له مدخلان ؛ الأول ضيق عند الركن الجنوبى الشرقى والآخر وهو المدخل الرئيسى كان فى الناحية الشمالية . وقد نقش على كل من جانبى المدخل الرئيسى رسوم تمثل الأبواب الخشبية وكأنها مفتوحة فيمكن أن يرى السرداب من الفناء المكشوف الكبير خارج السور .

ويتسامى بناءان كبيران مستطيلان ذوا أسقف مقبية ويشرفان على كل المساحة الواقعة شرقى كل من فناء السرداب والهرم . وقد بنى

كل منهما بالحجر من الداخل ثم كسى من الخارج بالحجر الجيرى المجلوب من طره . وزينت الواجهة الجنوبية بأربعة أعمدة متصلة دقيقة الصنع تحمل مع دعامات عريضة على كل من جانبيها إفريزا ينحنى تبعا لقبو السقف . وفى البناء الواقع فى أقصى الناحية البحرية فى هذين البناءين حفرت قنوات رأسية فى كل من الأعمدة المتصلة والدعامات . وفى البناء القبلى حفرت قنوات مماثلة فى الأعمدة ، ولكن الدعامات ذات أضلاع ، أما تيجان الأعمدة المتصلة فإنها تشبه ورقتين كبيرتين من أوراق الشجر متدليتين . ولم يعثر على هذا النوع إلا فى هذه المجموعة الهرمية فقط . وكان بالقرب من أعلى هذه الأعمدة المتصلة ثقبان مربعان ربما كان مثبتا فيهما أرفف تحمل بعض الشارات .

ونجد قريبا من وسط الواجهة الجنوبية من كل بناء مدخلا يفضى إلى ممر ضيق يؤدى بدوره — بعد لفتين كل منهما زاوية قائمة — هيكل صغير إلى صليبى الشكل . وفى جدران هذا الهيكل بنيت ثلاث كوات كانت تستخدم إما لوضع القرابين أو لوضع تماثيل صغيرة ، وكان فى الفناء الشمالى كوتان داخلتان فى الجدران عند نهاية الممر . أما أحجار أسقف هذه الممرات فقد زخرفت لتحاكى العروق الخشبية التى كانت تسقف بها الأبهاء المماثلة فى البيوت المبنية من الخشب واللبن .

وكان يوجد إلى غرب المدخل ، ومختفيا عن الأنظار خلف الكساء

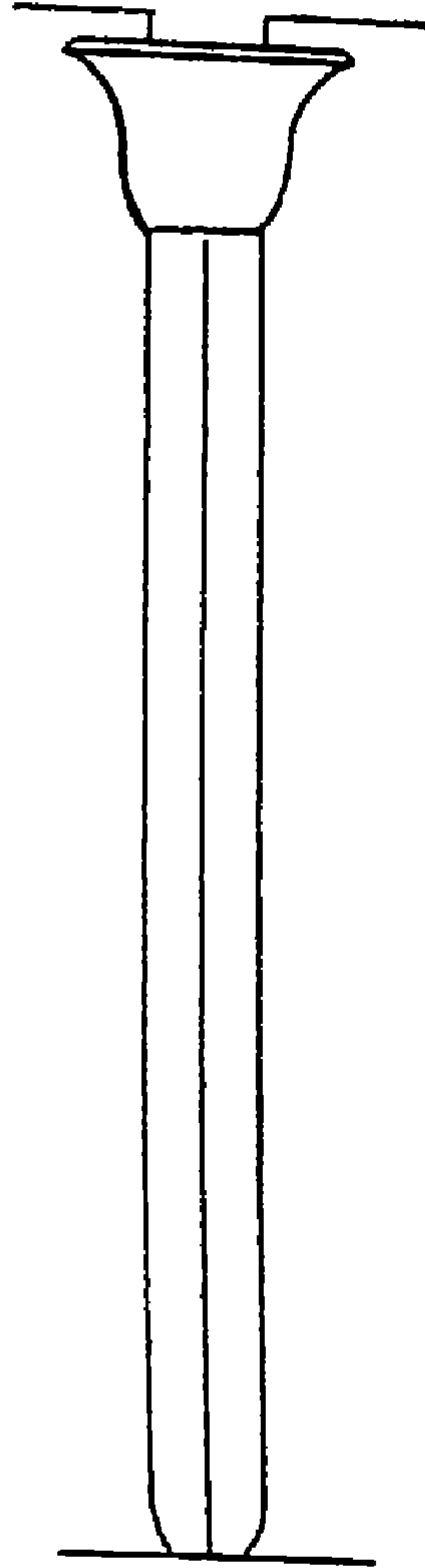
الحجرى ، ممر آخر يؤدى إلى حجرة صغيرة إذا قارناها بالسرداب المقفول فإننا نجد شبها بينهما ، ولهذا يمكننا أن نحكم بأنها كانت تحوى تمثالا .

وكان أمام هذين البناءين فناءان مكشوفان ، الجنوبى منهما يزيد كثيرا فى حجمه عن الآخر ، وكان يحيط بالفناءين سور نرى فى جانبه الشرقى قريبا من ركن كل من البناءين دخلة عريضة فى الجدار ، وقد زينت هذه الدخلة فى الفناء الشمالى بثلاثة أعمدة متصلة كل منها يمثل ساق وزهرة البردى (شكل ٦) . واحتوت الدخلة فى الفناء الجنوبى على عمود واحد متصل فقط ربما كان يمثل نبات اللوتس .

وليس هناك حتى الآن تفسير مقنع للغرض الأساسى الذى من أجله أقيم هذان البناءان ومـــدى ما كانا يؤديانه من خدمة لزوسر فى حياته القادمة ، فكان هناك من يقول فى وقت من الأوقات أنهما كانا قبرين لاثنتين من بناته — إنتكاإس (Intkaes) وحتيب حرنبتى Hetephernebti — اللتين نقش اسماهما على بعض اللوحات التى عثر عليها بجوارهما ، ولكن الاكتشافات الحديثة فشلت فى العثور على أى شىء فى تركيبهما يمت إلى الأصول الجنازية بصلة ، ولذا لا بد من البحث عن تفسير آخر . ومن الممكن أن يكون فى الرسوم التى فى دخلات الفناءين ما يساعدنا على فهم كنههما .

فمن المعروف أن نباتى اللوتس والبردى كانا رمزين لمصر العليا والسفلى على

التعاقب، وعلى ذلك فمن الممكن أن يمثل البناء الجنوبى الهيكل الوطنى لمصر العليا

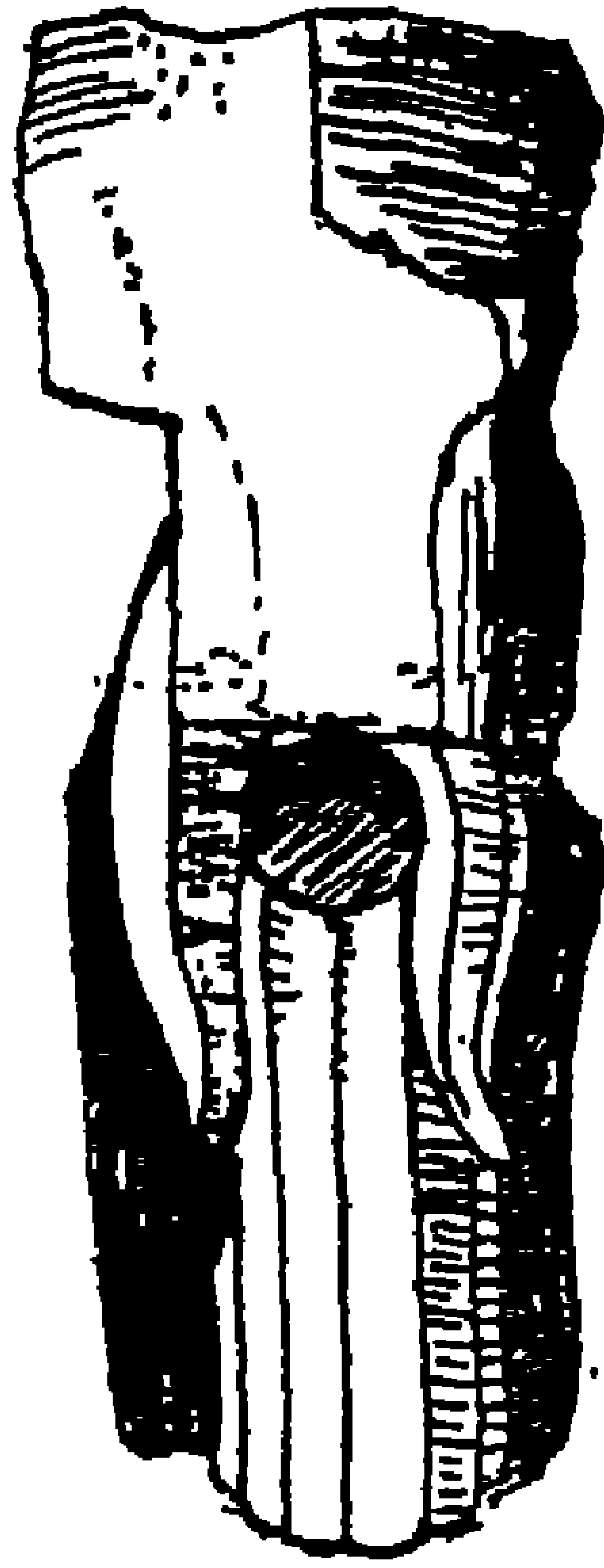




شكل ٦ — عمود بردى متصل

فى عصر ما قبل الأسرات الذى كان يوجد فى الكوم الأحمر Hierakonpolis ، بينما يمثل البناء الشمالى الهيكل المماثل لمصر السفلى فى مدينة بوتو (Buto) . ويدل وجود مذبح على شكل حدوة الحصان فى فناء البناء الجنوبى دلالة قاطعة على أن هذا البناء بنى لغرض دينى وليس لغرض دنيوى .

وإلى الجنوب من سور البناء الجنوبى نرى فناء مستطيلا آخر ، جانباه الشرقى والغربى يحويان مجموعة من الهياكل الرمزية بنيت من أحجار متينة (شكل ٣) وأمام كل هيكل منها فناء صغير به ما يحاكى الباب المفتوح ، ويخفى بروز فى وسط جداره الجنوبى كوة غائرة فى قاعدة واجهة الهيكل . ومن الناحية المعمارية يمكننا القول بأن واجهات عشرة هياكل من الثلاثة عشر هيكلا فى الجانب الغربى تشبه جداً واجهات البناءين الشمالى والجنوبى . فقد احتوت كل واجهة على ثلاثة أعمدة متصلة زينت بفنوات رأسية وتحمل كورنيشا مقوساً ويتصل أطرافها بدعامات عريضة . وكانت تيجان هذه الأعمدة كما فى البناءين الشمالى والجنوبى مكونة من ورقتين كبيرتين من أوراق الأشجار المتدلية (شكل ٧) وقطعوا بين الورقتين ثقبا واحداً مستديراً ليثبت به رف يحمل شارة من الشارات ، ويظهر أن واجهات الهياكل الباقية فى الجانب الغربى وكل الهياكل فى الجانب الشرقى كانت بسيطة خالية من كل زخرف اللهم إلا من خرزة مستديرة من الحجر تظهر فى أعلاها وعلى الجانبين .



شكل ٧ — تاج عمود مركب من أوراق شجر متدلية

وقد أقيم هذا الفناء والمبانى المحيطة به لتمد زوسر بما يلزمه ليعيد فى حياته بعد الموت الاحتفال بعيده الثلاثينى المعروف عند قدماء المصريين باسم حب . سد (Heb. Sed) فقد كان لكل ملك مصرى الحق فى أن يحتفل بعيد الحب . سد بعد أن يقضى على العرش عدداً محدداً من السنوات اختلف عددها من عصر إلى عصر . وأصل هذا الاحتفال غامض ، ولكن يظهر أنه بقية من الماضى البعيد عندما كان الملوك يحكمون لمدة محدودة فقط قبل أن ينهوا حياتهم فى احتفال خاص . ومن هذه العادة البدائية جاء دون شك الاعتقاد بأنه من

الضرورى لصالح المملكة وجوب بقاء قوة الملك الجسدية دون أن يعتورها نقص ، وبذلك محا عيد الحب . سد Heb. Sed ضرورة تنصيب ملك شاب بدلا من الملك الذى قضى وقتاً طويلا على العرش، وذلك بتمكين ذلك الملك من استعادة قوته بفعل السحر . ومن أهم عناصر عيد الحب . سد إعادة تتويج الملك .

وفى هذا الاحتفال يدخل موكب يقوده أحد الكهنة الذين يطلق عليهم المصريون اسم « كاهن سم » إلى تلك الهياكل المحيطة بفناء الحب . سد والتى يجتمع فيها آلهة الأقاليم فى الوجه القبلى . وبعد الحصول على موافقة كل إله بتجديد حق الملك فى الملك يؤخذ الملك إلى أحد العرشين فى أقصى الجنوب ويجلسونه على مقعد تحت مظلة لكى يتوج بالتاج الأبيض الخاص بالوجه القبلى ،ويعاد الاحتفال من جديد فى الهياكل الخاصة بأقاليم الوجه البحرى قبل أن يعتلى الملك عرش الشمال ليتسلم التاج الأحمر الخاص بالوجه البحرى ، ويرمز إلى اتحاد المملكتين فى طقس يتلو ذلك بربط زهرتى اللوتس والبردى حول وتد مثبت فى الأرض .

وهناك طقس فى عيد الحب . سبب غير واضح المعنى تماما ، فقد كان مفروضا على الملك أن يجرى مسافة معينة وبيده سوط صغير

مصحوبا بكاهن يسمى كاهن أرواح نخن[1] (Nekhen) فى أحد النقوش المكتشفة بالهرم المدرج نرى زوسر وهو يقوم بهذا الطقس (لوحة ١٣) ، وربما جاءت فكرته من اعتقاد قديم بأن خصوبة الحقول تتوقف فى بعض الحالات على خفة الملك الجثمانية .

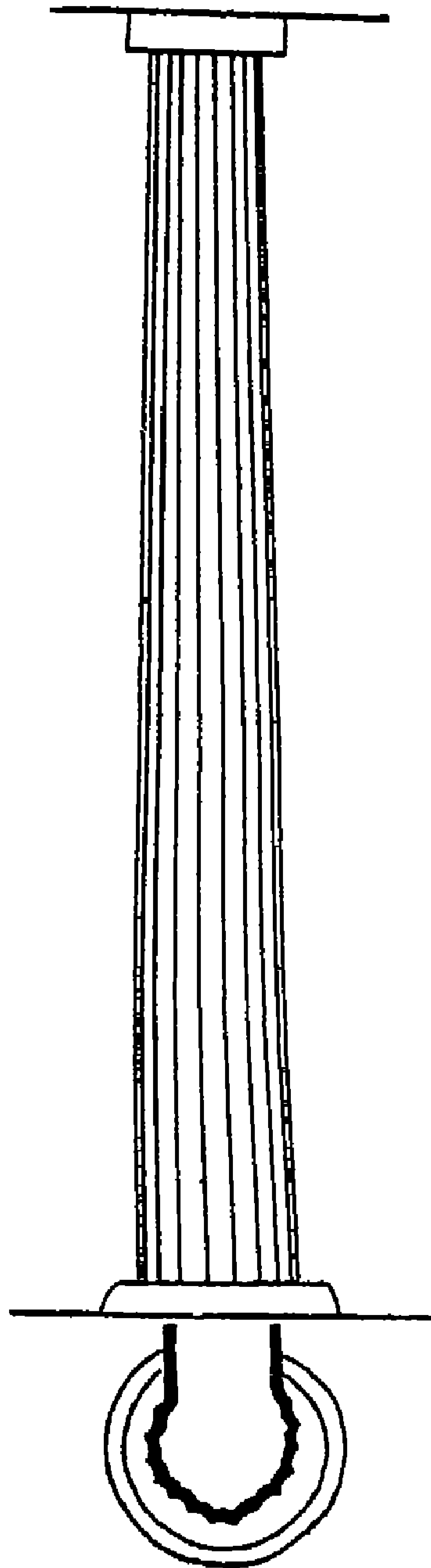
وبالإضافة إلى الهياكل التى سبق لنا وصفها ، فى فناء الحب . سبب بالهرم المدرج فى طرفه الجنوبى نرى قاعدة التتويج ، وفى الهيكلين الثانى والثالث فى الناحية الغربية قريباً من هذ المقعد ، دخلات تصل إليها ببضع درجات ربما كانت توضع عليها تماثيل للملك ، ففى التى فى أقصى الجنوب يوضع تمثاله كملك للوجه القبلى وفى التى فى أقصى الشمال تمثاله كملك للوجه البحرى . وإن قرب هذه الدخلات من القاعدة يجعلنا نفترض أن المبانى التى كانت تنتمى إليها كانت تمثل الأكشاك التى يستريح الملك تحتها حتى يقوم الكهنة بعمل الطقوس التى تسبق التتويج المزدوج .

وهناك ممر يبدأ من الركن الجنوبى الغربى لفناء الحب . سبب ويصله بفناء صغير فيه بناء متوسط الحجم ، بنيت حوائطه الخارجية بأحجار غير سميكة خالية من كل زخرف اللهم إلا خرزة مستديرة على الواجهة

(١) كانت (أرواح نخن) ملوكا فى عهد ما قبل التاريخ على الوجه القبلى الذى كانت عاصمته فى نخن (أى هيراكونبوليس) Hierakonpolis ومكانها الآن الكوم الأحمر إلى الشمال من أدفو .

الجنوبية ، وفى داخلها نراها تحتوى على بهو وثلاث قاعات داخلية ومجموعة من الحجرات الجانبية . ويبرز من وسط الجانب الغربى لمدخل الصالة ثلاث حوائط تنتهى إثنتان منها بأعمدة متصلة محلاة بقنوات رأسية (شكل ٨) وربما احتوت الفجوتان المكونتان من بروز هذه الجدران على تماثيل ، ولكن لا يمكن التكهن إن كانت هذه التماثيل للملك أو لآلهة ما دام الغرض الأصلى من هذا البناء غير معروف ، ولكن قربه من فناء الحب . سد يرجح الظن بأن استعماله كان متعلقا بعيد الحب . سد ، وربما كان المكان الذى يقصد إليه الملك لتغيير ملابسه أثناء الاحتفال . ومن جهة أخرى ربما أقيم لأجل القيام بطقس آخر ما زال الغرض منه مجهولا .

ومن بين الأبنية التى يصعب تفسيرها أو معرفة الغرض منها مجموعة الأروقة والحجرات التى تؤدى إلى فناء الحب . سد فى الركن الجنوبى الشرقى ، فنظراً لعدم وجود أى عناصر معمارية مميزة ظن البعض بأنها هى الأخرى ذات علاقة بعيد الحب . سد . وهناك دهليز يربط فناء الحب . سد بالطرف الشرقى لبهو الأعمدة ، وهو قريب جداً من بوابة فى السور الخارجى . وهذه البوابة هى المدخل الوحيد لهذه المجموعة من المبانى . وبهو الأعمدة هذا عبارة عن ممر طويل ضيق يتجه نحو الغرب ، على جانبيه مجموعة من الفجوات الناتجة من الجدران التى تبرز على كلا الجانبين (لوحة ٤) وتنتهى هذه الجدران

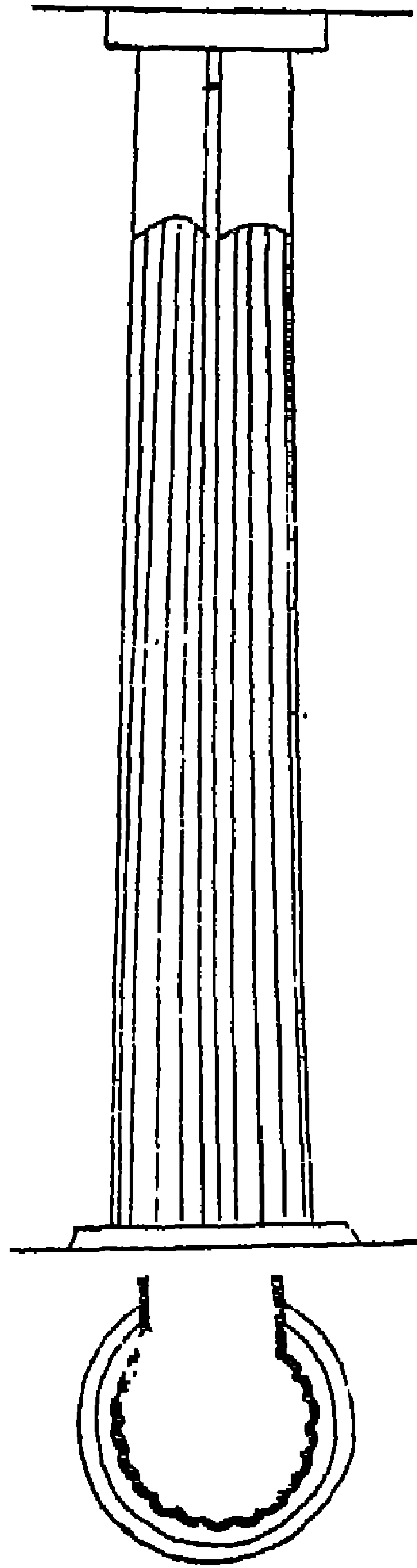


شـكل ٨ — عمود منصل ذو قنوات

البارزة — وعددها أربعون — بأعمدة متصلة مضلعة ، ويختلف عدد الأضلاع من سبعة عشر إلى تسعة عشر ضلعا (شكل ٩) . وربما حوت هذه الفجوات فى داخلها تماثيل للملك تمثله تلك التى على الجانب الجنوبى منها ملكا للوجه القبلى ، وتمثله تلك التى على الجانب الشمالى ملكا على الوجه البحرى .

ولما كان عدد هذه الفجوات يتناسب مع الاثنين والأربعين إقليما ، فقد حسب البعض أن كلا منها احتوى على تمثال مزدوج للملك مع أحد آلهة الأقاليم ، ولكن بالرغم من أن تماثيل مجاميع من هذا النوع كانت معروفة فى الأسرة الرابعة فإن الحفائر لم تكشف عن وجود أى أثر لمثل هذه التماثيل فى حالة الأعمدة .

وكان البناء كله مغطى بسقف حجرى مسطح فى أعلاه ومنحوت من أسفل ليحاكى كتل الخشب المستديرة ، أما النور فقد كان يأتى من فتحات مائلة فى جوانب الجدران على مقربة من السقف تسمح بدخول أشعة من الضوء ربما قصدوا منها أن تسقط على الزخارف التى كانت تزين الفجوات . وكان يتصل بطرف صالة الأعمدة الغربى دهليز صغير ، حمل سقفه الذى يشبه سقف بهو الأعمدة على ثمانية أعمدة مضلعة ، يوصل بين كل اثنين منها حائط صغير ، وفى الجدار الغربى تقليد فى الحجر لباب مفتوح يؤدى إلى فناء مكشوف يحتل كل المساحة من واجهة الهرم الجنوبية إلى السور الكبير . وبنيت الجدران الجانبية لهذا الفناء بالحجر الجيرى



شكل ٩ — عمود متصل مضلع

المنحوت ، وزينت بدخلات . وفى الطرف الشمالى قريباً من الهرم ، نرى مذبحا تصل إليه بمنحدر صاعد . وهناك أيضاً بناءان إلى الجنوب من المذبح يشبه كل منهما حافر الجواد ، وربما كان الغرض من وجودهما أنهما كانا النهاية التى ينتهى عندها أحد الطقوس ، ولكن لم يظهر إلى الآن ما يساعدنا على معرفة حقيقته .

وفى الركن الجنوبى الغربى من الفناء الجنوبى المتصل بالسور، مبنى مستطيل أقيم كله من الحجر ، وكسيت حوائطه من الخارج بالحجر الجيرى ، وزينت من أعلى بإفريز من حيات الكوبرا ، ولا يحتوى داخله إلا على حجرتين طويلتين تكون الواحدة منهما مع الأخرى زاوية قائمة . وإذا كان هذا البناء غير متصل بالطقوس أو الاحتفالات التى كانت تقام فى الفناء الجنوبى ، فلا بد أنه كان مستخدما كحجرة للقرابين لمصطبة كبيرة كان بناؤها العلوى الذى يجرى محوره من الشرق إلى الغرب مختفياً فى مبنى السور الكبير . ويتشابه موقع هذا البناء فى الجانب الشمالى للمصطبة مع المعبد الجنازى وموقعه من الهرم المدرج .

ويتشابه البناء السفلى لهذه المصطبة الجنوبية فى كثير من معالمها مع الهرم المدرج . فقد بنيت حجرة الدفن من كتل من الجرانيت الوردى فى قاع البئر العمودى . ويحتوى سقفها المسطح على ثقب (أغلب الظن أنه قد سد بكتلة من الجرانيت) يسمح بنزول الجسم . وكان فوق حجرة الدفن مباشرة حجرة أخرى ، القصد منها أن يحتفظ بالسدادة فيها

قبل عملية الدفن ، وحمل سقفها كل الرديم الذى ملأ البئر . إلا أن المنزلق الجانبي بدلا من أن يؤدى إلى هذه الغرفة كنظيره فى الهرم المدرج ، فقد زحزح إلى الجانب القبلى ليفضى مباشرة إلى الممرات التى تقع جميعها فى الجهة الشرقية من حجرة الدفن . ووجد فى أحد الدهاليز ثلاثة مناظر منقوشة ، وكل منها يمثل زوسر أثناء تأديته بعض الطقوس الدينية . وفى دهليز مواز على مسافة قصيرة إلى الغرب من الدهليز الأول ، نقشت ثلاثة أبواب من خلف فى واجهة الحائط الحجرى . ووجود هذه الأبواب خلف النقوش تقريباً يجعلنا نظن أن اللوحات المحتوية على النقوش كانت معتبرة كأبواب وهمية ليخرج منها الملك .

وكان بعض جدران هذه الدهاليز مغطى بألواح الفيانس الأزرق، تقليداً لستائر الجدران التى كانت مصنوعة من نبات القصب المائى (لوحة ٥)

ومنذ أن ثبت على وجه التحقيق أن زوسر قد دفن تحت الهرم المدرج ، نجد من الصعب تفسير بناء مقبرة ثانية فى نفس المجموعة الهرمية ، لها كل المظاهر التى تنبئ بأنها كانت معدة له . ونحن نعرف أن ملوك مصر بنوا فى بعض الأحيان أكثر من قبر واحد — فمثلا سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة بنى هرما فى ميدوم وآخر فى دهشور[1] — كما أن

(١) بنى سنفرو هرمين فى دهشور ، ولا يعلم إلى الآن على وجه التحقيق بأنى هرم ميدوم (المعرب) .

النقوش التى على الأبواب الوهمية فى المصطبة الجنوبية دليل قوى على أن زوسر بنى هذا القبر لاستعماله الشخصى ، إلا أن حجرة الدفن تبلغ مساحتها ٣ أقدام و ٣ بوصات مربعة فقط ، وهى مساحة لا يمكن أن تتسع لجثة إنسان ذى حجم عادى إلا إذا كان مقرفصاً ، وهى طريقة من طرق الدفن لا يحتمل استخدامها لشخص ملكى فى الأسرة الثالثة . وعلى ذلك فإما أن تكون هذه المقبرة قبراً رمزياً بنيت لاستخدامها فى فى التضحية الرمزية للملك أثناء عيد الحب . سد ، أو أنه كان المدفن الفعلى لأحشائه التى استخرجت من الجسم لتساعد فى المحافظة عليه .

وهناك بناءان متوازيان مبنيان بالحجر يملآن أكثر المساحة الواقعة فى الجانب الغربى من مجموعة مبانى الهرم المدرج .

فالجدار الخارجى للمبنى الأول ، وهو يواجه البناء الجنوبى ، كان مزيناً بدخلات وثنيات تعطيه شكلا يتفق وباقى الجدران فى الناحيتين الجنوبية والشرقية لهذا الفناء . أما المبنى الثانى ، وهو أعلى من المبنى الأول ، فقد كان له سقف مقوس يحاكى سقف المصطبة الجنوبية ، وعلى ذلك فربما كان البناء العلوى لصف من القبور لأتباع زوسر ، ولكن نظراً لطبيعة الصخر الهشة تحت هذا المكان لم يتمكن أحد حتى الآن من حفرها حفراً كاملا . وخلف هذين البناءين يقوم السور الخارجى السميك .

ومن المحتمل أنه لم يتم مطلقاً إنجاز العمل فى المساحة الواقعة بين

المعبد الجنازى والجدار الشمالى للسور ، إذ أن كل معالمها الظاهرة عبارة عن جزء مرتفع من الأرض به ردهات ورصيف تبلغ مساحته ٥٠ قدماً مربعاً تقريباً ، وهو مرتفع قد سوى فى الصخر . ونراهم قد كسوا ذلك الرصيف من الخارج بالحجر الجيرى ، وهو على خط واحد تقريباً مع المحور الشمالى الجنوبى للهرم ، ومن المحتمل جداً أنه كان مستخدماً كذبح . أما جدار السور الكبير فى هذه الناحية فقد بنى على هيئة حجرات صغيرة تفصلها جدران من الحجر .

ونظراً لأنه لم يعثر أثناء الحفر على أثر لأى شىء قد وضع فى هذه الحجرات ، فمن غير المحتمل أنها استخدمت فى أى وقت من الأوقات لتخزين أى شىء جنازى .

وعلى أى حال ، فتحت حجرات السور كانت هناك الحجرات فى الممرات السفلية التى احتوت على خبز وفاكهة وبعض مقومات الحياة فى العالم الآخر .

وكان ارتفاع السور المحيط بمجموعة الهرم المدرج ٣٣ قدما تقريباً ، ومحيطه أطول من ميل (شكل ٣) وهو عبارة عن جدار سميك مبنى بالحجر ، وقد كسى جزء من واجهته الداخلية وجميع واجهته الخارجية بأحجار منحوتة من طره . ونرى فى الواجهة الخارجية شرفات كشرفات الحصون ، وهى مستطيلة تبعد كل منها عن الأخرى بمسافة ١٣,٥ قدما ، وكلها بحجم واحد اللهم إلا أربعة عشر منها أكبر

حجما . وعلى كل من هـذه الشرفات الأكبر حجما — والتى نراها فى أماكن مختلفة من السور دون أن يكون لها ترتيب خاص — رسوم لأبواب مغلقة ذات ضلفتين ، مضفية على هذه الشرفات البرجية مظهر البوابات العظيمة . أما الباب الذى استخدموه فهو بالقرب من الركن الجنوبى للجانب الشرقى ، حيث نجد برجين بينهما ممر ضيق يفضى إلى مدخل بهو الأعمدة ، ونراهم رسموا كذلك أبواباً ذات ضلفتـــين مفتوحتين على الجدران داخل هـذين البرجين . وأما واجهة السور الخارجية فقد زينوها كلها بثنيات وزخرفوا نصفها العلوى بمستطيلات صغيرة غائرة ، رتبت عمودياً كل ثمانية منها فى صف . والجدران المحتوية على المدخلات والمخرجات فى المقـابر المصرية قديمة العهد ، وترجع إلى أوائل أيام عصر الأسرات . وليست المصطبة المبنية بالطوب التى ، والتى لا تبعد كثيراً عن الهرم المدرج والتى تنسب إلى الملك عحا ، إلا مثلا واحداً من كثير من الأمثلة المعروفة ، إلا أن السور المحيط بتلك المصطبة لا يحوى دخلات وخرجات ، بل كان مسطحاً (شكل ٢). ووجود الأربع عشرة شرفة والبوابة فى جدار زوسر لم يقصد به مجرد تمثيل لجـدار قصره ، بل كان نسخة حجرية من « الجـدر البيضاء » المشهورة التى بناها مينا حول منف . ويبدو أن « الجدر البيضاء » كانت مبنية من الطوب اللبن ، ثم غطيت بطبقة رقيقة من الجبس الأبيض .

ولو ألقينا نظرة عامة على الهرم المدرج ، لوجدنا أننا لا نعدو

الحقيقة إذا قلنا إنه من أحسن الأعمال المعمارية التى خلفها قدماء المصريين . وقد نظرت إليه الأجيال فى عهد المصريين القدماء أنفسهم نظرة تقدير عظيم ، ولم يقف بهم الأمر عند حد احترامهم لإيمحوتب Imhotep ولكن بما خلفوه أيضا الكتابات الهيراطيقية على جدران الممرات فى المبنى الجنوبى التى تعبر عن الإعجاب الذى أحس به المصريون الذين زاروا ذلك الأثر بعد مضى أكثر من ألف سنة على بنائه . فلم يحظ أى هرم آخر من الأهرام المعروفة بمثل هذه المجموعة من المبانى العظيمة لتزود الملك بكل ما يحتاج إليه فى الحياة بعد الموت ، وقد اكتفى الملوك الذين حكموا بعد مرور أسرتين بعد الأسرة الثالثة بعمل رسوم منحوتة على الأحجار . ولنضرب لذلك مثلا بالمجموعة الهرمية لساحورع الملك الثانى فى الأسرة الخامسة ، فإنها تحوى نقوشا تمثل الحب . سد ولكنها لا تحتوى على فناء فيه مبان شيدت خصيصا لاستخدامها فى هذا الاحتفال .

وطالما شك بعض الباحثين فيما إذا كان من الميسور أن يصل المصريون القدماء إلى هذه الدرجة العالية من الكمال دون أن يسبقها تطور طويل المدى ، ولكن بالرغم من ذلك فليس هناك أى دليل على أن الحجر قد استعمل فى أى مبنى سابق اللهم إلا فى إقامة أجزاء متفرقة فى بعض المصاطب . كما أن الهرم المدرج يحوى كثيرا من الأدلة على أن البنائين الذى شيدوه كانت تنقصهم الخبرة فى استخدام

الحجر للبناء ، فاستخدموا مثلا أحجارا صغيرة الحجم يسهل نقلها بدلا من الأحجار الضخمة التى نراها بعد ذلك فى المبانى ، وهذا يدل على أن المصريين لم يتقنوا صناعة قطع الأحجار ونقل الأحجار الثقيلة إتقانا تاما حتى ذلك العهد . وكذلك الأعمدة المتصلة ، فمن المحتمل أنها لم تصنع حبا فى الجمال الفنى ولكنها أقيمت بسبب تشككهم فى قوة احتمال العمود المنفرد . وفى الزخارف أيضا نجد أن الأشكال الزخرفية التى فضلوها كانت منقولة عن الخشب أو البوص أو من مبانى الطوب اللبن التى كانوا يستخدمونها فى مبانيهم قبل ذلك . فالأشكال الخاصة بالحجر وتناسبه لم تكن قد ظهرت حتى ذلك الوقت .

ولم يكن عظم الحجم والتصميم المعمارى هما كل ما جعل هرم زوسر يفوق مقابر أسلافه ، فقد وضع فيه من الأثاث الجنازى شيئاً لم يحاوله أحد من قبل . وبالرغم من تعرض هذا الهرم للنهب والسلب مدة لا تقل عن أربعة آلاف سنة ، فقد ظل محتفظاً بالكثير ، وأمد المكتشفين أثناء الحفائر الحديثة بآلاف من الأوانى والأطباق ذات الأشكال الجميلة المصنوعة من المرمر والاردواز Schist والحجر السماقى Porphyry والبرشيا Breccia والبللور الصخرى وحجر السربانتين Serpenitine وأحجار أخرى كثيرة ، وما زالت كميات هائلة منها ينتظر نقلها من مقابر الأسرة المالكة ، حيث نجدها مكدسة فى أكوام

تصل من الأرض إلى السقف . ولم يوضع طعام أو أى مادة أخرى داخل هذه الأوانى ، وربما كان وجودها فى حد ذاته ذا صلة بما يتلوه الكاهن من صيغ سحرية ، إذ كانت تلاوته كافية لتضمن وجود كميات كافية من الأطعمة فيها ، تلك الأطعمة التى كانت الأوانى مخصصة لها لتقديمها للملك .

ويكاد يكون مؤكداً أن المبانى التى كانت داخل السور قد حوت قبل تهدمها عدداً كبيراً من التماثيل ، ولم يبق سليما من تلك التماثيل إلا تمثال زوسر الجالس الذى عثر عليه فى السرداب ، ولكن عثر على أجزاء من تماثيل أخرى أيضاً . وفى الطرف الشمالى من فناء الحب سد نرى قاعدة تمثال من الحجر الجيرى حفر فى سطحها العلوى ثمانية أقدام آدمية ، لا بد أنها كانت لمجموعة من أربعة تماثيل ربما كانت للملك والملكة واثنتين من الأميرات . وعثر فى نفس البناء على ثلاثة تماثيل كبيرة صنعت من كتلة واحدة ، ولكنهم لم يتموا إلا نحت واحد منها . وعند النظرة الأولى يخيل إلينا أن هذه التماثيل تحاكى بعض أنواع الأعمدة على شكل تماثيل ، ولكن من المستبعد جداً أن تكون صممت كأعمدة مستقلة ، وربما كانت النية متجهة لإقامتها فى كوات بالحائط . وقد عثر على قطع من تماثيل أخرى — منها على الأقل تمثال للملك — وكانت خارج السور الكبير ، وفى دخلة فى الجدار الجنوبى للمدخل ذى الأعمدة . ولم يكن القصد من كل هذه التماثيل الأخرى

التى لم يعثر لها على أثر أنها إحياء لذكرى الأشخاص الذين تمثلهم ، ولكن لتكون بديلا من أجسامهم وتستطيع الروح أن تجدها أثناء الطقوس الدينية المختلفة التى تقام داخل الهرم .

ونظراً لأنه لم يعثر إلا على تمثالين ملكيين فقط من العصور السابقة — وكلاهما يمثل سلفا لزوسر يسمى خع - سخم Khasekhem — فمن المحتمل جداً أنه حدثت فى عهد زوسر نهضة كبرى فى صناعة التماثيل . وإذا فحصنا تمثاله الذى كان فى السرداب ، وهو يمثل الفن فى ذلك العصر ، فإننا نستطيع القول بأن مجموعة التماثيل التى حوتها مجموعة مبانى زوسر كانت على درجة من الإتقان يمكن مقارنتها بأحسن القطع الفنية التى أنتجتها الأسر التالية .

وقبل الحفائر الحديثة لم يكن هناك ما يراه الزائر من آثار زوسر غير الهرم نفسه ، وقد جرد تماماً من كسائه الحجرى الخارجى . وقد عبث بالهرم أيضاً من الداخل ، فكل الرديم الذى كان يملأ البئر وأجزاء من الكتل المبنية فى المنزلق الجانبى بعد الدفن أزيحت بدقة بمعرفة اللصوص ، ولهذا أصبح فى استطاعتنا أن نقف على السقف الجرانيتى لحجرة الدفن . ويمكننا إذا استعنا بضوء مصباح كهربائى قوى أن نرى الجانب السفلى من أول مدماك من الأحجار التى كانت تغطى فتحة البئر عندما بنيت المصطبة الأولى . وتحت هذه الأحجار أقام اللصوص عند إزالة الرديم الذى يملأ البئر رصيفاً سميكا من الخشب

لم يبق منه الآن سوى قليل من القطع. وإن بقاء الأحجار معلقة دون استنادها على الرديم أو على الرصيف من غير أن تتداعى وتنهار داخل البئر أمر يكاد يكون من باب المعجزات .

وفيما عدا الأوانى الحجرية لم يبق من أثاث مقبرة زوسر شيء يذكر، ولكنه قد عثر فى حجرة الدفن على بقايا من جسم آدمى ، ومع أنه لا يوجد ما يثبت أن هذه البقايا من زوسر نفسه فإن طريقة دفن تلك البقايا تتفق وطريقة الدفن التى كانت متبعة فى عصره . وقد تعرض الأحد عشر قبراً الخاصة بالأسرة المالكة للنهب أيضاً ، ولم يبق منها غير التابوتين المرمريين السابق ذكرهما ، وكان أحد التابوتين ـ الذى حوى هيكل الطفل ـ مبطناً بست طبقات من الخشب سمك كل منها أقل من ربع بوصة ، وقد وضعت بحيث تجرى أليافها فى اتجاهات رأسية وأفقية على التوالى وشدت إلى بعضها بمسامير خشبية صغيرة ، وقد عثر على بضعة مسامير من الذهب فى الطبقة الداخلية منها تدل على أن ذلك الخشب كان فى الأصل مغطى بالذهب .

ومن المستحيل أن نحدد على وجه التحقيق الوقت الذى بدأت فيه سرقة الهرم المدرج ، والكتابات التى على جدران المبنى الجنوبى تثبت أن المبانى المحيطة به كانت قائمة فى عهد الدولة الحديثة ، ولكن لا يعنى ذلك أن القبر ذاته لم يسرق ما به من أثاث قيم قبل ذلك الوقت .

وتدلنا نقوش زوسر الثلاثة فى الممر الشرقى على أن الوصول إلى

حجرات البناء السفلى والاروقة كان ممكناً فى العصر الصاوى ، فقد قسموا كل نقش إلى مربعات بخطوط من الحبر لأجل عمل رسم لها بنسبة معينة .

ونظراً لاننا نعرف عن الصاويين أنهم كانوا يحبون أن تكون بعض أعمالهم الفنية صورة من مثيلاتها فى الدولة القديمة ، فليس ببعيد أن يكونوا هم الفنانين الذين رسموا هذه الخطوط على نقوش زوسر . ولكن غيرهم ممن وصلوا إلى القبر كانوا مدفوعين بعوامل دنيئة . وقد استمرت السرقات والنهب دون رادع حتى القرن الحاضر .

وقد قامت مصلحة الآثار تحت إشراف ج . ب . لاوير بترميم جزء كبير من الآثار التى فى داخل السور ، كما رممت المدخل ذا الأعمدة والركن الجنوبى الشرقى من السور الكبير ، وجمعت أحجار عدد من الأجزاء المتفرقة من المبانى الأخرى .

الفصل الثالث

من الهرم المدرج إلى الهرم الكامل

قبل أن يبنى أول هرم هندسى كامل قد صممت على الأقل أربع مقابر هرمية الشكل زيادة على هرم زوسر .

ونجد إثنتين من هذه المقابر فى زاوية العريان على مسافة أميال قليلة من الجيزة . وتعرف أقدمها عادة باسم الهرم ذى الطبقات ، ويبدو أنه كان مبنياً ليكون هرما مدرجا ، ولكن لم يبق منه إلا القليل مما جعل تحديد شكله الأصلى أمراً لا يمكن إثباته . أما الهرم الثانى الذى ربما صمم ليكون هرما مدرجا، فقد توقف العمل فيه قبل أن يتموا المداميك السفلى من مبناه العلوى ، ولكنهم كانوا قد قطعوا الجزء الأسفل منه فى الصخر وبدأوا فى تشييد حجرة الدفن ، وهى عبارة عن بئر مستطيلة طولها ٨٢ قدما وعرضها ٤٦ قدما ، قدت فى الصخر إلى عمق ٨٥ قدما تقريباً .

ويتصل بهذا البئر من جانبه الشمالى ممر مكشوف يتدرج صاعداً إلى سطح الأرض ، وقد فى جزء من طول أرضية هذا الممر الصخرية سلمان يفصلهما منزلق عريض ، وعلى الجانبين منزلقان متشابهان ، وقد

أنزلوا بالحبال إلى أسفل هـذه المنزلقات أحجار الأساس الكبيرة الموضوعة فى قاع البئر ، وكذلك أحجار الجرانيت المجلوبة من أسوان والتى بنى بها جزء من حجرة الدفن ، وبمثل هذه الطريقة أنزلوا أيضاً إلى قاع البئر تابوتاً جرانيتياً بيضاوى الشكل .

وعلى بعض أحجار هذا الهرم - ويسمى « الهرم الذى لم يكمل » - اسم الفرعون نب . كا Neb - Ka كتبها عليها رجال المحاجر . وحيث أن طريقة بناء المبنى السفلى تشابه أعمال الأسرة الثالثة ، فقد ظن أن هذا القبر أقيم للملك نب . كا (أو نب . كا . رع Neb-Ka-Ra) الذى ينتمى إلى تلك الأسرة ، ولـكن لم يعرف عنه شىء سوى اسمه .

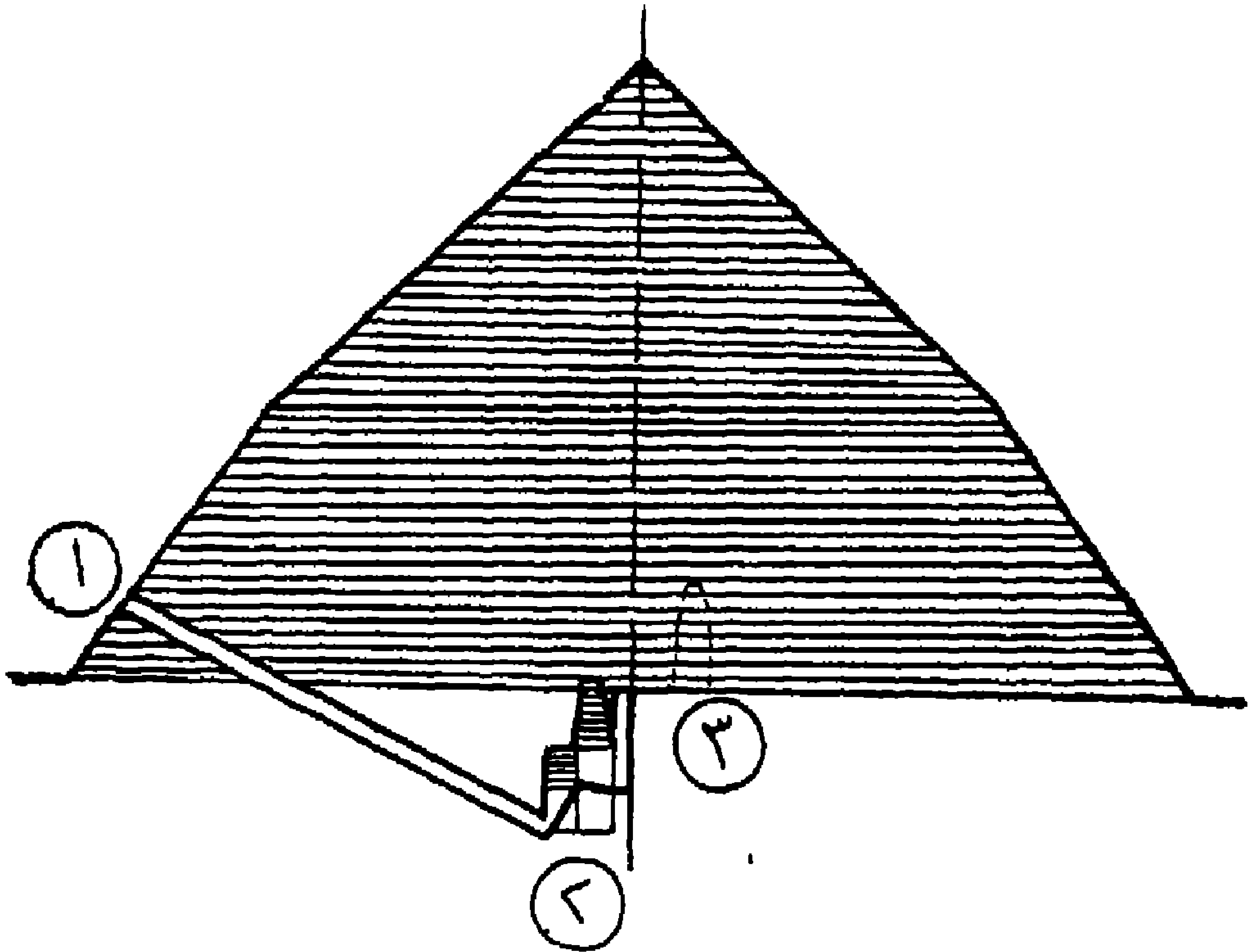
ولسنا نعرف أيضاً بانى الهرم ذى الطبقات ، وقد عثر على بعض الأوانى فى مصطبة قريبة منه وعليها اسم الملك خع - باو (Kha-Bau) وهذا هو السبب فى محاولة نسبة هذا الهرم إليه ، وحاول العالم الأثرى الأمريكى ج . ا . ريزنر (G. A.Reisner) - الذى قام بعمـل أبحاث وحفائر واسعة النطاق فى منطقة هذين الهرمين بعد بضع سنوات من اكتشافها أولا بمعرفة ألكسندر بارسانتى (Alexandre Barsanti) - أن ينسب الهرم ذا الطبقات إلى الأسرة الثانية ، فإذا صحت نظريته هذه فإنه يترتب عليها أن زوسر لم يـكن أول ملك بنى قبره كله من الحجر ، ولـكن الدليل الذى يقوم على الطراز فقط لا يمـكن أن نعتبره دليلا قاطعاً .

وبنى الهرم التالى فى دهشور ، ومع أنه صمم على أنه هرم كامل إلا أنه لم يتم على هـذا الشكل ، وغيروا فجأة زاوية الميل عند نقطة تعلو قليلا عن منتصفه «الشكلان ١٠ و ١١ »ولذلك سمى بأسماء مختلفة ، منها الهـرم المنحنى (Bent) والهرم الكذاب (False) والهرم المنبعج (Rhomboidal) والهرم الكليل (Blunted)، وزاوية الميل فى جزئه الأسفل ١٤َ ٥٤° ، ولكن بعد الوصول إلى نقطة معينة تتغير الزاوية فتصبح ٥٩َ ٤٢° ، وتستمر كذلك إلى القمة ، فإذا لم يكن تغيير الزاوية شيئاً مقصوداً منذ البداية ،فإن التفسير الوحيد لهذا التغيير هو الذى فكر فيه لأول مرة السير جاردنر ولكنسن (Sir I. Gardner Wilkonson) منذ أكثر من قرن ، وهو أنهم أرادوا أن ينتهوا من تشييد الهرم على وجه السرعة. ولهذا أنقصوا ارتفاعه ، وأيد ج برنج (G. Perring) هذه النظرية عند ما فحص البناء العـــلوى فى سنة ١٨٣٧ ولاحظ أن أحجار الجزء الأعلى منه بنيت بعناية تقل عما تحتها .

وقد بنى الهرم المنحنى على مساحة مربعة من الأرض ، طول ضلعها من أسفل ٦٢٠ قدما تقريباً وارتفاعه العمودى عند إتمامه كان حوالى ٣٢٠ قدما ، وتواجه أضلاعه الجهات الأربع الأصلية تقريباً . ولكن سير فلندرز بترى (Sir Flinders Petrie) حين قام بعمل مقاساته فى سنة ١٨٨٧ وجد أن الخطأ فى مطابقته للشمال والجنوب الحقيقيين أكبر من الخطأ فى الهرم الأكبر أو هرم خفرع بالجيزة . وكسوته الخارجية تعد من خير ما وصل إلينا بين الأهرام القائمة حتى الآن ،

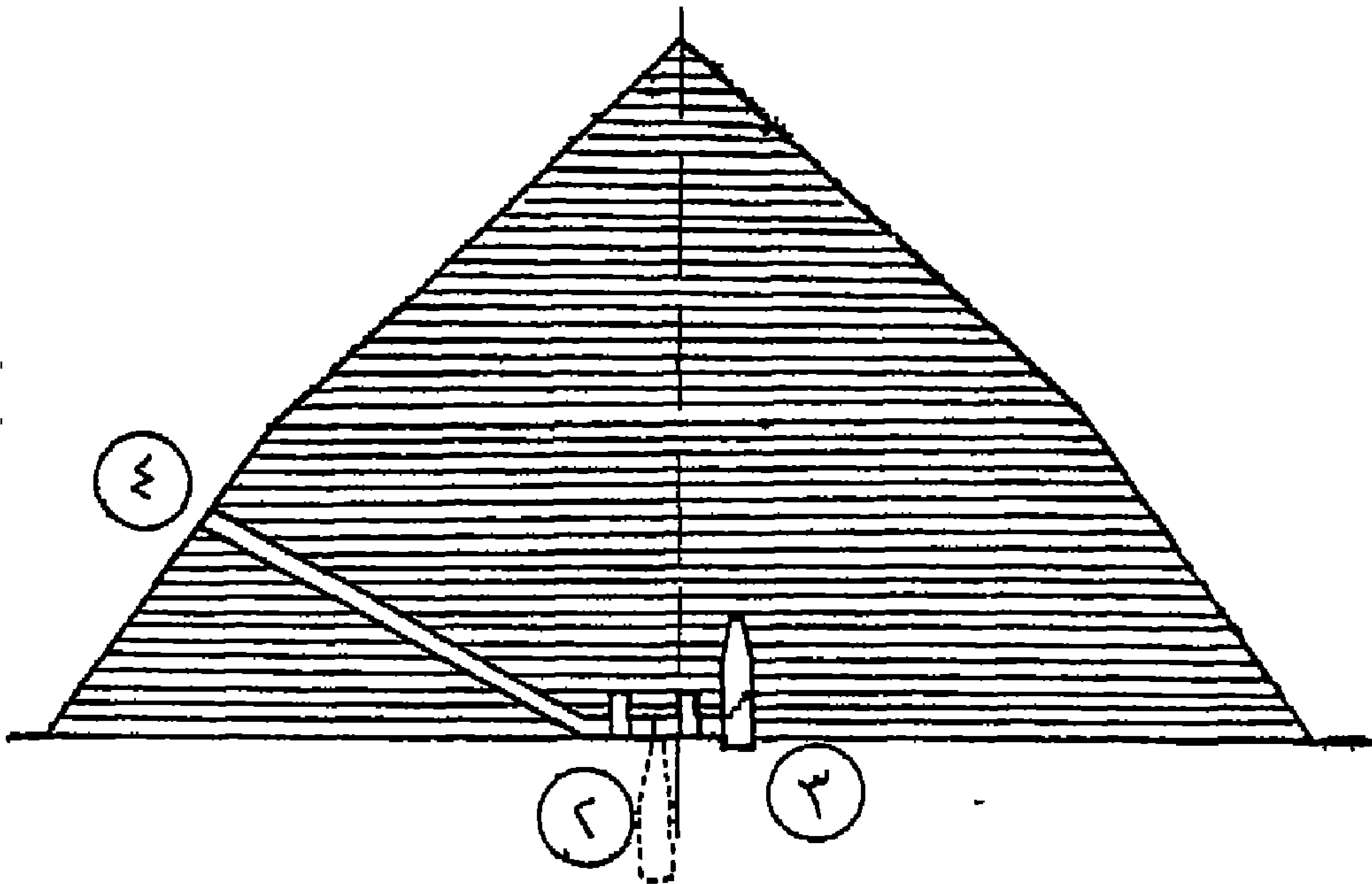
إذ لم يبق هرم من الأهرام الأخرى محتفظاً بكثير من كسوته الخارجية المجلوبة من حجر طره الجيرى . وربما كان السبب فى وجود هذا الكساء راجعاً إلى دقة العمل فى تشييد هذا الكساء ، فلم توضع أحجاره أفقية ولكنها كانت - مثل كساء الهرم المدرج - تميل إلى الداخل ، وبذلك تزيد من متانة البناء .

وهذه الطريقة — طريقة وضع كتل حجرية مستطيلة - كان لها فضل فى تقليل المجهود الذى كانوا يبذلونه فى تهذيب سطوح الأحجار



شكل ١٠ — الهرم المنحنى . قطاع فى اتجاه الناحية الشرقية

لتكون زاويتها مثل زاوية ميل الهرم . والهرم المنحنى فريد فى ترتيبه الداخلى بين الأهرام ، إذ له مدخلان مختلفان (الشكلان ١٠ و ١١ ـ ١ و ٤) .



شكل ١١ — الهرم المنحنى . قطاع فى اتجاه الناحية الشمالية

ويفضى المدخل الذى فى وسط الواجهة الشمالية تقريباً إلى ممر ضيق ذى سقف منخفض ، ينحدر انحداراً كبيراً أولا فى بناء الهرم نفسه ثم فى الأرض الصخرية (شكل ١٠ — ١) ، وعلى مسافة تبلغ ٢٥٧ قدما من المدخل يصبح هذا الممر أفقياً لمسافة قدمين وثمان بوصات ، ثم يرتفع سقف متداخل إلى علو ٤١ قدما تقريبا ، ويكون بذلك دهليزاً ضيقاً

عالياً . ونجد بعد ذلك مباشرة الحجرة السفلى من حجرتين ، ومقاسها ٢٠ قدما و ٦ بوصات من الشرق إلى الغرب ، و ١٦ قدما وبوصتان من الشمال إلى الجنوب ، وارتفاعها نحو ٨٠ قدما (شكل ١٠ — ٢). وأهم ما فى هذه الحجرة سقفها المتداخل الذى صنع بإبراز الخمسة عشر مدماكا العلوية بضع بوصات فى كل من جدرانها الأربعة المبنية بالحجر الجيرى ، فإذا وصلت إلى أعلاها أصبح عرض السقف قدماً واحداً . وفى الجدار الجنوبى لهذه الحجرة وفى مواجهة المدخل يوجد ممر طوله ١٠ أقدام يفضى إلى قاعدة بئر أصم ارتفاعه العمودى ٤٢ قدما وست بوصات . ويعلو الممر الأول ممر آخر يبدأ فى سقف الحجرة وينتهى فى نقطة مرتفعة من البئر . وبنيت أرضية الحجرة إلى ارتفاع بضعة أقدام بكتل صغيرة من الحجر نزع بعضها فيما بعد وكوم فى الدهليز

وهناك ممر ثان يبدأ عند نقطة قريبة من وسط الواجهة الغربية للهرم يفضى إلى الحجرة العلوية (شكل ١١ — ٤) وهذه هى الحالة الوحيدة المعروفة فى الدولة القديمة لمثل هذا الممر الذى يسير فى ناحية أخرى غير ناحية الشمال ، وبعد أن ينحدر فى بناء الهرم إلى مسافة ٢٢٢ قدما يصل إلى مستوى الأرض ويستمر أفقيا مسافة ٦٦ قدما حتى يبلغ الحجرة (شكل ١٠ و ١١ — ٣) . ولم تبن هذه الحجرة فوق الحجرة الأخرى المتصلة بالممر الشمالى ، ولكنها تقع إلى الجنوب الشرقى منها ولها سقف متداخل ، وبنيت أرضيتها مثل أرضية الحجرة السفلى إلى علو بضعة أقدام بمداميك من كتل الأحجار الصغيرة .

ولا يمكن الدخول إلى الحجرة العلوية عن طريق الممر الغربى الذى ظل منذ استخدامه عند الدفن مقفلا بكتل من الأحجار ، بينما سد مدخله بكساء الهرم الخارجى [١]. والطريق الوحيد للوصول إليها خلال ممر منحوت بغير انتظام يبدأ من ثقب فى الجانب الجنوبى من سقف الحجرة السفلية ، وينتهى عند نقطة فى الجزء الأفقى من الممر العلوى ، وعلى ذلك فمن الصعب الوصول إليها إلا بالاستعانة بسلم طويل لا يمكن إقامته الآن [٢] . ويصف برنج (Perring) الذى تمكن من الصعود بصعوبة ، السقاطتين الحجريتين اللتين رآهما فى الممر العلوى ، وضعت كل منهما على جانبى الممر الواصل من الحجرة السفلية [٣] . ولم تصنع هاتان السدادتان بالطريقة المعتادة لكى تنزلا عموديا ، ولكن صممتا لكى تنزلقا أفقيا من فجوات فى الحوائط الجانبية . ولكن السقاطة الخارجية من بين الاثنتين هى التى أسقطوها ، أما السقاطة القريبة من الحجرة فما زالت باقية فى فجوتها . ومنذ أن أغلقت السقاطة جُبس عليها من كلا جانبيها الداخلى والخارجى . وانتهى برنج (Perring) إلى نتيجة منطقية جدا ، وهى أن السدادة لا بد وأنها أغلقت وقت أن كان الممر الموصل إلى الحجرة السفلية مفتوحا ،

---

(١) قام الدكتور أحمد فخرى بفتح هذا الممر فى سنة ١٩٥٢ . (المعرب)

(٢) أمكن عمل هذا السلم فى أيام المرحوم عبد السلام حسين من رجال مصلحة الآثار سنة ١٩٤٩ . (المعرب)

(3) Vyse and Perring, The Pyramids of Gizeh, Vol. III p. 67

وإلا سجن العمال الذين وضعوا الجبس داخل الهرم وكانت ملاحظات برنج صحيحة ، ويظهر أن بناء الممر الموصل بين الحجرتين يرجع تاريخه على الأقل إلى وقت الدفن ، ولم يكن من صنع اللصوص المحدثين كما يظن لأول وهلة لعدم انتظامه ورداءة صنعه . ولم يكن هو المثل الأول لمثل هذه الممرات التى نقبت فى سرعة فى بناء الهرم ، فنى الهرم الأكبر نجد له شبيها سنقوم بوصفه فى الفصل القادم . وباستثناء بعض حبال ومقاطف قديمة من تاريخ غير معروف قال برنج إنه وجدها فى أحد الممرات ، فإنه لم يعثر على أشياء أو أثاث جنازى داخل الهرم المنحنى ، وليس من السهل أن نحـــدد فى أى الحجرتين وضع التابوت . وقد حاول البعض أن ينسب هذا الهرم إلى حونى (Huni) آخر ملوك الأسرة الثالثة الذى حكم أربعا وعشرين سنة كما جاء فى بعض المصادر المتأخرة ، فإذا صحت هذه النسبة فتصبح الأسقف المتداخلة فى حجراته أقدم الأمثلة الحجرية لهذا النوع من التسقيف ، علما بأن هذه الطريقة فى البناء كانت مستخدمة فى البناء بالطوب فى مصاطب الأسرة الثانية .

ولم يبق فوق الأرض إلا آثار نادرة من المبانى كانت يوما تكمل المجموعة الهرمية للهرم المنحنى ، ولن نعرف إلا القليل من التفاصيل الهندسية حتى يتم كشف هـذه المجموعة (١) ، إلا أن بعضا من معالمها الأساسية

---

(١) قام الدكتور أحمد فخرى بالكشف عن هـذه المجموعة فى السنين من ١٩٥١ — ١٩٥٥ . (المعرب)

عرفناه منذ عهد قريب من أبحاث جوستاف چيكييه Gustave Jequier عالم الآثار السويسرى الذى قام بفحص المنطقة على حساب مصلحة الآثار .

وعلى مسافة نحو ٦٠ ياردة من الجهة الجنوبية من هذا الهرم يوجد هرم ثان أصغر منه حجما تغطى الرمال الآن جزءا كبيرا من مبناه العلوى المهدم ، ولهذا فليس من السهل أن نقطع إذا كان هرما حقيقيا. ويحتوى هذا الهرم فى داخله على ممر منحدر ، ثم طرقة أفقية تنتهى بسقاطة ، وطرقة أخرى صاعدة تفضى من جهة الغرب إلى حجرة صغيرة ذات سقف متداخل . وهناك عدد من هذه الأهرام الإضافية نراه داخل السور الكبير الذى يحيط بالهرم . وكان الرأى السائد أنها بنيت للملكات ، وربما استعمل بعضها حقيقة لأجل هذا الغرض ، ولكن البعض الآخر لم يستعمل كمقابر أبدا .

ويتكون السور الكبير المستطيل الذى يدور حول الهرم من جدارين يبعدان عن بعضهما بضعة أقدام[1]. ومن المحتمل أنه كان بين الجدار الداخلى للسور والواجهة الشرقية للهرم معبد جنازى صغير، ولكن لا يظهر منه أى أثر[2] . وعند الركن الشرقى للجدار الخارجى الشمالى

---

(١) حقق الدكتور أحمد فخرى هذه النقطة ووجد أن السور عبارة عن جدار واحد . (المعرب)

(٢) كشف الدكتور أحمد فخرى عن هذا المعبد فى عام ١٩٥١ . (المعرب)

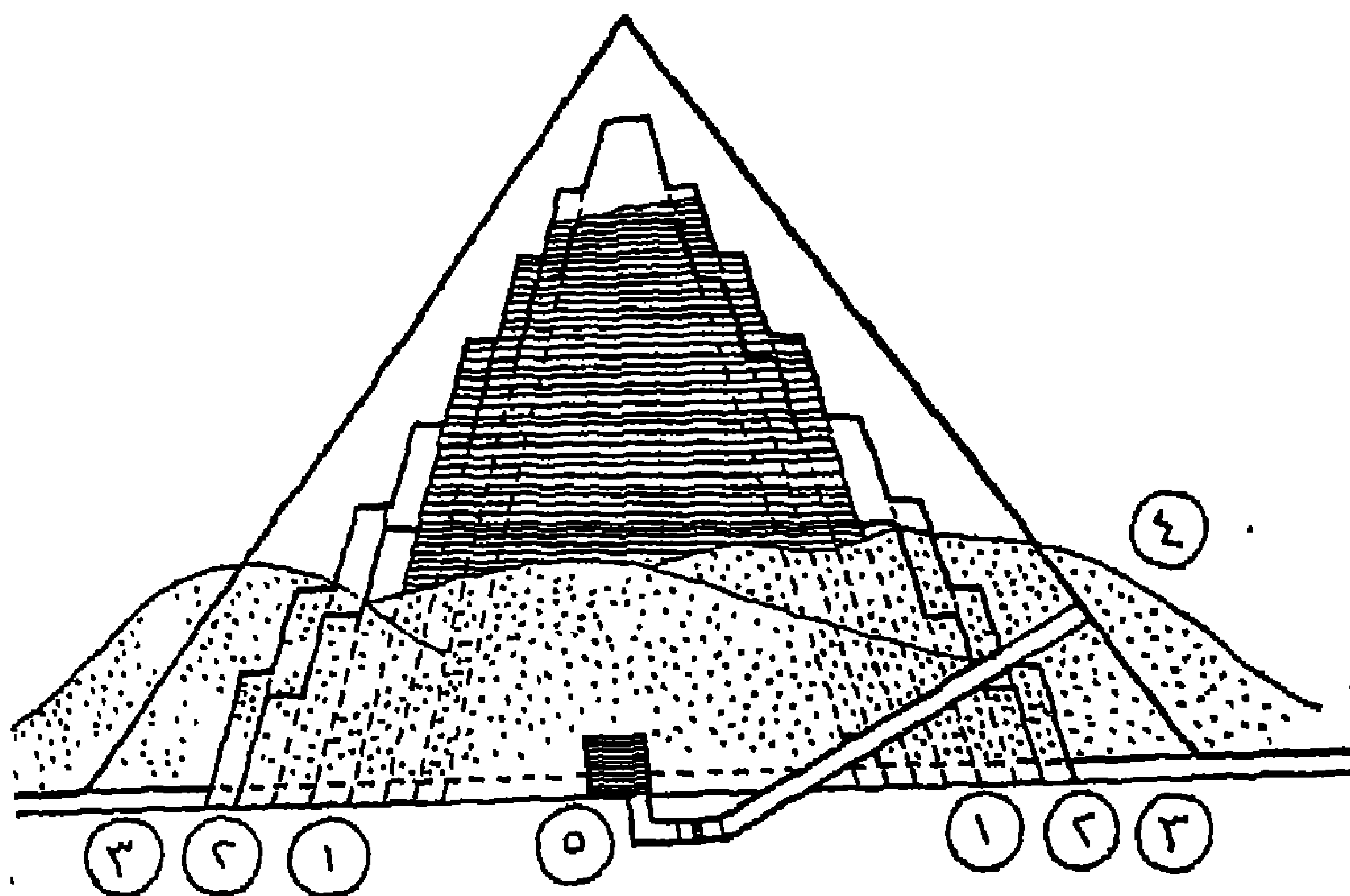
يبدأ الطريق الجنازى الذى ينحنى انحناءة واسعة عند اتصاله بالسور من جهة الشرق نحو الوادى . ويبدأ أعلى الطريق الجنازى بممر حدد جانباه بجدارين من الحجر ، وهو يصل السور بمبنى أقيم على حافة الوادى لم يكتشف شيء منه حتى الآن (١) .

وإذا صح تأريخ الهرم المنحنى فإنه يصبح أقدم مثل لما أصبح بعد ذلك ، المثل الذى احتذاه الجميع فى بنائهم للمجموعات الهرمية . ففى تلك المجموعات كان الهرم المقام على أرض مرتفعة داخل سور ، والمعبد الجنازى ، والطريق الجنازى المنحدر ، والمبنى المقام على الحدود الغربية للاراضى المزرعة — والذى يطلق عليه عادة التسمية الخاطئة إلى حد ما : « معبد الوادى » أو « البوابة » — كانت كلها تكون العناصر الأساسية للمجموعة الهرمية . وكانوا يحفرون قناة من النهر إلى معبد الوادى ، لكى تمكن المراكب القادمة لأغراض جنازية من الوصول إلى المجموعة الهرمية بدلا من عمل رحلة طويلة فى البر .

وآخر الأهرام السابقة للهرم الكامل بنى فى ميدوم Meidum وهى إلى الجنوب من دهشور بمسافة ثمانية وعشرين ميلا تقريبا . وقد أصاب الكثير من الضرر بناءه العلوى الذى ما زالت الرمال تغطى نحو ثلث ارتفاعه لدرجة تجعله أشبه ببرج مستطيل مرتفع أكثر مما يشبه الهرم

(١) اكتشف هذا المعبد الدكتور أحمد فخرى سنة ١٩٥٢ . (المعرب)

(لوحة ١٦) ، ولم يكن هذا الشكل عرضيا بالمرة ولكنه يرجع جزئيا إلى طريقة بنائه إذ أصبحنا نعرف معالمه الأساسية بفضل حفائر السير فلندرزبترى Sir Flinders Petrie فى سنة ١٨٩١ وما تلاها من تحقيقات علميـــة قام بها فى أوقات مختلفة ج . ا . وينريت G. A. Wainwright ولدويج بورخارت Ludwig Borchardt وألن رو Alan Rowe أضافت كثيرا من المعلومات الهامة إلى اكتشافات بترى .



شكل ١٢ — هرم ميدوم . قطاع فى اتجاه الناحية الغربية

وقد مر على هرم ميدوم كثير من التغييرات مثل هرم زوسر قبل أن يبلغ شكله النهائى ، فلربما بدأ كمصطبة أو كهرم مدرج صغير يختفى

بناؤه العلوى فى صلب البناء الحالى ، ولهـذا لا يمكننا الآن أن نعرف حقيقته على وجه التأكيد . وقد عثر أثناء الحفار على بعض أحجار رسم عليها عمال المحاجر صورا تمثل أهراما ذات درجتين أو ثلاثا أو أربعا . وربما كانت هذه الرسوم تمثل الزيادات المتعاقبة التى طرأت على التصميم الأصلى .

وأول شكل تحقق إثباته هو أن البناء العلوى هرم ذو سبع درجات (شكل ١٢ — ١) ، وقد توصلوا إلى ذلك بزيادة ارتفاع المبنى الأقدم وعمل البناء الذى يشبه البرج ، وبعد أن تم ذلك أصبح هذا البناء قلب الهرم والدرجة العليا من الهرم نفسه ، وبنوا بعد ذلك ست كسوات سميكة من البناء ، كانت كل منها تقل فى الارتفاع عن التى قبلها ابتداء من الوسط ، وكانت تبنى كل منها فى الجهات الأربع ، وأصبح الجزء العلوى من كل منها الجزء العلوى لـكل من الدرجات الست الأخرى ، وكانت كل من هذه الـكسوات تميل إلى الداخل بزاوية ٧٥° تقريبا ، وبنيت كلها بأحجار محلية ثم غطيت من أعلى إلى أسفل بأحجار جيرية من طره ، ولم تربط تلك الأحجار ببعضها البعض ولـكنها اعتمدت فى التصاقها على زاوية الميـل ، ولم يعنوا بتسوية سطح الأحجار اللهم إلا تلك الأجزاء من الـكسوة التى تغطى الدرجات ، وتركوا الباقى على خشونته .

وعندما تم بناء الهرم ذى السبع درجات أجريت إضافة كبيرة على البناء العلوى ، فرفعت القمة نحو ٤٥ قدما وزادت كل درجة تليها

إلى مستوى أعلى من الدرجة التى فوقها فى التصميم السابق ، وأضيفت درجة جديدة إلى القاعدة (شكل ١٢ — ٢) ولم يستخدموا فى تلك الزيادة إلا أحجارا محلية غطيت بالحجر الجيرى من طره ، ولم يسووا منه غير سطحه الظاهر .

والجزء الظاهر من البناء العلوى الآن عبارة عن أجزاء من الدرجتين الثالثة والرابعة من الهرم ذى السبع درجات ، وجميع الدرجتين الخامسة والسادسة من الهرم ذى الثمانى درجات وجزء بسيط من الدرجة السابعة (شكل ١٢ — المظلل بخطوط) . ولو أن أحجار الكسوة التى بنيت حول النواة قد ربطت مع بعضها لاتخذ البناء العلوى المتخرب بدون شك مظهرا مختلفا عما هو عليه ، ولأصبح من المستحيل عندما تعرض للهدم أن يتمكن من أخذوا أحجاره من تعرية جوانبه طبقة بعد أخرى ، بل لأصبح الهرم على الأرجح كومة من الأحجار لا شكل لها .

ولم يقدر لهذا الهرم أن يبقى كهرم مدرج ، بالرغم من أنهم قصدوا من تصميم كل من الهرم ذى السبع درجات والهرم ذى الثمانى درجات أن يكون تصميما نهائيا .

ولأسباب لا يمكن توضيحها الآن ملئت الدرجات بالأحجار المحلية ، ثم غطى كل البناء بواجهة ناعمة من الحجر الجيرى المجلوب من طره ، وبهذه الطريقة تحول الأثر إلى هرم هندسى كامل (شكل

١٢–٣) ولا تزال أجزاء أصلية من النصف الأسفل من الشكل النهائي سليمة ولكنها مغطاه الآن بكميات هائلة من الرمال .

وكان مدخل الهرم في جميع مراحل زياداته في الواجهة الشمالية (شكل ١٢ – ٤) ، ويبدأ المدخل عند نقطة من آخر كسوة خارجية تقع قليلا فوق الدرجة السفلى من التصميم السابق للتصميم النهائي ، ويبدأ المدخل بممر ينحدر إلى أسفل بزاوية ٢٨° تقريبا أولا في بناء الهرم ثم بعد ذلك في أعماق الصخر . وعلى بعد ١٩٠ قدما تقريبا من المدخل ينقطع الانحدار ويستمر الممر أفقيا مسافة ٢١قدما ، وبالقرب من قاع المنحدر توجد في الأرضية حفرة لايعلم الغرض منها . وربما كان هناك عند نهاية المنحدر باب خشبي ثبت إطاره (حلقه) داخل الخطوط المحفورة في الجدران وسقف وأرضية الممر . وجوفت دخلتان عرض كل منهما ٨,٥ قدما تقريبا وعمقها ٤ أقدام في جانبي الجزء المستوى من الممر ، الأولى في الشرق والثانية في الغرب . والسبب في وجود هاتين الدخلتين أيضا غير واضح ، ولكن من المعقول أن يكون استخدامهما أثناء تشييد الهرم لتخزين بعض الكتل الحجرية التي تبلغ ضخامتها درجة يصعب معها إنزالها في الممر بعد الدفن . ومساحة هاتين الدخلتين كافية للمساعدة في تحريك الأحجار الكبيرة ، وقد أصبحت هذه المساحة فارغة الآن عندما نقلوها لوضعها في أمكنتها في البناء . وربما استعملت فعلا بعض كتل الحجر الجيري التي وجدت في الدخلات لهذا الغرض .

ومثل هذه الطريقة فى سد الممرات الموصلة لحجرة الدفن لم تكن إلا طريقة مبسطة لطريقة السقاطات الجانبية التى وجدت فى الممر الغربى فى الهرم المنحنى .

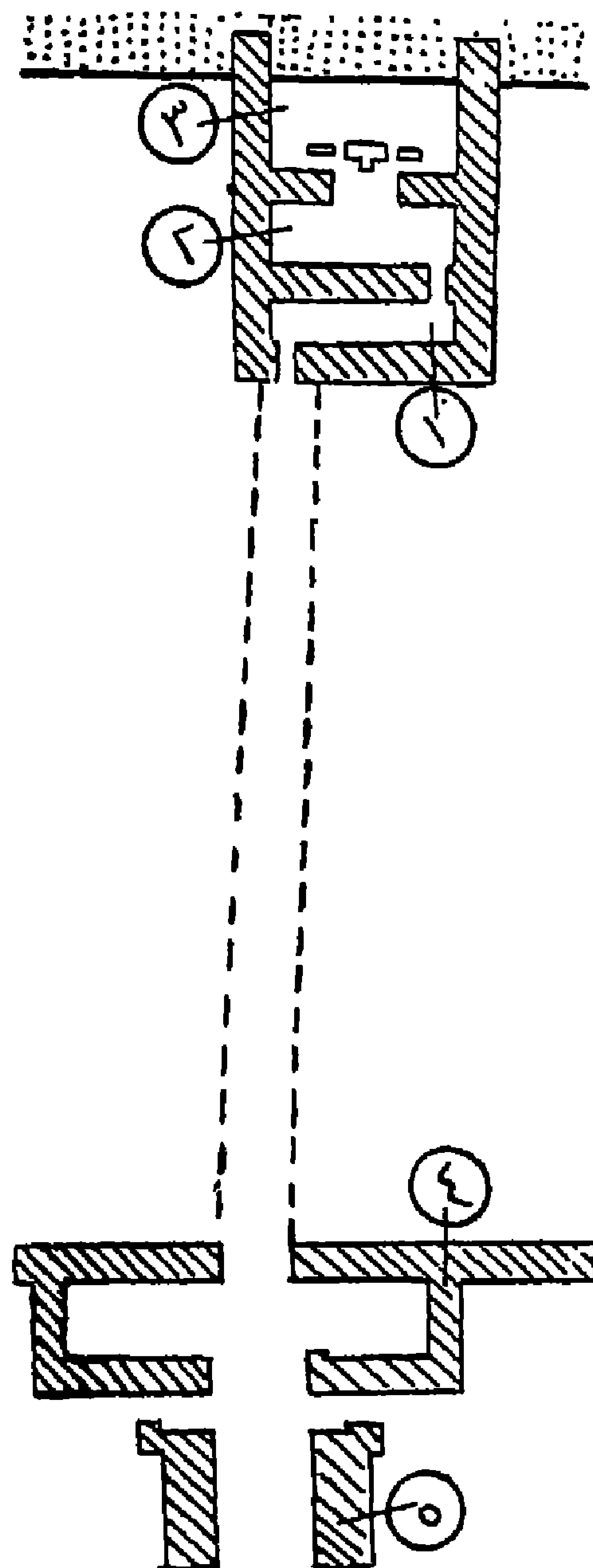
وفى نهاية الممر نجد بئرا عمودية تتجه إلى أعلى مخترقة أرضية حجرة الدفن فى ركنها الشمالى الشرقى (شكل ١٢ — ٥) ، ونجد جزءا من هذه الحجرة فى الطبقة السفلية الصخرية والجزء الآخر فى قلب البناء العلوى للهرم ومقاسها ١٩,٥ قدما من الشمال إلى الجنوب ، و٨,٥ قدم من الشرق إلى الغرب ، وكلها من الحجر الجيرى ، ويتركب سقفها من طبقات مركبة فوق بعضها على شكل سقف متداخل . ورصفت الأرضية أيضا بكتل من الحجر الجيرى نزع بعضها الآن من مكانه ، وفى جدارها الجنوبى ثقب أحدثه اللصوص وقت البحث عن الكنز الذى اعتقدوا أنه مخبأ هناك .

ونجد فى كل من البئر والحجرة كتلا من الخشب التى ربما استعملت فى أغراض البناء أو كانت لازمة لنقل المعدات الجنازية الثقيلة مثل التابوت الحجرى . إلا أن سير جاستون ماسبرو Sir Guston Maspero الذى دخله سنة ١٨٨١ كأول عالم أثرى فى العصر الحاضر لم يجد أثرا لهذا التابوت .

ونرى المبانى الملحقة بهذا الهرم تشبه مثيلاتها فى مبانى المجموعة الهرمية للهرم المنحنى . فقد كان يحيط بالهرم أرضية عريضة من طبقة طينية رقيقة داخل سور من الحجر ، وهناك هرم إضافى بين ذلك

السور والواجهة الجنوبية للهرم ، ولم يبق الآن من ذلك الهرم الإضافى إلا بضعة أحجار فوق الجزء الذى يقع تحت الأرض منه . وكان السور يضم فى الناحية الشمالية منه مصطبة ضخمة — وهذا أمر غير عادى فى مثل هذا المكان — وقد اختفت عن آخرها .

وفى وسط الواجهة الشرقية من الهرم ، معبد جنازى بنى كله من حجر طره الجيرى ، وما زال قائما كاملا حتى الآن ، وهو بناء بسيط جدا ولا تزيد مساحته عن ٣٤ قدما مربعا ، وأقصى ارتفاعه ٩ أقدام ، ويقع مدخله فى الركن الجنوبى من حائطه الأمامى ويفضى إلى ممر يكون زاوية قائمة مع المدخل (شكل ١٣ — ١) . وهناك غرفة واحدة موازية للممر (شكل ١٣ — ٢) ثم فناء مكشوف أمام الهرم مباشرة ، ولم تزين جدران الممر أو الحجرة بأى نوع من النقوش ، ولم يكن لكليهما أية فتحة يدخل منها الضوء سوى الباب . وفى وسط الفناء فى مواجهة البناء المؤدى إلى الحجرة يوجد مذبح منخفض أعد لوضع قرابين الطعام والشراب للملك المتوفى (شكل ١٣ — ٣) ، وترتفع لوحتان طويلتان كل منهما قطعة واحدة من الحجر الجيرى ذات قمة مستديرة فوق قاعدتين مستطيلتين من الحجر نفسه ، وتقوم كل منهما على جانب من جانبى المذبح . ومع أنه لم تنقش أية كتابة على هاتين اللوحتين ، إلا أنه واضح من شكلهما أنهما على شكل لوحتين جنازيتين ربما أعدتا لتكتب عليهما أسماء الملك وألقابه وإحدى الصيغ التقليدية التى تعده بأن يكون له ما يريد فى الحياة الأخرى ، ولا بد أن عدم وجود مثل هذه



شكل ١٣ — المعبد الجنازى لهرم ميدوم

الكتابة وترك الأحجار المكونة للمدماك السفلى لجدران المعبد دون تسوية يجعلنا نميل إلى الظن بأن هذا المعبد لم ينته العمل فيه . وهذا التفسير أيضا ربما ينطبق على عدم وجود الباب الوهمى الذى كان من المعتاد إقامته أمام الواجهة الشرقية للهرم ؛ لكى يسمح بخروج الملك من قبره ليتلقى نصيبه من القرابين الموضوعة فوق المذبح .

ولما كان من الطبيعى وضع الأحجار اللازمة لمثل هذا الباب داخل الفناء قبل أن تقام الجدران ، فيمكننا تقديم تفسير آخر أكثر احتمالا وهو أن ذلك الباب الوهمى كان من أحجار الجرانيت ، وهى أعلى قيمة من الحجر الجيرى . ولهذا أخذها من مكانها من اعتدوا على هذا المعبد دون أن يتركوا أثراً لها .

أما المسافة بين المعبد الجنازى والجدار الشرقى للسور (شكل ١٣ — ٤) فتبلغ ٨٠ قدماً ، وقد غطوها كلها بطبقة من الطين . وعند نقطة فى السور تكاد تكون مواجهة لمدخل المعبد ، نرى فتحة تؤدى إلى الطريق الجنازى الذى يصل منطقة الهرم بمبنى يقع عند حافة الوادى كما هو الحال فى مجموعة الهرم المنحنى . والشىء الوحيد الباقى الآن من الطريق الجنازى انخفاض غير عميق ما زال واضحاً ، وقد أثبتت الحفائر أن طوله عند تشييده كان ٢٣٥ ياردة، أما أرضيته فكانت مرصوفة بالطين الذى وضعوه فوق طبقة عرضها ١٠ أقدام قدت فى الأرض الصخرية ، ويحفها من كلا الجانبين جدار من الحجر ارتفاعه

سبعة أقدام ، ينقص سمكه من خمسة أقدام عندالقاعدة إلى أربعة أقدام عند القمة (شكل ١٣ — ٥) . وكانت الفتحـــة الوحيدة فى هذين الجدارين قريبة من نهاية الطريق عند نهايته العليا ، حيث نرى بابين يؤديان إلى الطريق الجنازى من الجانبين . وعند ملتقى الطريق الصاعد بالسور الخارجى للهرم ، نرى دخلتين عميقتين ربما كان فى كل منهما تمثال للملك : الجنوبى منهما يمثله ملـكا للوجه القبلى ، والشمالى منهما يمثله ملـكا على الوجه البحرى ؛ ولـكنه من المحتمل أيضاً أن يـكونا لأجل القيـام ببعض الطقوس أثناء الاحتفال الجنازى . وعند نهاية الطريق الجنازى وعلى مقربة من المـكان الذى يتصل فيه بمبنى الوادى، كان يوجد باب ذو ضلفتين كان عقباه يدوران فى حفرتين فى الأرض الصخرية تحت الأرضيـة المرصوفة بالطين . ومن الصعب أن نفسر سبب وجود باب فى مثل هذا المـكان ، ولـكن يمـكن التكهن بأن المقصود منه منع أولئك الذين لم تـكن وظائفهم تسمح لهم بأن يتجاوزوا مبنى الوادى .

وقد أثبتت الحفائر التى قام بها الأثريون حتى الآن فى مبنى الوادى أنها غير مجدية ، نظراً لطبيعة الأرض الرخوة بسبب ارتفاع مستوى مياه النيل عما كانت فى الأيام التى بنيت فيها هـذه المجموعة ، وتوحى بساطة المعبد الجنازى ومقاييسه أن مبنى الوادى كان بسيطاً أيضاً .

ولم يعثر فى ميدوم على كتابات معاصرة تعطى اسم بانى هذا الهرم.

ولكن يوجد عدد من الكتابات فى ممر وحجرة المعبد الجنازى كتبها الزائرون دون عناية على جدران ذلك المعبد فى الأسرة الثامنة عشرة، ونفهم منها أنهم كانوا يعتبرون الهرم فى ذلك الوقت من عمل سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة، وها هى ترجمة إحدى الكتابات: «فى اليوم الثانى عشر من الشهر الرابع من شهور الصيف فى السنة الواحدة والأربعين من حكم تحوتمس الثالث أتى الكاتب عا. خبررع. سنب بن آمون مسو (Amen Mesu) [الكاتب وكاهن الملك المتوفى تحوتمس الأول] ليرى المعبد الجميل للملك سنفرو، فوجده كما لو أن السماء كانت مستقرة فيه والشمس تشرق فيه، فقال: ليت السماء تمطر مراً طازجاً، وليتها تسقط بخوراً على سقف معبد الملك سنفرو». وذكرت إحدى الكتابات الأخرى فى المعبد، ويرجع تاريخها إلى الأسرة السادسة، اسم سنفرو ولكنها لم تقرر صراحة أن المعبد خاص به.

وتكفى الكتابات التى على الجدران وحدها لتكون دليلا كافياً على نسبة هرم ميدوم إلى سنفرو إذا لم يكن له هرم آخر منسوب إليه، ولكننا نعلم أنه يوجد هرم فى دهشور وعلى مقربة منه مصاطب اكتشفها ج. دى مورجان J. De Morgan فى عام ١٨٩٤-٩٥، وهذه المصاطب ليست خاصة بأفراد عائلة سنفرو وموظفيه، بل بينها مصاطب لكهنة كانوا يقومون بعملهم فى معبده الجنازى، ومثل هذه المصاطب توجد عادة قريبة من قبر الملك الذى ينتمون إليه أو يعملون فى خدمته.

ولهذا يتحتم علينا أن نعتبر ذلك الهرم قبراً للملك سنفرو، ولحسن الحظ أن المسأله أسهل مما تبدو ، لأن نقوشاً من عصر الدولة القديمة تثبت أن سنفرو بنى فعلا هرمين سمى أحدهما الهرم الجنوبى ، وبين هذه النقوش مرسوم صدر من الملك ببى الأول من الأسرة السادسة يعفى سكان مدينتى هرمى سنفرو من التزامات معينة . وقد تمكن « بورخارت » من تعيين المكان الذى عثر فيه على ذلك المرسوم بأنه كان قريباً من هرم دهشور ؛ وهذا دليل واضح على أن دهشور كانت إحدى مدينتى هرم سنفرو ، وربما عرفنا معلومات أوفى عند الكشف عن المجموعة الهرمية . وبالرغم من أننا لا نملك إثباتاً على أن هرم ميدوم هو الهرم الجنوبى، إلا أن موقعه الجغرافى بالنسبة لدهشور ووجود الكتابات على جدرانه يرجحان ذلك رجحاناً كبيراً .

ولم يكن سنفرو الملك الوحيد الذى بنى لنفسه أكثر من قبر واحد ، فمن المحتمل أن عحا ـ ثانى ملوك الأسرة الأولى ـ بنى لنفسه مصطبة فى سقارة وأخرى فى أبيدوس، كما أننا متأكدون من أن زوسر بنى كلا من الهرم المدرج ومصطبة فى سقارة ، وربما بنى أيضاً مصطبة أخرى فى بيت خلاف . وبنى سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث هرمين فى دهشور وقبرين فى مكانين آخرين ، إلا أنه من الواضح أن مقبرة واحدة فقط يمكن أن تكون مكاناً للدفن ، بينما يتحتم علينا أن نفرض أن المقبرة الأخرى كانت مقبرة مؤقتة رمزية ، ولكننا

لا نعرف على وجـــه التحقيق الغرض منها . وانقسمت الآراء بالنسبة لمكان دفن سنفرو. فيرجح « پترى » أنه دفن فى هرم ميدوم ، بانياً وجهة نظره على أساس اكتشاف بعض قطع من التابوت الخشبي داخل الهرم تشبه فى أسلوبها التوابيت التى كانت تصنع فى عصره .

ومن جهة أخرى رجح « بورخارت » هرم دهشور ، موضحاً أن مقابر كهنة سنفرو عثر عليها فى دهشور ولم توجد واحدة منها فى ميدوم. وعلاوة على ذلك فليس المعبد الجنازى هو الشيء الوحيـــد فى ميدوم الذى ترك دون إتمام ، بل نرى هناك أيضاً عدداً كبيراً من المصاطب المحيطة به لم يتم بناؤها ولم تستعمل للدفن مطلقاً . ويعتقد بورخارت أن وجود المبانى غير كاملة يرجح حدوث تغيير فى الخطة الأصلية ، بأن يكون هرم ميدوم هو مكان الدفن وأن هرم دهشور حل مكانه . أما « ألن رو » فأراد أن يوفق بين اكتشاف « پترى » لقطع التابوت الخشبي فى ميدوم وبين حجة « بورخارت » الدامغة عن هرم دهشور ، فتقدم برأى يقول بأن هرم دهشور لم يكن قد تم عند موت سنفرو ،ولذلك وضعوا جسده فى هرم ميدوم مؤقتاً ، ثم نقلوه بعد ذلك إلى دهشور عند ما تم بناء الهرم . ولـكن هذا الموضوع ليس من المواضيع التى يمكن الإجابة عنها إجابة نهائية إذا لم يتيسر لدينا من الأدلة غير ما نعرفه حتى الآن .

ويقع هرم سـنفرو فى دهشور على مسافة قليلة إلى شمال الهرم

المنحنى ، وهو أقدم قبر معروف صمم ونفذ ليكون هرماً كاملا[١] . وأبرز معالمه المميزة لمظهره الخارجى زاوية ميله القليلة ، فبدلا من أن تكون زاوية الميل ٥٢° تقريباً حسب المعتاد نرى زاوية الميل ٤٣° و١٦َ تقريباً ، أى أنها تقرب جداً من الجزء الأعلى من الهرم المنحنى . وفى الواجهة الشمالية على ارتفاع بضعة أقدام من سطح الأرض نرى الفتحة التى تؤدى إلى الممر المنحدر حيث توجد ثلاث حجرات[٢] ، واحدة بعد الأخرى ، تقع ثانيتها تحت قمة الهرم مباشرة ، والحجرتان الأولى والثانية فى حجم وشكل واحد تقريباً ، وطول كل منهما ١٣ قدماً من الشمال إلى الجنوب ، و ١٢ قدماً تقريباً من الشرق إلى الغرب . وكلا الحجرتين على الأرض الصخرية ولها سقفان مرتفعان على طريقة السقوف المتداخلة ، وتصل إلى الحجرة الثالثة عن طريق ممر قصير يبدأ فى الجدار الجنوبى من الحجرة الوسطى على ارتفاع ٢٥ قدماً تقريباً من الأرضية ، وهى أرحب الحجرات الثلاث وتبلغ ١٣٫٥ قدماً من الشمال إلى الجنوب ، و ٣١ قدماً من الشرق إلى الغرب ، ويرتفع سقفها المتداخل إلى علو ٥٠ قدماً .

---

(١) ربما كانت الأهرام الصغيرة الإضافية التابعة للهرم المنحنى وهرم ميدوم أهراما كاملة ، ولكن ينقصنا الدليل على أنها شيدت لتكون مقابر للدفن .

(٢) نظرا لكمية الرمل والرديم الهائلة التى تتراكم فى أسفل الممر المنحدر ، لايمكن الوصول الى الحجرتين الأولين إلا بصعوبة . أما الثالثة فربما كانت حجرة الدفن ، ولايمكن دخولها إلا بسلم لا يمكن وضعه إلا بعد تنظيف الممر . وقد وصل « پرنج » الى هذه الحجرة ، ولذا فإن الوصف المذكور هنا مأخوذ من تقريره .

وإذا ضربنا صفحا عن عدد وحجم حجراته ، فإن هرم دهشور لايكاد يحتوى على تقدم فنى عن هرم ميدوم . فتصميمه منذ البداية ليكون هرما كاملا يحمل على الظن بأن بنائيه قد أفادوا من التجارب التى اكتسبوها من هرم ميدوم ، الذى لم يصل إلى شكله الأخير إلا بعد عدة تغييرات . وفى كل من الهرمين نجد كتابات على بعض أحجار الكساء الحجرى مؤرخة فى نفس السنة من حكم ملك غير مذكور . ويترتب على ذلك أنه إذا انتمى هذان الهرمان إلى ملك واحد فلابد أن العمل فى بنائهما كان جاريا فى وقت واحد لفترة من الفترات . ولسنا نعرف الموضع المضبوط الذى كانت فيه أحجار الكساء الملقاة الآن على الأرض قرب هرم ميدوم ، وفى أى جزء منه كانت قبل هدمها ، ولكن ما دام الجزء الأسفل من الكساء ما زال سليما فيمكننا القول بأنها من الجزء العلوى منه . أما فى هرم دهشور فالأحجار المذكورة موجودة فى المداميك السفلية من الكساء . ولهذا يصبح من المعقول أنهم عندما وضعوا تلك الأحجار فى أماكنها كان العمل فى هرم ميدوم قد قطع شوطا بعيدا أكثر من العمل فى دهشور .

وبدون أن نبحث الآن عن الدوافع التى حملت سنفرو على بناء أكثر من هرم واحد ، فمن الميسور أن نتكهن بالحوادث التى أدت إلى ذلك التطور . فمن المحتمل أن حونى (Huni) ترك تصميم الهرم المدرج فى سبيل تصميم آخر يختلف فقط فى نقطة واحدة عن الهرم

الكامل . ولكن سنفرو الذى خلفه فى الحكم عاد إلى تصميم الهرم المدرج عندما شيد مدفنه الأول فى ميدوم . ولكنه قبل أن يتم بناء ذلك المدفن حسب التصميم الموضوع قرر أن يبنى قبرا آخر فى دهشور ، واضعا تصميمه منذ البداية ليكون هرما كاملا . وبدلا من أن يتشبث بخطته الأصلية وأن يصبح له هرمان من نوعين مختلفين ، قرر تحويل هرم ميدوم إلى هرم كامل . ونحن إذا تساءلنا عن ضرورة كل هذه التغييرات فى التصميم ، فإن الإجابة عن هذا التساؤل لا يمكن أن تكون على وجه التأكيد ، إذا اعتمدنا على ما لدينا من معلومات ضئيلة عن الحوادث السياسية والدينية لذلك العهد . وسنحاول فى فصل قادم أن نقدم بعض التفسيرات الفرضية لتوضيح بعض الحقائق المعمارية (١).

---

(١) كتب « إدواردز » ما كتبه فى هذا الفصل قبل أن يتقدم العمل فى حفائر مصلحة الآثار فى منطقة دهشور ، وقد تركنا تفسيراته كما هى دون تغيير لما استوجبه الأمانة فى الترجمة . ونحن نعرف الآن على وجه التحقيق أن هرمى سنفرو هما الهرمان الحجريان فى دهشور ، وأن الهرم المنحنى هو هرم سنفرو القبلى . أما هرم ميدوم فيرجح الدكتور أحمد فخرى — الذى قام بحفر المعابد وفحص أهرام دهشور — أن الملك حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة هو الذى بدأ تشييده ، ولكن حونى مات قبل أن ينتهى العمل فيه فأتمه سنفرو . وما من شك أن كتاب الأسرة الثامنة عشرة الذين زاروا ميدوم قرأوا اسم سنفرو هناك فكان ذلك سببا فى تحدثهم عنه ، خصوصا وأن ذكرى سنفرو كملك عادل رحيم بقيت عالقة فى ذهن المصريين إلى آخر أيامهم . أما الهرم الذى دفن فيه سنفرو فالأرجح أنه الهرم الجنوبى ، وهو على بعد ميل واحد من الهرم الشمالى الذى ساعدت طبيعة الأرض على تشييد مصاطب أفراد عائلة سنفرو وكهنته على مقربة منه .

وأول محاولة قام بها المعماريون المصريون لبناء الهرم الكامل كانت فى الهرم الجنوبى على أيام سنفرو ، ثم بدأوا فى الوقت نفسه — وقبل الانتهاء من الهرم الجنوبى الذى غيرت زاوية ميله أثناء العمل — فى بناء الهرم الشمالى . (المعرب)

الفصل الرابع

أهرام الجيزة

كان خوفو (أو كيوبس كما يسمى باليونانية) ابنا لسنفرو ، خلفه على عرش البلاد ومن المحتمل أنه نشأ متأثراً بعظمة مبانى والده فى ميدوم ودهشور ، فوقع اختياره على منطقة تقع على حافة الصحراء على بعد خمسة أميال غرب الجيزة ، وأقام فى ركنها الشمالى الغربى هرما حجمه أكبر من حجم هرم أبيه . وتبعه ملكان آخران من الأسرة الرابعة وهما خفرع (أو خفرن Chephren) ومنكاورع (أو ميسيرينوس Mycerinus) فبنيا هرميهما فى نفس المنطقة على مسافة قصيرة إلى الجنوب . وتكون هذه الأهرام الثلاثة مع بعضها أشهر مجموعة أثرية فى العالم (لوحة ١) .

وهرم خوفو ، أو الهرم الأكبر ، يمثل أعظم ما وصل إليه بناء الأهرام من حيث الحجم والصناعة . ولو أردنا حساب الحجم لوجدنا أن الأحجار التى استخدمت فى بناء هرمى سنفرو تساوى تقريباً تلك التى فى الهرم الأكبر ، ولكن بناء كل منهما على حدة يجعل كلا منهما

أقل كثيراً من الهرم الأكبر . ولسنا نستطيع أن نحدد تماماً كمية الأحجار التى لزمت لبناء الهرم الأكبر أو نقدرها تقديراً صحيحاً ، لأن قلب بنائه يحتوى على نواة صخرية لا يمكن تحديد حجمها بالضبط . ومع ذلك فقد قدر بعض الباحثين أنه عندما كان كاملا كان يحوى من الأحجار المحلية فى قلب بنائه ومن الأحجار الجيرية من طرة فى كسوته عدداً يبلغ ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة حجرية تقريبا تزن كل منها ٢,٥ طن فى المتوسط تقريباً ويصل وزن بعضها إلى ١٥ طنا[1] .

وحاول كثير ممن كتبوا عن الهرم الأكبر أن يعقدوا مقارنات بين حجمه وحجم بعض المبانى الأخرى المشهورة ، فحسبوا مثلا أن مبانى البرلمان البريطانى وكنيسة القديس بولس فى لندن يمكن وضعها جميعاً داخل مساحة قاعدته وتبقى منها مساحـــة كبيرة خالية . وفى حساب آخر عن مساحة الهرم أنها تسع كاندرائيات فلورنسا (Florence) وميلان (Milan) والقديس بطرس (St Peter) فى روما ، كما تسع دير وستمنستر (Westminster) وكنيسة القديس بولس (St. Paul)[2] . كما حسبوا أيضاً أنهم إذا قطعوا كمية أحجار

(1) Somers Clarke and R. Engelback, Ancient Egyptian Masonry Frontispiece.

(2) E. Baldwin Smith, Egyptian Architecture as a Cultural Expression, p. 96.

الهرم إلى مكعبات بحجم قدم مربع ووضعت هذه المكعبات فى صف واحد فإنها تمتد إلى مسافة طولها ثلثا محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء . ونسب تقدير من هذا النوع إلى نابليون أثناء حملته على مصر عندما نزل بعض قواده بعد تسلقهم قمة الهرم ، فقد رحب بهم نابليون — الذى لم يصعد بنفسه — وقال لهم إنه يقدر أن أحجار أهرام الجيزة الثلاثة تكفى لبناء جدار ارتفاعه عشرة أقدام وعرضه قدم واحد حول فرنسا كلها . وقرر العالم الرياضى مونج (Mouge) — ويقال إنه أحد العلماء الذين صحبوا نابليون فى حملته — أنه أمن على هذا الحساب(١) .

ولم يحظ أثر فى مصر بما حظى به الهرم الأكبر من رسوم ومقاييس وفحص ، وحتى قبل الوقت الذى بدأت فيه النظريات القائلة بأن لزواياه وأبعاده معانى خفية قام إدميه فرنسوا چومار (Edmé François Jomard) — أحد علماء حملة نابليون — والكولونل هوارد ڤيس (Colonel Howard Vyse) وچ . س . پرنج (J. S. Perring) عام ٣٧ — ١٨٣٨ وغيرهم من أوائل علماء المصريات بقياس أبعاد هذا الأثر بدقة تامة كما يتطلبها البحث الحديث فى الحفائر العلمية . وأول دراسة شاملة لهذا الأثر قام بها السير

(1) J. Capart and Marcelle Werbrouck, Memphis á l' ombre de pyramides

فلندرز پترى (Flinders Petrie) الذى قضى جزءاً كبيراً من موسمين (٨٠ — ١٨٨٢) فى هذا العمل . وظلت نتائجه التى نشرها مسلما بها فى هذا الموضوع حتى سنة ١٩٢٥ ، عندما حل محل بعض منها نتائج دراسة أحدث استخدم فيها ج . ه . كول (J. H. Cole) من مصلحة المساحة المصرية[1] آلات مساحية دقيقة من أنواع حديثة أثبتت أن الأبعاد الأصلية للجوانب الأربعة عند القاعدة كالآتى : الشمالى ٧٥٥ر٤٣ قدما ، والجنوبى ٧٥٦ر٠٨ قدما ، والشرقى ٧٥٥ر٨٨ قدما ، والغربى ٧٥٥ر٧٧ قدما . وفى الوقت الذى لا يتفق فيه جانبان فى الطول نجد أن الفرق بين أطولها وأقصرها لا يتعدى ٧ر٩ بوصة . واتجاه كل جانب من جوانب الهرم يكاد يكون مضبوطا على خطوط الشمال والجنوب والشرق والغرب الحقيقية . وفيما يلى الخطأ الذى حقق فيها :

الجانب الشمالى ٢٨″ ٢′ إلى الجنوب من الغرب ، والجانب الجنوبى ٥٧″ ١′ إلى الجنوب من الغرب ، والجانب الشرقى ٣٠″ ٥′ إلى الغرب من الشمال ، والجانب الغربى ٣٠″ ٢′ إلى الغرب من الشمال ، وكذلك نرى الدقة فى الأركان الأربعة ، إذ تكون زوايا قائمة وقاساتها المضبوطة كالآتى :

(1) Survey of Egypt, paper No. 39 " The hetermonation of the exact size and oriention of the Great Pyramid ef Giza" .
تحديد الحجم والاتجاه المضبوطين لهرم الجيزة الأكبر ، وقد أعطيت الأبعاد فى هذا التقرير بالأمتار وأجزاء المتر وحولت هنا إلى أقدام وأجزاء القدم من أجل توحيد القاسات .

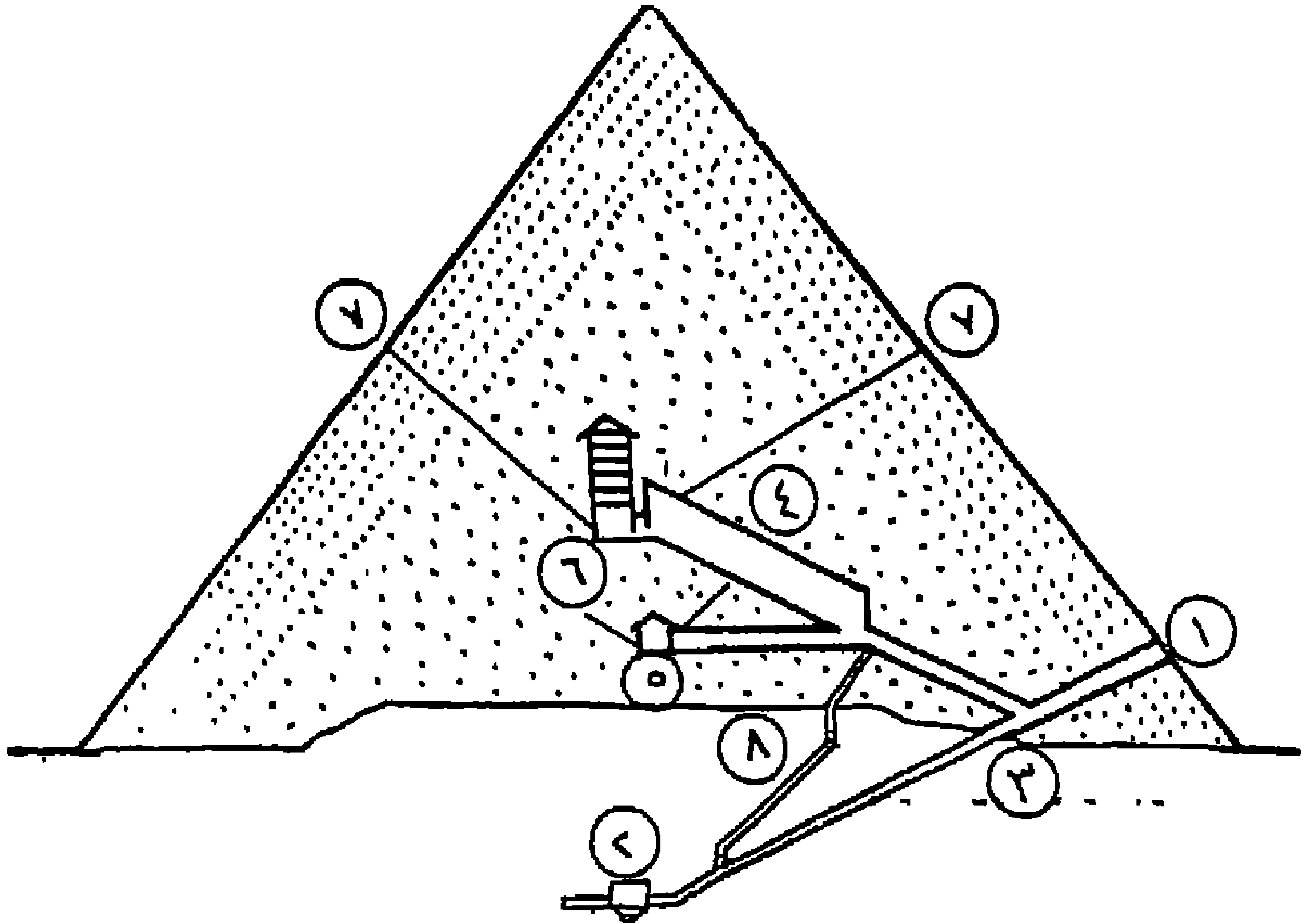
الشمالية الشرقية ٢٢″ ٣′ ٩٠° ، الشمالية الغربية ٥٨″ ٥٩′ ٨٩° ، الجنوبية الشرقية ٢٧″ ٥٦′ ٨٩° ، الجنوبية الغربية ٢٣″ ٩٠° .

وعندما كان الهرم كاملا كان ارتفاعه ٤٨١,٤ قدما ونقص الآن ٣١ قدما من قمته ، وتميل جوانبه الأربعة بزاوية مقدارها ٥٢′ ٥١° تقريباً نحو الأرض ، وتغطى قاعدته مساحة قدرها ١٣,١ فدانا .

وإذا نظرنا إلى الهرم الأكبر من مسافة بعيدة خيل إلينا أنه فى حالة من الحفظ تكاد تكون كاملة ، ولكن إذا فحصناه من مسافة قريبة نرى أنه قد عانى كثيراً من أيدى العابثين . فمن المحتمل أنه كان ينتهى بهرم من الجرانيت فى قمته ، وباثنى عشر مدماكا من الجرانيت أيضاً . وقد زالت كلها من أعلاه ، ونزعت من جوانبه كل أحجار الكسوة الجيرية المجلوبة من طره باستثناء بعض الأحجار عند القاعدة . ونرى تحت المدخل الأصلى فى الواجهة الشمالية فتحة كبيرة قدت بدون عناية فى قلب البناء . وبناء على بعض الأخبار المتواترة من العصر الإسلامى فإن تاريخ هذه الفتحة يرجع إلى الجزء الأخير من القرن التاسع ، وأنها صنعت بأمر من الخليفة المأمون بن هارون الرشيد الذى ذاعت شهرته بما كتب عنه فى قصص ألف ليلة وليلة ، وذلك تحت تأثير الاعتقاد الخاطئ بأن الهرم يحوى كنزاً مخبوءا . فقد بقى الهرم حتى عهد المأمون سليم البناء بالرغم من نهب محتوياته ، وبعد ذلك العهد أصبح الهرم الأكبر محجراً ميسوراً لا ينضب معينه يمد

من يشاء بالأحجار اللازمة لبناء القناطر فوق الترع ولتشييد المنازل والأسوار والمباني الأخرى القريبة من الجيزة والقاهرة .

وإذا صح فهمنا لترتيب حجرات وممرات الهرم الأكبر ، فإنها يجب أن تفسر على أساس تطور تشييد هذا الهرم . فإذا قارناه بهرم ميدوم ، نجد أن التغييرات التي حدثت في الهرم الأكبر أثناء بنائه كان أكثرها — إن لم يكن كلها — تغييرات في الداخل ، فشكله من الخارج وابعاده هي حسب التصميم الأصلي منذ الابتداء . ويقع المدخل في الواجهة الشمالية على ارتفاع نحو ٥٥ قدما فوق مستوى الأرض (شكل ١٤ — ١) ، ولا يقع بالضبط وسط الواجهة بل عند نقطة تبعد بمقدار ٢٤ قدما تقريباً من الوسط . وينحدر من المدخل ممر عرضه ٣ أقدام و ٥ بوصات وارتفاعه ٣ أقدام و ١١ بوصة تدريجياً بزاوية قدرها ٢٣″ ٣١′ ٢٦° يسير أولا في قلب بناء الهرم ثم يستمر بعد ذلك في الصخر . وعلى مسافة ٣٤٥ قدما تقريباً من المدخل الأصلي يصبح الممر مستويا ويستمر أفقيا لمسافة ٢٩ قدما قبل أن ينتهي إلى حجرة (شكل ١٤ — ٢) . وعلى الجانب الغربي من الجزء المستوى في الممر بالقرب من مدخل الحجرة يوجد بروز لم يتم قطعه أبداً . ولم يكمل بناء الحجرة أيضاً ، فأرضيتها غير المستوية وجدرانها التي لم يتم نحتها تجعله أشبه بمحجر . وربما كانت الحفرة المربعة الغائرة في أرضيتها هي الخطوة الأولى في مشروع لم يتموه ، وهو تعميق هذه الحجرة . وبناء على رأى



شكل ١٤ — الهرم الأكبر . قطاع فى اتجاه الناحية الغربية

فيس (Vyse) وبرنج (Perring) اللذين قاما بقياس هذه الحجرة فى سنة ١٨٣٨ فإن أبعادها كالآتى : الارتفاع ١١ قدما و ٦ بوصات ، ومن الشرق إلى الغرب ٤٦ قدما ، ومن الشمال إلى الجنوب ٢٧ قدما وبوصة واحدة . ولم يقم أحد بمراجعة هذه الأرقام منذ هذا التاريخ ، لأنهم فى أثناء الحفائر المتعاقبة ملأوا الجزء الأكبر من هذه الحجرة حتى السقف تقريباً بكتل من الأحجار ، ما زالت فى مكانها ولم يقم أحد حتى الآن بتنظيفها .

وفى الجدار الجنوبى لهذه الحجرة وفى مواجهة المدخل فتحة تؤدى

إلى ممر مقفل نقر دون عناية ولم يتموه ، وإن وجود هذا الممر يجعلنا نظن أن التصميم الأصلى ربما كان يقضى بنحت حجرة أخرى بعد الأولى وتتصل بها بممر . ويشبه ذلك ما اتبعوه فى هرم سنفرو بدهشور، غير أن الفرق الأساسى هو أن الحجرة الثانية فى الهرم الأخير تقع مباشرة تحت القمة ، وأن الأولى تقع إلى شمالها ، بينما فى الهرم الأكبر فإن كلا الحجرتين تقعان فى نقطة جنوب الخـــط الساقط عموديا من القمة .

ولا يخلو من الفائدة أن نقارن الحجرة الصخرية التى لم تتم بعد بالوصف القصير الواضح للجزء السفلى من الهرم الأكبر الذى كتبه هيرودوت (Herodotus) عندما زار مصر فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد . فقد قيل لهيرودوت إن تحت الهرم أقبية بنيت على شىء يشبه الجزيرة تحيطها مياه تأتى من النيل بواسطة قناة ، وأن القدماء وضعوا جسم خوفو فوق هذه الجزيرة ، ولكنه لم يوجد حتى الآن أى أثر للقناة أو للجزيرة ، والأرجح أنهما لم يوجدا أبدا .

ومع أن هذا الحريم قد فتح بكل تأكيد وبعثرت محتوياته قبل أيام هيرودوت بوقت طويل ، فمن المحتمل أنه سد ثانية أثناء العصر الصاوى حينما رمم عدد كبير من الآثار القديمة . والقصة التى يحكيها هيرودوت والتى لم يقل بأنه تثبت من صحتها بمشاهداته الخاصة ، ربما كان مرجعها إلى ما نسجه خيال أدلاء الهرم جيلا بعد جيل وتناقلوه على مر القرون .

وعندما جاء الوقت الذى تقرر فيه تغيير تصميم المشروع الأصلى واستبدال حجرة الدفن السفلية المنحوتة فى الصخر بأخرى ضمن بناء الهرم ، كانت المبانى العلوية للهرم قد وصلت إلى ارتفاع بضعة أقدام ، ولهذا عملوا ثقبا فى بناء سقف الممر المنحدر السابق عند نقطة تبعد حوالى ٦٠ قدما من المدخل ، ثم نحتوا ممرا جديدا صاعدا إلى أعلى فى قلب البناء (شكل ١٤ — ٣) وملئت فوهة هذا الممر بعد الدفن بكتلة واحدة من الحجر الجيرى . فأصبحت لا تفترق فى شىء عن باقى السقف فى الطرف العلوى للممر المنحدر . ولكنهم لم يحكموا تثبيت هذا الحجر لأنه وقع عندما قام رجال المأمون بنحت النفق الذى نحتوه بالقرب منه . وبناء على آراء بعض الكتاب المسلمين فإن الصوت الذى أحدثه سقوط هذه الكتلة على أرضية الممر المنحدر مكن العمال من معرفة مكان ممرات الهرم ، إذ أدركوا أنهم كانوا يعملون بعيدين بمسافة كبيرة غربى الممر الحقيقى .

ويتفق الممر الصاعد الذى يبلغ طوله ١٢٩ قدما تقريبا مع عرض وارتفاع الممر النازل ، ويطابق ميل زاويته وقدرها ٢٦° ٢َ ٣٠ً انحدار الممر النازل ولا يختلف عنه بأكثر من جزء من درجة .

وعند نهايته السفلى فوق الفتحة التى حدثت من انزلاق كتلة الحجر الجيرى مباشرة ، توجد ثلاث سقاطات كبيرة من الحجر الجرانيتى وضعت كل منها خلف الأخرى . وتملأ هذه السقاطات الممر الأصلى

تماماً ، وقد تفاداها رجال المأمون بأن قطعوا فى الحجر الجيرى السهل ممراً فى الجدار الغربى حتى وصلوا إلى نقطة تبعد عن أعلى تلك السقاطات الثلاث . وعندما قام بورخارت Borchardt بدراسة جدران هذا الممر لاحظ أن الأحجار فى الطرف السفلى قد وضعت موازية تقريباً للأرضية ، بينما كل الأحجار فى الطرف العلوى كانت موازية لانحدار الممر . فاستنتج من ذلك أن النقطة التى تغيرت عندها الزاوية هى أقصى ما وصل إليه ارتفاع بناء الهرم عند ما أرادوا أن تكون حجرة الدفن فى البناء العلوى للهرم . ولاحظ بورخارت أيضاً أن لحامات الأحجار عند الطرف السفلى غير منتظمة ، بينما نرى لحامات الأحجار عند الطرف العلوى محكمة تماماً ، مما أيد اعتقاده بأن الجزء السفلى من الممر قطع فى قلب جزء كان قد تم بناؤه ، فى حين أن الجزء العلوى بنى كالمعتاد مع باقى الهرم . وسميت الأحجار التى لم توضع فى الجزء العلوى موازية للانحدار « بالأحجار الرابطة » ، وهذا التعبير يستعمل لوصف حجر واحد أو حجرين موضوعين فوق بعضهما ينحت فيهما ممر . وهذه « الأحجار الرابطة » التى وضعت على مسافات منتظمة وتبعد عن بعضها ١٧ قدماً وبوصتين ربما تفسر لنا السر فى التكوين الهندسى للهرم الأكبر الذى سنقوم بشرحه فى فصل آخر .

وفى أثناء تشييد الممر الصاعد ربما كان قصد البنائين أن تحتل حجرة الدفن مكاناً فى وسط الهرم فى الجزء العلوى منه دون أن ترتفع

كثيراً فوق مستوى الأرض . وقد بنوا تلك الحجرة فعلا فى نهاية ممر يبدأ من أعلى الممر الصاعد (شكل ١٤—٥) وسماها العرب «حجرة الملكة» ، وهى تسمية خاطئة ظلت حتى الآن . وتقع هذه الحجرة فى الوسط تماماً بين جانبى الهرم الشمالى والجنوبى ، وأبعادها ١٨ قدماً و١٠ بوصات من الشرق إلى الغرب ، و١٧ قدماً وبوصتان من الشمال إلى الجنوب، ولها سقف مذبب يعلو إلى ارتفاع ٢٠ قدماً و٥ بوصات، وفى جدارها الشرقى فجوة ذات جوانب متداخلة يبلغ عمقها الأصلى ٣ أقدام و٣ بوصات فقط ، ولكن جدارها الخلفى نزعه الباحثون عن الكنوز ، وارتفاعها ١٥ قدماً و ٤ بوصات ، وعرضها عن القاعدة ٥ أقدام وبوصتان .

وربما كان الغرض منها أن يوضع فيها تمثال ، ولكنه لم يوضع أبداً على الأرجح . وهناك أدلة عديدة على أن العمل فى حجرة الملكة أوقف قبل أن تتم ، فأرضيتها مثلا خشنة للغاية ، فلو أن هذه الحجرة أكملت لبلطت بأحجار ملساء . ومرة ثانية نجد فى الجدارين الشمالى والجنوبى منها فتحات صغيرة مستطيلة يتفرع منها منافذ تمتد أفقياً لمسافة تبلغ نحو ٦ أقدام و ٦ بوصات ، ثم تنحرف إلى أعلى بزاوية مقدارها °٣٠ تقريباً (شكل ١٤ - ٦) . وهذه الفتحات لم تنحت فى الوقت الذى بنيت فيه الحجرة ، وهذا يثبت أن العمل لم ينته فى هذه الحجرة ، وذلك ما ظنه فى سنة ١٨٧٢ مهندس يدعى وايمان ديكسون

(Wayman Dixon) ، وقد جعله يبحث عنها وجود ما يماثلها فى حجرة الملك العليا . ولكن تلك الثقوب التى فى حجرة الملك تختلف عن تلك التى فى حجرة الملكة ، إذ أن الأخيرة لا تنفذ إلى السطح الخارجى للهرم ؛ وهذه الحقيقة تمدنا ببرهان آخر على تغيير التصميم الأصلى . ويفسر لنا هذا الغرض أيضاً اختلاف السطوح فى أرضية الممر الذى يربط الممر الصاعد بالحجرة . ففى بدايته لا يزيد ارتفاع هذا الممر عن ٣ أقدام و ٩ بوصات ، ولكن بالقرب من الحجرة نجد انخفاضاً فى الأرضية يزيد من ارتفاعه إلى ٥ أقدام و ٨ بوصات .

وأدى تغيير تصميم البناء وعدم الانتهاء من تشييد حجرة الملكة إلى بناء عملين من أشهر الأعمال الهندسية التى بقيت لنا من الدولة القديمة ، وهما الدهليز الكبير وحجرة الملك . وقد بنى الدهليز الكبير (شكل ١٤ — ٤) كاستمرار الممر الصاعد ، ويبلغ طوله ١٥٣ قدما وارتفاعه ٢٨ قدما . وترتفع جدرانه المبنية بالحجر الجيرى المصقول رأسياً إلى ارتفاع ٧ أقدام و ٣ بوصات . ثم تبتدئ المداميك الباقية — وعددها سبعة — يميل كل منها إلى الداخل أكثر من المدماك الذى يرتكز عليه بمقدار ٣ بوصات ، فيكون من ذلك سقف متداخل ذو أبعاد أعظم من أى سقف آخر من هذا النوع ، والمسافة بين المداميك العلوية فى الجانبين عند السقف مقدارها ٣ أقدام و ٥ بوصات عرضاً ، وسقفها مكون من أحجار وضع كل منها بزاوية تقل عن انحدار الدهليز . ويقول السير فلندرز پترى معقبا على هذه

الطريقة فى وضع الكتل ، بأنها عملت لكى تكون الحافة السفلية من كل حجر كسقطة التروس بحجزها سن محفور فى أعلى الجدران حتى لا يضغط أى حجر على الحجر الذى يليه فيحدث ضغط كلى على السقف ، بل يستند كل حجر على انفراد على الجدران الجانبية الموضوع فوقها[1]. وفى أسفل كل جدار يوجد إفريز منحدر سطحه مستو وارتفاعه قدمان وعرضه قدم و ٨ بوصات يمتد على طول الدهليز من أوله إلى آخره . ويجرى ممر — أبعاده مثل أبعاد السقف وعرضه ٣ أقدام و ٥ بوصات — بين الإفريزين المنحدرين . ويوجد الآن فى الطرف السفلى لهذا الممر ثغرة سببتها إزالة الأحجار التى كانت تربط فى الأصل أرضية الممر بأرضية الممر الصاعد ، وكانت تغطى فى الوقت نفسه فتحة الممر الأفقى المؤدى إلى حجرة الملكة . وفى هذه الثغرة نجد أن الحجر الذى فى أسفل المنحدر الغربى قد أزيل ، فكشف عن البئر التى تهبط تارة عمودية وتارة أخرى تميل أولا فى قاب بناء الهرم ثم فى الصخر حتى ينفذ فى الجدار الغربى للممر النازل (شكل ١٤ — ٨) . وسنتحدث عن الغرض منه وعن بعض الظواهر فى الدهليز الكبير بعد شرح حجرة الملك .

وتؤدى درجة سلم مرتفعة فى الطرف العلوى من الدهليز الكبير إلى ممر ضيق منخفض يفضى إلى حجرة الملك ، وبعد مساحة تبلغ

---

(1) W. M. Flinders Petrie, The Pyramids and Temples of Giza, p. 72.

ثلث طوله يرتفع هذا الممر ويتسع فيصبح شبيها بردهة بنيت جدرانها الجنوبية والشرقية والغربية من حجر الجرانيت ، ونحتت أربع دخلات عريضة فى كلا الجدارين الشرقى والغربى من هذه الغرفة ، ثلاث منها ممتدة من الأرضية وواحدة منها — الواقعة فى أقصى الشمال — تنتهى عند مستوى سقف الممر . وأعدت الشقوق الطويلة لثلاث سقاطات لم يبق لها من أثر . وفى الدخلتين القصيرتين ما زالت كتلتان من الجرانيت فى أماكنهما فى عرض الردهة ، إحداهما فوق الأخرى . وربما كانت هناك كتلة ثالثة تملأ المسافة الباقية بين الكتلة العلوية والسقف . ولولا وجود مثل هذا الحاجز لتمكن اللصوص من الصعود خلال الثغرة والمرور بدون عائق بين السقاطتين الأوليين .

وبنيت حجرة الملك كلها بالجرانيت ، وتبلغ أبعادها ٣٤ قدما و ٤ بوصات من الشرق إلى الغرب ، و ١٧ قدما وبوصتين من الشمال إلى الجنوب ، وارتفاعها ١٩ قدما وبوصة واحدة . ويوجد فى الجدارين الشمالى والجنوبى — على ارتفاع نحو ٣ أقدام من الأرضية — فتحتان مستطيلتان لمنفذين ، يختلفان عن مثيليهما فى حجرة الملكة بكونهما يخترقان بناء الهرم وينفذان إلى سطحه الخارجى . ويميل الشمالى منهما بزاوية قدرها °٣١ والجنوبى بزاوية قدرها °٤٥ (شكل ١٤ — ٧).

ولا يعرف بالضبط الغرض من وجودهما ، وربما كان الغرض منهما تهوية الحجرة أو لغرض دينى ماز ال العلماء مختلفين فى تحديده . ويقوم بالقرب من الجدار الغربى تابوت مستطيل من الجرانيت بدون غطاء ، كان يحوى يوما ما جثة الملك فى تابوت آخر من الخشب . وسطح التابوت خشن وكثير من علامات نشر الحجر عـــند قطعه ما زال واضحا . واكتشف السير فلندرز بترى أن عرض هـذا التابوت يزيد بوصة عن عرض الممر الصاعد عند فوهته ، واستنتج من ذلك أنه وضع فى مكانه عندما كان العمل جاريا فى الحجرة .

ولا يوجد لسقف حجرة الملك ما يماثله من الناحية المعمارية ، إذ يوجد فوق سقفها المسطح — الذى يتكون من تسع كتل تزن فى مجموعها ٤٠٠ طن — خمس حجرات منفصلة ، سقف الأربع الأولى منهامسطح ، أما سقف الحجرة الخامسة فمدبب . ويظهر أن الغرض من بنائها كان لتفادى خطر انهيار سقف الحجرة تحت ثقل المبانى فوقها . وسواء تطلبت طبيعة البناء اتخاذ مثل هذه الاحتياطات الشـديدة أوكانت أمرا قابلا للأخذ والرد ، فقد أثبتت الأيام ما يبرر بناءها ، فإن كلامن الكتل الجرانيتية التسع التى يتكون منها سقف الحجرة ، وكثيرا من تلك التى فى الحجرات التى فوقها للتخفيف عنها قد تصدع على الأرجح بسبب زلزال ، إلا أنها بقيت كلها فى أمكنتها ولم تسقط واحدة منها .

ويمكن الدخول إلى الحجرة السفلى من الحجرات الإضافية عن طريق ممر يبدأ من فتحة فى أعلى الجدار الشرقى للدهليز الكبير . ونحن لا نعرف الوقت الذى قطع فيه هذا الممر ، ولا نعرف من قام به ، ولكن أول من أشار إليه الرحالة الأوروبى دافيسون (Davison) الذى زار الهرم فى عام ١٧٦٥ . ولم تكتشف الحجرات الأربع العلوية حتى عام ١٨٣٧ — ٣٨ عندما فتح الكولونل هوارد فيس و . ج . س . برنج طريقا إليها بتفريغ ممر يصعد إليها من أسفل . وقد بنيت بعض جدران هذه الحجرات العلوية من الحجر الجيرى ، ولما كان المفروض ألا يراها أحد ، لم يهتموا بتسوية سطح جدرانها ، ولهذا فلا زالت معظم الكتل تحتفظ بالعلامات التى خطت عليها بالمغرة الحمراء فى المحجر . وعلى أحد هذه الأحجار ورد اسم خوفو مكتوباً للمرة الوحيدة فى هذا الهرم .

ونظرا لانحدار الممر الصاعد فى الهرم الأكبر إلى أعلى فإن عملية سده بعد الانتهاء من الدفن كانت عملية شاقة غير عادية . فالممرات فى الأهرام الأخرى إما منحدرة إلى أسفل أو مستوية تقريبا ، لذلك استطاعوا بسهولة كبسها بأحجار السدادات التى كانت توضع خارج الهرم حتى يحين وقت الحاجة إليها . وقد سدوا الممر الهابط فى الهرم الأكبر بهذه الطريقة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك فى الممر الصاعد . ولم

تكن عملية رفع السقاطات الجرانيتية الثقيلة من الفتحة التى فى سقف الممر الهابط هى التى سببت كثيراً من الصعوبات الآلية فحسب ، بل إن إدخال السقاطات بهذه الطريقة لا يؤدى الغرض منها ، لأنه لا يمكن إحكام وضعها فى أماكنها . ولم يبق إذن مجال للخيار سوى تخزين السقاطات فى مكان ما داخل الهرم أثناء البناء ثم دفعها إلى أسفل الممر الصاعد بعد وضع الجثة فى حجرة الدفن . والذى يثبت أنهم لجأوا إلى هذه الطريقة وجود السقاطات الثلاث التى ما زالت فى مكانها عند الطرف الأسفل للممر الصاعد ، وهى أعرض من الفتحة بنحو بوصة واحدة ، وعلى ذلك فلا يمكن إدخالها فى الممر الهابط . ومع ذلك فتظهر أمامنا مشكلتان ، أولاهما : أين خزنت السقاطات قبل إنزالها إلى داخل الممر الصاعد ؟ والثانية : كيف أفلت الرجال الذين كان عليهم أن يدفعوا بهذه السقاطات من الخلف من الهرم بعد أن انتهوا من عملهم ؟

وإلى أن اكتشف بترى أن الممر الأفقى المؤدى إلى حجرة الملكة كان أنقص ببوصة فى كل من العرض والارتفاع عن السقاطات ، كان يظن أنها خزنت إما فى الممر أو فى حجرة الملكة . ونستطيع أن نجد العرض والارتفاع اللازمين فى الفجوة التى بين قمة الممر الصاعد وبين الطرف السفلى لممر الدهليز الكبير ، ولكن طول الفجوة لا يكفى لتشوين السقاطات إذا وضعت طرفاً لطرف. وعلاوة

على ذلك فهناك شيء من الشك فى أنهم أقاموا على هذه الفجوة جسراً بكتل من الحجر فى الوقت الذى وضعوا فيه هذه السقاطات فى انتظار نقلها إلى أمكنتها .

وزيادة على ذلك فإن الممر المؤدى إلى حجرة الملك يجب استبعاده نظراً لنقص ارتفاعه ، وبالتالى حجرة الملك نفسها . ولذلك استنتج بترى أن السقاطات قد خزنت فى بهر الدهليز الكبير حيث يتيسر كل ما تتطلبه من مساحة كافية . ولكن هذا التفسير — كما أدرك بترى نفسه — كان يقوم ضده أن وجود السقاطات مشونة فى الممر يعوق موكب الدفن ، ويتحتم فى مثل تلك الحالة إما أن يصعدوا بالجثة فوق السدادات أو تجر إلى أعلى فوق الإفريزين الجانبيين . والواقع أن الاعتبارات المتعلقة بحجم السقاطات تحول دون وجود حل آخر .

ولكن بورخارت — مع اقتناعه برأى بترى فى أن السقاطات قد خزنت فى الدهليز الكبير — قد أشار إلى أن بترى قد فشل فى تفسير وجود ثمانية وعشرين ثقباً على مسافات منتظمة فى السطح العلوى لكل من الإفريزين الجانبيين . وهناك ظاهرتان أخريان لم يفسرهما بترى ، ويظهر أن لها صلة بموضوع الثقوب ، وهما أولا كتل الأحجار الصغيرة التى حشرت فى الحوائط الجانبية فى مواجهة الثقوب وقد حفر بسطح كل منها شق ، وثانياً ذلك الشق الطويل المستمر الغائر فى الجزء السفلى من ثالث درج بارز من قاع كل من الحائطين

الجانبيين ، وهذا الشق الذى يبلغ عمقه حوالى بوصة يمتد بطول جانبى الدهاليز .

وقد اقترح بورخارت — بعد أن فحص هذا الدليل جيداً — أن الثقوب والفتحات قد عملت لتوضع فيها قوائم خشبية تحمل أرضية مصنوعة أيضاً من الخشب يثبت جانباها فى الشقين الطويلين ، وكان الغرض من هذه الأرضية هو تخزين السقاطات ليستطيع الموكب الجنائزى أن يصعد الممر إلى أعلى بدون عائق ، ولكن طوله كان أكثر جداً مما يلزم لتخزين ثلاث سدادات فقط ، وربما كانت هناك فكرة أصلية عدلوا عنها فيما بعد وهى ملء الممر الصاعد كله بالسقاطات .

ومنذ اللحظة التى تم فيها وضع السدادة الأخيرة فى الطرف العلوى للممر الصاعد ، أصبح العمال الذين كانوا مكلفين بعملية وضع السقاطات فى أماكنها النهائية غير قادرين على ترك الهرم بالطريق العادى ، ولذلك احتاطوا لذلك فى عمل وسيلة الإفلات بواسطة البئر التى تبدأ من الفجوة عند الطرف العلوى من الممر الصاعد وتنتهى عند الممر النازل (شكل ١٤ — ٨) . وليست هناك أى قيمة للتفكير فيما إذا كانت هذه البئر قد عملت بعلم أو بدون علم خوفو ، ولكن عادة دفن الأشخاص أحياء لم يمارسها المصريون فى عصر بناة الأهرام بكل تأكيد . ولا بد أن البئر كانت مختفية تماماً وقت الدفن تحت كتل الأحجار

التى تغطى الفجوة ، وكذلك الحجر الأسفل فى المنزلق الغربى ، وهى لاوجود لها الآن .

ولم تكن إزالة هذه الأحجار بالشىء الصعب على العمال عندما حان الوقت ليشقوا لهم طريقاً للنزول ، وبعد أن وصل آخر عامل إلى قاع البئر غطيت الفتحة التى فى الجدار الغربى من الممر النازل بكتلة من الحجر ، وبذلك لا يمكن تمييزها عن باقى الممر .

وغطوا فى الوقت ذاته مدخل الممر الصاعد بعد السقاطة الأولى بكتلة من الحجر ، وهى التى سقطت إلى أرضية الممر النازل عندما اقتحم عمال الخليفة المأمون طريقهم داخل الهرم .

وقد ذكر سترابو (Strabo) شيئاً عن طريقة غاق مدخل الهرم فسبب ما ذكره كثيراً من التخمينات ، فقد ورد فى مؤلفه عن الجغرافيا (Geographica) الذى كتبه قبيل ظهور المسيحية ، أن الهرم الأكبر كان يحتوى على كتلة من الحجر فى مكان مرتفع قليلا فى أحد جوانبه يمكن نزعها ، فإذا رفعت من مكانها نرى وراءها ممراً نازلا إلى أساس الهرم . وفسر پترى ذلك بأنه كان للهرم الأكبر باب متحرك يسقط من أعلى إلى أسفل ومكون من كتلة واحدة من الحجر مثبتة فى عقبين فى الجزء العلوى من الجانبين . وتدعيما لنظريته ذكر أنه يوجد فى كل من الممرين الشماليين فى الهرم المنحنى وهرم ميدوم تجاويف تحت

فى الجدران الجانبية بالقرب من المدخل كان المقصود منها تثبيت أعقاب الأبواب فيها .

ونظراً لضياع الكسوة الخارجية أصبح من المستحيل أن نقرر ما إذا كان مدخل الهرم الأكبر مزودا بأمثال هذه التجاويف أو لم يكن . وعلى أى حال فإن من الصعب التسليم بأن الباب الذى ذكره سترابو — إذا كانت كلماته قد فهمت على حقيقتها — يرجع تاريخه إلى العصر الذى بنى فيه الهرم . فلم يكن للسدادات والسقاطات أية قيمة لسد الممرات فى الأهرام ، إذا كانوا يقدرون إمكان الدخول بعد ذلك إلى الحجرات الداخلية ، ولأن وجود الباب المتحرك يدعو إلى التفكير فى أنهم كانوا يقصدون ذلك .

ومن المحتمل أن مدخل الهرم الأكبر — مثل المدخل الغربى للهرم المنحنى الذى مازال سليما — مغطى بطبقة من أحجار الكسوة تجعله لا يمكن تمييزه عن باقى السطح الخارجى للهرم . وعندما اقتحم اللصوص الهرم لأول مرة — وربما كان ذلك أثناء عصر الفوضى التى جاءت فى أعقاب الدولة القديمة — تحتم عليهم أن يشقوا طريقا خلال الكتل الحجرية التى تغطى المدخل . ولسنا نعرف المدة التى ظل الهرم مفتوحا خلالها ، ولكن ربما أغلق واقتحم ثانية أكثر من مرة أثناء الأسرات المتعاقبة حتى ركب له أخيرا — ربما فى العهد الصاوى — باب يناسب وصف سترابو ، فإذا صح هذا القول — وهو تخمين

صرف — فإنه من الضروري أيضاً أن نفرض إما أن يكون وجود هذا الباب قد نسي امره ، وإما أنه سد بأحجار غطاته فى وقت ما أثناء المدة بين زيارة سترابو وبين القرن التاسع الميلادى ، إذ ليس هناك تفسير آخر لعدم اقتدار الخليفة المأمون على العثور على المدخل حتى لجأ إلى شق ممر جديد فى أحجار مبنى الهرم نفسه .

ومع أن المبانى التى كونت مجموعة الهرم الأكبر عند تشييده قد قد اختفت كلها أو بعضها ، فإن آثارها الباقية كافية لتبين على وجه العموم مطابقتها لغيرها من المبانى المماثلة . وليس هناك الآن شيء باقيا من جدار السور الخارجي الذى كان حول الهرم ، ولكن جزءاً من الأرضية المصنوعة من الحجر الجيرى الناعم والتى تغطى المسافة بين الهرم وهذا السور لازالت فى حالة جيدة من الحفظ ، وكان المعبد الجنازى ملتصقا بواجهة الهرم الشرقية . وكانت أرضيته مصنوعة من حجر البازلت المصقول فوق طبقة من الحجر الجيرى ، وكانت الجدران فى جزء منها على الأقل مكسية بالجرانيت ، ويقع فى شمال وجنوب المعبد حفرتان كبيرتان على هيئة مركبين نقرتا فى الصخر . وتقع حفرة ثالثة من هذا النوع فى الجانب الشمالى من الطريق الجنازى بالقرب من المعبد . ويبدو واضحا أن كل هذه الحفر كانت مسقفة ، ولكن رغم هذه الحيطة لم يبق شيء من المراكب التى كانت تملأها فى الأصل ، وإن اختفاءها الكامل يحملنا على الظن بأنها كانت مصنوعة من الخشب ،

وهو مادة ليست سريعة العطب فحسب ، بل فى الاستطاعة حملها بسهولة أكثر من نقل الحجر[1]. وقد عثر فعلا على أجزاء من الخشب فى الحفرة التى تشبه المركب والمبنية بالطوب اللبن فى مصطبة عحا بسقارة ، ومع أنه من الواضح أن هذه المراكب قصد بها مد الملك المتوفى بوسيلة انتقال فى العالم الآخر ، إلا أن المكان أو المنطقة التى تستخدم فيها مازال من الأمور الغامضة . وتتطلب ديانة الشمس وجود مركب لمرافقة إله الشمس فى رحلته اليومية عبر السماء ، وفى رحلته الليلية تحت الارض ، كما يحتاج إليها للوصول إلى المنطقة الواقعة بعد الأفق الشرقى حيث يظن أن الآلهة يسكنون فيها . وفى ديانة أزوريس لابد من وجود مركب للانتقال به إلى أبيدوس وأبوصير ، وإلى أن نعرف معلومات أوفى عن العقائد الدينية فى المدة التى تسبق الأسرة الخامسة ، سيظل موضوع تلك المراكب وتفسير وجودها أمراً تختلف حياله آراء الباحثين .

وعلى زاوية قائمة من الطرف العلوى للطريق الجنازى من ناحيته القبلية ، نرى صفا من ثلاثة أهرام إضافية يلتصق بالواجهة الشرقية لكل منها هيكل صغير متخرب ، وإلى جوار الهرم الأول منها حفرة مركب صغيرة . ويعتقد ريزنر Reisner أن هذا الهرم لزوجة خوفو

(١) عثر فى صيف ١٩٥٤ على مركبين سليمتين فى الجهة الجنوبية من الهرم الأكبر . (المعرب) .

المفضلة التي — طبقا للعادات المصرية — كانت شقيقته في الوقت ذاته على الأرجح ، أما عن الهرم الثاني فقد حكى هيرودوت القصة التالية :

«وصلت شرور خوفو إلى الحد الذي جعله يفعل الآتي .. فبعد أن صرف كل أمواله وأراد المزيد أرسل ابنته إلى بيوت الدعارة وأمرها أن تحضر له مبلغاً معيناً من المال — ولست أستطيع معرفة كميته ، لأني لم أسمع ذلك من أحد — وحصلت على المبلغ .. وفي الوقت ذاته رغبت في أن تترك أثرا يخلد ذكراها ، فطلبت من كل رجل أن يقدم لها هدية من حجر ليفيدها في العمل الذي كانت تفكر فيه . وبهذه الأحجار بنت الهرم الذي يقع في وسط الأهرام الثلاثة التي أمام الهرم الأكبر ويبلغ طول ضلعه مائة وخمسين قدما »[1] .

ولحسن الحظ لا يوجد سبب واحد يحملنا على الظن بأن تفاصيل هذه القصة تمت إلى الحقائق التاريخية بأية صلة . فنحن نعرف أن الهرم الثالث نسب في العصور المتأخرة إلى الملكة حنوتسن (Henutsen) التي ربما كانت أختا غير شقيقة للملك . وفي أثناء الأسرة الواحدة والعشرين قدست مع الإلـهة إزيس وأطلق عليها اسم « محبوبة إيزيس الأهرام » . وفي هذا الوقت أيضا وسعوا الهيكل الصغير الملاصق للهرم ليصبح معبداً يتناسب مع مكانة الإلـهة إيزيس .

(1) Herodotus, II, 126 (Rawlinson's translation).

ويتكون الطريق الجنازى من ممر بنى إما فوق الصخرة مباشرة ، أو فى تلك الأماكن ، حيث ينخفض كثيراً مستوى الصخر ، فوق جسر من المبانى . وبناء على ما ذكره هيرودوت فقد استغرق بناء الطريق الجنازى والمبانى الأخرى عند قاعدة الهرم عشر سنوات . والآن لم يبق سليما من هذا الممر شيء ، ولكن ما زال بعض الجسور قائماً فى المحجر الصغير الذى يمر فوقه ، ثم عند عبوره حافة الهضبة . ولا يزال الجزء الأسفل من الطريق الجنازى ، وما عساه أن يكون قد بقى من مبنى الوادى دون كشف ، تحت منازل القرية الحديثة المعروفة باسم نزلة السمان . وبالقرب من وسط الطريق الجنازى أقيم نفق ليستطيع من يريد العبور أن يفعل ذلك دون أن يلف طويلا حول الهرم أو مبنى الوادى .

وذكر هيرودوت عند وصفه للطريق الجنازى أنه بنى بأحجار مصقولة حفرت عليها صور حيوانات . وقد شك بعض الأثريين فى صحة ذلك ، لأنه لم يعثر على أى أثر لنقوش فى أى هرم من أهرام الأسرة الرابعة ، أو حتى فى مبانيهم الملحقة بها ، مع أن بعضاً من المصاطب الخاصة المعاصرة قد اشتملت بكل تأكيد على نقوش. وربما كان السبب فى عدم وجودها ، هو أن المهندسين فى ذلك العصر كانوا مشغولين بإتمان صناعة استخدام الحجر الجرانيتى ، وإتقان فن تشييد المبانى الضخمة . إلا أن و. ستيفنسن سميث (W. Stevenson Smith)

ـ الذى ساعد ريزنر فى حفائره بجبانة الجيزة ـ قد قرر حديثاً اكتشاف بعض قطع من النقوش الجميلة البارزة وسط خرائب المعبد الجنازى عند قمة الطريق الجنازى . فإذا سلمنا على أســـــاس هذا الاكتشاف بأن جدران المعبد الجنازى كانت محلاة بنقوش بارزة فذلك دليل على صحة ما ذكره هيرودوت عن الطريق الجنازى[١] .

وإلى جنوب الطريق الجنازى وعلى مقربة من الهرم الإضافى الأول عثر ريزنر (Reisner) فى عام ١٩٢٥ على حجرة دفن من عصر الدولة القديمة لم يعرف اللصوص طريقهم إليها ، ولم يكن أحد قد عرف مكانها من قبل ، وتقع فى قاع بئر عمودية عمقها ٩٩ قدما ملئت كلها بالمبانى . وفى داخل هذه الحجرة وضعوا التابوت المرمرى الجميل والأثاث الجنازى للملكة حتب ـ حرس (Hetep-heres) زوجة الملك سنفرو وأم الملك خوفو . ومع أن التابوت وجد خالياً إلا أنه عثر على الأحشاء التى استخرجت من الجسد ، لتساعد على الاحتفاظ به ، فى صندوق من المرمر يطلق عليه اسم الصندوق الكانوبى (Canopic chest) .

وحاول ريزنر أن يفسر عدم وجود الجسد ما دامت الحجرة لم تمس فقال إن حتب ـ حرس دفنت فى مقبرة بدهشور بالقرب من

---

(١) عثر فى معابد سنفرو بدهشور على نقوش كثيرة فى عام ٥١ ، ١٩٥٢ . (المعرب)

هرم سنفرو ، ولكن بعد دفنها مباشرة اقتحم اللصوص قبرها وأخذوا الجسد بما عليه من جواهر وحلى ذهبية ، إلا أنهم قبل أن يتمكنوا من سرقة باقى الأثاث وصلت أخبار اقتحام المقبرة إلى سمع الملك . وأملا فى تفادى تكرار ذلك ، عزم خوفو الذى ربما لم يخبره أحد باختفاء الجثة على نقل مقبرة أمه — سراً — إلى الجيزة ، حيث تصبح فى أمان ورعاية مثل هرمه . وزيادة فى الحيطة لم يبن فوق القبر الجديد أى مبنى علوى ، وعندما تراكمت الرمال فوق فوهة البئر لم يظهر من معالمها أى أثر ، ولهذا بقيت غير معروفة المكان حتى القرن العشرين عندما قام المكتشف الأمريكى بكنس الرمل عن الأرض الصخرية . وفى ذلك أحسن دليل على نجاح فكرة خوفو .

ومن بين الأشياء التى عثر عليها فى هذه الحجرة أوان من المرمر ، وإبريق من النحاس ، وثلاث أوان ذهبية ، وأمواس وسكاكين من الذهب ، وأدوات من النحاس ، وآلة ذهبية لتقليم الأظافر مدببة من أحد طرفيها لتنظيف الأظافر ومقوسة من الطرف الآخر لضغط أطراف اللحم عند الظفر إلى أسفل ، واحتوى صندوق الزينة على ثمان أوان صغيرة من المرمر ملأى بالعطور والكحل . وكان فى داخل صندوق المجوهرات عشرون خلخالا من الفضة ، رصع كل منها بفراشات من الدهنج واللازورد والعقيق الأحمر . ومن بين الأشياء الكبيرة الحجم إطار خيمة مصنوع من الخشب ومغلف بالذهب ،

وكرسيان بمساند ، وسرير غلف جزء منه بصفائح من الذهب ، أما ناحية القدمين من السرير فهى لوحة من الذهب مرصعة برسوم نباتية ذات رسوم زرقاء وسوداء . وهناك أيضا محفة مصنوعة من الخشب وكسى جزء منها بصفائح من الذهب محلاة بكتابات هيروغليفية من الذهب ، مثبتة فى لوحات من الأبنوس ومكررة أربع مرات وترجمتها : «أم ملك الوجه القبلى والبحرى ، تابعة حورس ، رائدة الحاكم ، العزيزة التى تنفذ كل أوامرها ، ابنة الإلـٰه [المولودة] من صلبه ، حتب حورس » .

ومهما أطنبنا فى الوصف فإن ذلك لا يفى بحق المهارة الفنية ودقة صناعة الأثاث الجنازى الخاص بالملكة حتب . حرس ، فإذا قارنا أثاث هذه المقبرة بأثاث مقابر العصور التالية فإنه ببساطته المتناهية يجعل ماعداه يبدو مجردا من الذوق . ولم يتأثر غير الخشب فقط بمرور الزمن ، فتحلل أو تقلص حجمه إلى درجة حالت دون إعادة استخدامه عندما أراد إخصائيو بعثة بوسطن — هارفارد إعادة تركيب الأشياء كما كانت قبل تسليمها إلى المتحف المصرى بناء على قوانين الحفر المصرية .

ومن رأى ريزنر أن بعضا من هذه الأشياء على الأقل قد استعملته حتب . حرس أثناء حياتها . وهو رأى محتمل إلى حد كبير ، فإن الأدوات الشخصية من هذا النوع كانت لا توضع فى المقبرة حتى حين وقت الدفن ، أما الأوانى والجرار التى يضعون فيها المأكولات

وغيرها فكانت توضع فيها مقدما . وسواء أكانت هذه الأشياء جزءا من أثاث جناح الملكة فى القصر أم لا ، فإنه أمر ذو أهمية ثانوية . فأهمية هذا الاكتشاف الحقيقية هى فى الضوء الذى ألقاه على ماوصلت إليه المجهودات العملية والفنية فى الأسرة الرابعة ، وفيما أمدنا به من دليل لا يقبل الشك عن أنواع الأثاث الذى كان يوضع فى المقابر الملكية من ذلك العصر .

ومما زاد فى التأثير الفنى للهرم الأكبر تنسيق ما حوله من مبان . فقد كانت الأهرام الأخرى محاطة بمقابر موظفى وأقارب وأصحاب تلك الأهرام ، ولكنهم لم يعنوا إلا قليلا بتنظيم أمكنتها وترتيبها ، ولكننا نرى فى شرق وغرب السور الذى كان يحيط بالهرم الأكبر جبانة كبيرة رتبت مصاطبها فى صفوف متوازية يبعد كل منها عن الأخرى بضعة أقدام . ولم يبن فى جنوب الهرم إلا صف واحد منها بينما انعدم وجودها فى الشمال . وعنوا أيضاً بتخصيص المقابر ، فتلك التى فى الجبانة الشرقية وزعت على أقرب أقرباء الملك ، وتلك التى فى الجبانة الغربية — وهى الأكثر عدداً — وزعت على الموظفين .

ومع أن معظم هذه المصاطب قد تعرت من كسوتها الخارجية كلها إلا أنه يجب أن تتصور أنها كانت كلها فى الأصل مكسية بأحجار طره الجيرية . وكان لونها كلها على نمط واحد يتفق ولون الهرم الكبير الذى يرتفع عاليا فى وسطها . ولاحظ هرمان يونكر (Herman

Junker) الذى قام بحفر جزء من الجبانة الغربية ملاحظة جديرا بالاعتبار ، وهى أن الفكرة المصرية عن رغبة الملك المتوفى بأن يظل محاطا فى العالم الآخر بأقاربه وأتباعه الخلصاء ، لم توجد بهذه الصورة الواضحة كما وجدت فى ترتيب مقابر هذه الجبانة . وربما قال قائل — وهو محق أيضاً فى قوله — بأن الفارق بين الحاكم الإلهى وبين رعاياه المتوفين لم يمثل بصورة أوضح وأقوى من الفارق بين ذلك الهرم المتسامى فى الارتفاع وتلك المصاطب المسطحة البسيطة .

ويبدو أن ما قصد إليه خوفو من التنظيم المعمارى لقبره لم يلق إلا قليلا من التقدير من الأجيال التى جاءت بعده، ففى الأسرتين الخامسة والسادسة اختل النظام الأساسى للجبانة ببناء مصاطب أصغر حجما فى المسافات التى بين صفوف المصاطب الكبيرة ، وكان أصحاب هذه المقابر إما موظفين فى الجبانة أو من كهنة الموتى الذين كانوا يقومون فى حياتهم بالواجبات المختلفة المعتبرة ضرورية لرفاهية الملك المتوفى وعشيرته . وفى العصور المتأخرة ، وبالأخص فى العصر الصاوى، ساد الاعتقاد بأن الدفن فى منطقة أهرام الجيزة الثلاثة يفيد الموتى فوائد خاصة ، ونتيجة لذلك أصبحت المنطقة أشبه بخلية النحل تملأها المقابر المختلفة، وترتب على ذلك أن تصميمها الأول المنتظم أصبح خافيا على الأنظار من جراء ما استجد عليه .

ويقع تمثال أبى الهول جنوبى مجموعة الهرم الأكبر وعلى مقربة

من مبنى الوادى للهرم الثانى (لوحة ٦٠ب) . وهو عبارة عن ربوة من الصخر تركها بناؤو الهرم الأكبر عند قطع الأحجار لبنائه ، ثم شكلت فى عصر خفرع فى صورة أسد رابض هائل الحجم ذى رأس إنسانية . وأغلب الظن أنه كان مغطى بطبقة من الجبس لونوها بعد ذلك . وطول هذا التمثال يبلغ نحو ٢٤٠ قدما ، وارتفاعه ٦٦ قدما ، ومتوسط عرض الوجه ١٣ قدما و ٨ بوصات . وفوق رأسه لباس الرأس الملكى وشعاران آخران للملكية هما حية الكوبرا على جبهته واللحية ، وقد ضاع جزء كبير منها الآن . ومع أن الوجه قد تغير كثيراً إلا أنه ما زال شبيهاً بصورة الملك خفرع ، ولم يكن مجرد صورة رسمية عادية . وربما كان أمام صدر أبى الهول تمثال للملك ، ولكن لم يبق له من الأثر اللهم إلا اليسير ، وبين يديه الممتدتين لوحة كبيرة من الجرانيت الوردى عليها نقش يسجل رؤيا للفرعون تحوتمس الرابع من الأسرة الثامنة عشرة ، قبل أن يعتلى العرش .

ويذكر النص أن الأمير خرج ليصطاد ، وعزم على أن يستريح وقت الظهيرة فى ظل أبى الهول . وأثناء نومه وعده أبو الهول ـ الذى كان معتبراً فى ذلك الوقت رمزاً لإله الشمس حرماخيس Harmachis — بمنحه تاج مصر المزدوج إذا أزاح عنه الرمال التى كادت تبتلع جسمه . ولسوء الحظ تأثر الجزء الأخير من النقش بالجو تأثراً بالغاً إلى الحد الذى يجعل قراءته متعذرة ، ولكن يمكن الظن بأنه

يحكى كيف أن رغبة الإله قد تحققت ، وان الأمير قد كوفىء بتاج الوجهين . وعلاوة على إزاحة الرمال ربما قام تحوتمس الرابع بترميم الأجزاء المتهدمة من الجسم بوضع قطع صغيرة من الحجر الجيرى فى الأجزاء التى تهدمت ، وكررت هذه العملية فى عهد البطالسة وأيام الرومان عند ما أزيحت الرمال للمرة الثانية وأقيم مذبح أمام التمثال . وأول من قام بحفر أبى الهول فى العصر الحديث هو الكابتن كافيليا (Captin Caviglia) عام ١٨١٨ وتكلفت حفائره ٤٥٠ جنيها . وبعد مضى ثمانية وستين عاما من هذا التاريخ رفع جاستون ماسبرو Gaston Maspero ما حوله من رمال ، وأخيراً فى عام ١٩٢٥ قامت مصلحة الآثار بتنظيفه وترميمه .

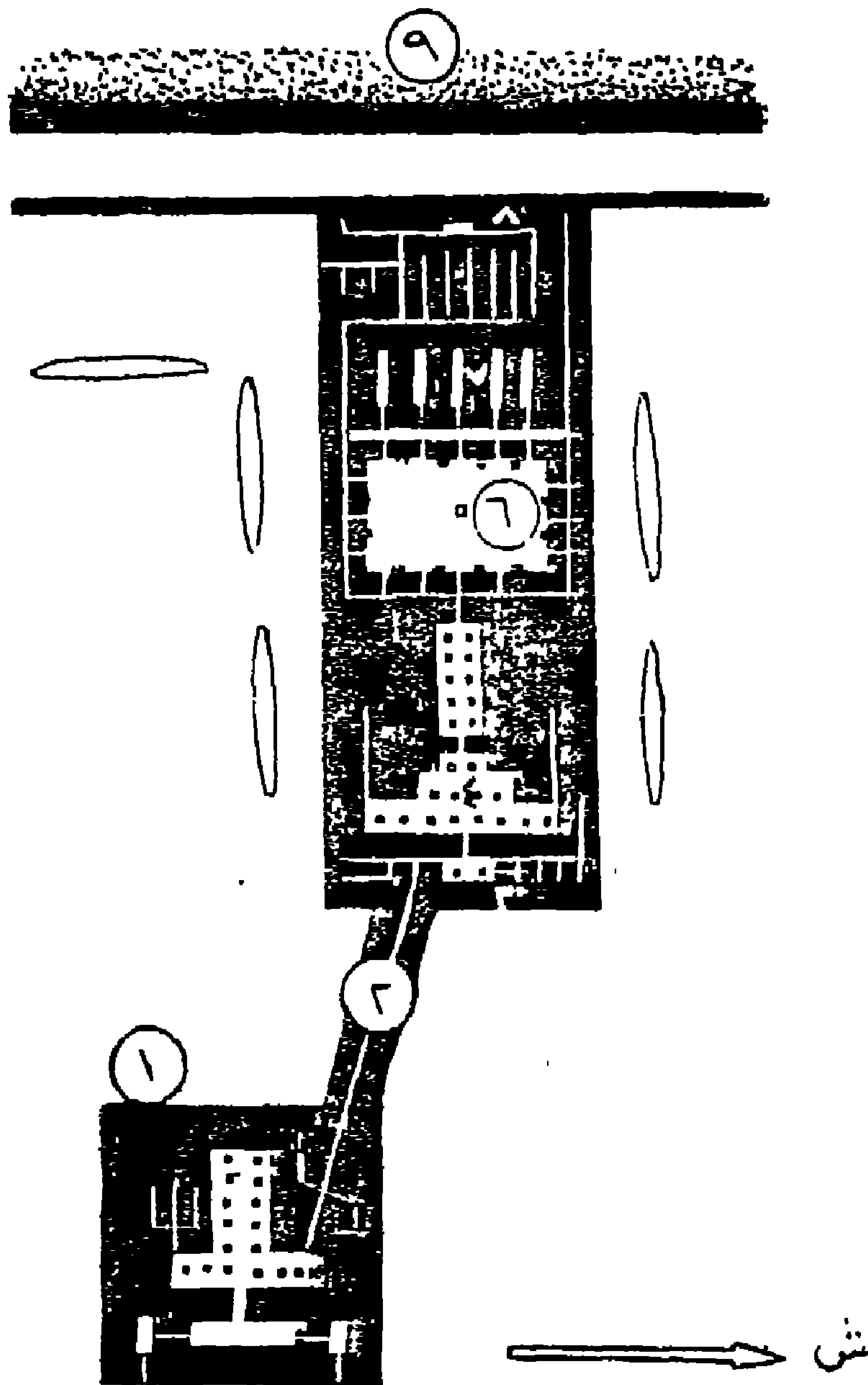
ويمثل الأسد فى الأساطير المصرية حارس الأماكن المقدسة ، ولا يعرف كيف ومتى ظهرت هذه الفكرة ولكن يحتمل أن تاريخها يرجع إلى عهد مترام فى القدم . وككثير من المعتقدات البدائية الأخرى أدمجه كهنة عين شمس فى مذهب الشمس ، فاعتبروا الأسد حارسا لبوابات العالم السفلى فى الأفقين الشرقى والغربى . واستمر الأسد فى مهمته فى الحراسة ولكن على صورة أبى الهول له وجه إله الشمس أتوم Atum . وفى نقش ربما يرجع تاريخه إلى عصر أحدث من عصر خفرع يقول ما يأتى على لسان أبى الهول : « إنى أحافظ على هيكل مقبرتك ، وأحرس حجرة دفنك ، وأطرد عنها

عنها الغرباء المتطفلين ، وأرمى بالأعداء إلى الأرض وأسلحتهم معهم ، وأطرد الشرير من هيكل قبرك ، وأهلك خصومك من مخابئهم سادا إياها فلا يخرجون منها مرة ثانية » . وربما كان السبب فى توحيد صورة إلـه الشمس مع صورة الملك المتوفى هو الاعتقاد بأن الملك سيصبح بعدموته إلـه الشمس نفسه حسب ديانة الشمس فى هليوبوليس، ولهذا فإن أباالهول يمثل خفرع كإلـه للشمس ويقوم بعمل الحارس لجبانة الجيزة .

وفى الجهة الجنوبية الشرقية من أبى الهول مبنى كان يظن فى وقت من الأوقات أنه معبد خاص بأبى الهول ، ولكننا نعرف الآن أنه مبنى الوادى فى المجموعة الهرمية الخاصة بالملك خفرع . واكتشف أوجست ماريت Auguste Mariette مؤسس المتحف المصرى هذا البناء فى عام ١٨٥٣ ، ومع أنه نظفه كله من الداخل إلا أن كمية كبيرة من الرمال ظلت حول الجدران الخارجية . وقام مريت بتنظيف آخر فى عام ١٨٦٩ عندما أصبح هذا المبنى من أهم أماكن الزيارة التى يفد إليها الزائرون الذين أتوا لحضور افتتاح قناة السويس . وأخيراً فى موسم ١٩٠٩ — ١٩١٠ أزالت بعثة فون سيجلين Von Sieglin الرمال عن الجدران الخارجية تحت إدارة أوفو دواشر Uvo Holscher وچورچ شتيندورف George Steindorff أثناء قيامهم بالكشف عن المجموعة الهرمية كلها .

وإذا جعلنا فى اعتبارنا قدم تاريخ مبنى الوادى فإننا لا نملك أنفسنا من الإعجاب بما هو عليه من حالة جيدة جدا . ولا يوجد مبنى آخر فى الأسرة الرابعة - إذا استثنينا المعبد الجنازى غير الكامل لهرم ميدوم - ظل محتفظا بحالته مثل هذا المبنى . وهو مشيد فوق أرض تبلغ أبعادها ١٤٧ قدما فى كل اتجاه ، ويعلو إلى ارتفاع ٤٣ قدما ، وبنيت جدرانه الضخمة من مداميك من الحجر الجيرى المحلى ، وكسيت من الداخل والخارج بأحجار منحوتة من الجرانيت الوردى المصقول المجلوب من أسوان (شكل ١٥ — ١) ولم تبن الجدران الأربعة الخارجية عمودية ، بل مائلة حسب الطراز السائد فى ذلك العهد . ولهذا المبنى بابان فى الواجهة الشرقية ربما أقيم على جانبيهما تمثالان لأبى الهول ، ويؤدى هذان البابان إلى مدخل البناء من رصيف قد فى الصخر ، وحول كل باب شريط من الكتابة الهيروغليفية فيه اسم الملك وألقابه ، ولا نعرف غيرها من كتابات أو نقوش فى أى مكان من المبنى . وتؤدى الممرات القصيرة من البوابة — عن طريق يشبه الدهليز البسيط — إلى رواق طويل وجد « مرييت » فى أرضيته حفرة عميقة تحتوى على تمثال لخفرع من الديوريت ، وهو من أحسن الأمثلة فى فن النحت فى الدولة القديمة التى كشف عنها حتى الآن (لوحة ٨) .

وكان هذا التمثال — الذى يزيد قليلا عن الحجم الطبيعى —



شكل ١٥ — معبد الوادى والمعبد الجنازى لهرم خفرع

موضوعا فى الأصل فى الصالة التى تشبه فى شكلها حرف T والتى تقع فى الجهة الغربية من الرواق المستطيل . وتاريخ نقله إلى هذه الحفرة غير محقق ، وربما يرجع إلى الرغبة فى الاحتفاظ به من العبث والضياع. وفى يوم من الأيام كان فى هذا المعبد مجموعة من ثلاثة وعشرين تمثالا ملكيا مصنوعة من الديوريت والإردواز والمرمر كانت تستند إلى جوانب الصالة ، سبعة عشر تمثالا منها فى جذع حرف T. والستة الباقية فى مواجهة الشرق فى الجزء الباقى من الصالة . وكان الضوء يدخل إلى الصالة من شقوق مائلة ، فتح جزء منها فى أعلى الجدران والجزء الآخر فى أعلى السقف الجرانيتى المسطح ، بحيث لا تقع الأشعة مباشرة على التماثيل ولكن تنعكس عليها من الأرضية المرمرية ومن الأعمدة المربعة الضخمة المصنوعة من الجرانيت الوردى التى تحمل السقف . ويبدو أن مثل هذا النور غير كاف لإظهار جمال التماثيل التى كانت آيات فنية رائعة ، إذا حكمنا عليها من التمثال الذى بقى سليما منها .

ولكن التماثيل المصرية لم تكن لتصنع للزينة بل لتكون للروح بديلا لا يسهل تحطيمه . ولم يكن للنور المعتم أو الظلام الكامل أى تأثير على وظيفة ذلك البديل عن الجسم البشرى ، ونعرف ذلك تمام المعرفة من عادة وضع التماثيل فى سراديب . ولم يتضح تماما الدور الذى كان يؤديه مبنى الوادى فى تأدية الطقوس الجنازية ، ورأى ريزنر Reisner عند مناقشته لشكله المعمارى أنه مأخوذ أساسا من سرادق

مكون من حصير محمول على قوائم ربطت مع بعضها بحبال ، وحدد ب . جرد سلوف (B. Grdseloff) — الذى أضافت أبحاثه الحديثة مادة علمية لما هو معروف عن الغرض من مبنى الوادى — وظيفة هذا المبنى بأنه كان يسمى فى النصوص المصرية سح . نثر (سرادق الإله) .

وفى رأيه أيضا أنه يجمع فوائد بناءين أقيما فى الأصل منفصلين عند ما بنيا ضمن مصاطب الدولة القديمة ، وهما الـ « أبو » (خيمة التطهير) والـ « واعبت » (بيت التحنيط) . ويفترض جرد سلوف أن طقوس التطهير فى مبنى الوادى الخاص بخفرع ، قاموا بها فى كشك مؤقت بنى فوق السقف توصل إليه عن طريق منزلق مبلط بالمرمر من ممر يبدأ عند الركن الشمالى الغربى من الصالة التى تشبه حرف T ، ولا تزال الثقوب المستديرة التى ربما استعملت لتثبيت القوائم فى مثل هذا السرادق واضحة فى بلاط السقف . وافترض أيضا أن تحنيط الجثة تم فى الرواق المستطيل ، ولكن ظهرت أبحاث بعد ذلك تعكس ما افترضه جرد سلوف ، وذلك بأن التطهير كان فى الرواق المستطيل وأن التحنيط كان فوق السقف .

ولعب التطهير بالغسل دورا هاما فى الطقوس المصرية فى كل العصور ، فكانوا مثلا يغسلون جسم الملك فى احتفال فى البحيرة المقدسة الخاصة بمعبد رع فى عين شمس قبل أن يدخل المبنى ، وكذلك

لا بد أن تطهر جثته بالغسل قبل أن تدخل إلى النطاق المقدس من قبره . واعتقدوا علاوة على ذلك أن عملية التطهير تجدد الملك المتوفى ، تماما كما كان يظن أن إله الشمس يولد كل صباح بالاستحمام فى « بحيرة الزنبق » قبل القيام برحلته عبر السماء . وتعاد الحياة إلى أوزيريس أيضا — بناء على إحدى القصص — بتطهير جسده ، ولذا كان يظن أن الملك المتوفى عندما وحدوه مع أوزيريس ينال حظا مماثلا إذا فعلوا له الشيء نفسه .

وبعد إتمام مراسم التطهير تؤخذ جثة الملك للتحنيط ، وذلك إما فى الرواق المستطيل أو فى السرادق المقام فوق السقف ، أى فى المكان الذى يقوم مقامه الـ « واعبت » . ولم تكن عمليات التحنيط المتقن فى الدولة الحديثة قد عرفت واستخدمت فى عصر بناة الأهرام ، ومع أنه لا يوجد أى دليل على استخدام ما يحفظ الجسم من التحلل فإن وجود الصندوق الكانوبى محتويا على أحشاء الملكة فى مقبرة حتب . حرس يثبت أن معظم الأعضاء القابلة للتعفن كانت تزال من الجسم . ونعرف أيضا من بعض مقابر الدولة القديمة أن الجسد كان يلف فى لفائف من الكتان بحيث يلف كل عضو على حدة ، وكانت تحشر فى بعض الأحيان وسائد من الكتان تحت اللفائف حتى يظل الجسم محتفظا بشكله الطبيعى . وأحيانا أخرى تشكل صور بعض الأعضاء الاخرى — مثل الأنف والشفاه والصدر وأعضاء التناسل — بالكتان وهى أشياء لا ضرورة لها لو أنهم كانوا قد عرفوا وسيلة فعالة لحفظ الجسم .

وكان ثالث المراسم التى تتم فى مبنى الوادى ما يسمى « فتح الفم » ، فبعد عملية التطهير ولف الجسد فى اللفائف يؤخذ إلى الصالة التى تشبه حرف T حيث كانت تقوم الثلاثة والعشرون تمثالا ، فيدنو الكهنة — ومن بينهم واحد على الأقل من أبناء الملك المتوفى — من كل تمثال، الواحد بعد الآخر، فينثرون عليها الماء ويعطرونها بالبخور ويقدمون أمامها الذبائح ويلمسون أفواهها بآلات مختلفة ، من بينها القدوم والإزميل ، ويمسحون أفواهها باللبن ثم يزينونها بشعائر الملك . وفيما تلا من عصور كانت هذه المراسم تؤدى أيضاً على جسد المتوفى ، ولكن هذه العادة لم يقم بها المصريون إلا بعد الدولة القديمة ، وكان يظن أن إجراءها يمنح التمثال أو المومياء حواس الشخص الحى .

وكان إنجاز هذه الطقوس الثلاثة فى مبنى الوادى يستغرق بضعة أسابيع ، فقد جاء فى نقوش مقبرة الملكة مرسعنخ (Meresânkh) — التى ربما كانت إحدى زوجات خفرع — أن تحنيطها قد استغرق مائتين واثنين وسبعين يوما . وهذا ما يتطلبه تحنيط الملك على الأقل ، وبعد ذلك توضع الجثة فى تابوت خشبى ، ثم يحملونها إلى خارج مبنى الوادى عن طريق الممر الذى يصل بين الصالة والطريق الجنازى (شكل ١٥ — ٢) .

وكان يتحتم أن يمر الموكب فى طريقه داخل الممر على مدخل ممر ضيق يؤدى إلى حجرة صغيرة بنيت من المرمر ؛ ولكن الغرض من

هذه الحجرة ما زال مجهولا ، وقد أراد هولشر أن يفسرها بأنها كانت حجرة البواب الذى كان من واجبه حراسة المدخل إلى الطريق الجنازى ، إلا أن جرد سلوف رأى أنها كانت تستعمل لتخزين الطعام والقرابين التى يحتاجون إليها أثناء القيام بالمراسم الثلاثة ، كما فسر أيضاً وجود ستة مخازن طويلة مرتبة فى طابقين — ثلاثة فى كل طابق — وتقع فى نهاية ممر يفتح فى الجانب الجنوبى من الصالة ، بأنها كانت مخصصة لوضع المواد المختلفة والأدوات الدينية التى يحتاجون إليها أثناء الطقوس الثلاثة وأن كلا منها كان يحتاج إلى مخزنين .

ولكيلا تكون هناك ضرورة لبناء جسر فوق منخفض عميق شرق المعبد الجنازى مباشرة بنى الطريق الجنازى على حافة الصخرة ، ومر مائلا من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى . وطول هذا الطريق أكثر من ربع ميل وعرضه نحو ١٥ قدما . ولم يبق شىء منه سوى جزء من الأساس الصخرى وبعض كتل من أحجار طره الجيرية من جدران وأرضية ممره . وعندما كان سليما ارتفعت جدرانه عمودية من الداخل ، أما وجهها الخارجى فكان يميل ميلا واضحا . وإذا كان هيرودوت على صواب فيما كتبه من أن الطريق الجنازى للهرم الأكبر كان محلى بنقوش ، فلا بد أن تكون الجدران الداخلية لممر هــذا الطريق الجنازى محلاة بنقوش أيضاً . وكان مسقوفا بكتل من الحجر وضعت مسطحة ، وربما يرجع تاريخ تسقيف الطرق الجنازية إلى

الوقت الذى بدأوا فيه يضعون النقوش على جدران ممراتها . ويبدو أن الطريقين الجنازيين للهرم المنحنى وهرم ميدوم قد خلا كلاهما من النقوش فلم يسقفا بكل تأكيد ، وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون الطريق الجنازى للهرم الأكبر ، هو أول طريق سقف ليحمى النقوش الملونة على جدرانه ، وكان الضوء يدخل إلى هذا الممر من شقوق أفقية فتحت وسط السقف من أوله إلى آخره .

وبما أن المطر كان يحتمل دخوله أيضاً من هذه الشقوق ، وإذا لم يصرف فإنه يتجمع منحدراً إلى مبنى الوادى ، لهذا عملوا مجرى ضيقاً فى الأرضية عند الطرف الأسفل من الطريق الجنازى ليوجه الماء فيخرج خلال فتحة فى الجدار الجانبى .

فإذا نقلت جثة الملك إلى المعبد الجنازى لم يعد فى استطاعة من يقف خارج الطريق الجنازى أن يرى الاحتفال ؛ ولا شك أن مثل هذا الحجب كان متعمدا . ولو أن الباعث الذى دعا إليه لا يمكن استنتاجه بدقة . ويبدو أن التفسير المعقول هو أنهم كانوا يظنون أنه من الضرورى حماية الجسد الميت بعد تطهيره ، فى مبنى الوادى ، من نظرات أولئك الذين لم يتطهروا وفق طقوس خاصة . ولم يكن وضع الجسم داخل تابوت خشبى كافيا لحمايته من التدنس . وربما كان لزاما على غير الكهنة من الأشخاص الذين كان عليهم مرافقة النعش إلى المعبد الجنازى ، أن يتم تطهيرهم قبل انضمامهم إلى الموكب . أما

الكهنة — واسمهم فى اللغة المصرية وعب ، أى « طاهر » — فإنهم كانوا متطهرين فى كل وقت من الأوقات .

ولم يبق من المعبد الجنازى غير خرائب ، وكان مبنى منخفضا مستطيل الشكل يبلغ طوله نحو ٣٧٠ قدما وعرضه ١٦٠ قدما ، بنيت جدرانه بالأحجار المحلية وكسيت من الداخل بالجرانيت، ولكن باقى البناء كان ذا كساء من أحجار طره الجيرية .

وهناك خمس حفر للمراكب فى الصخر قريبة من الجدارين الشمالى والجنوبى ، ولا تزال حفرتان منها تحتفظان بأسقفهما من كتل الحجر الجيرى ، ولكن لم يوجد أثر للسفن الخشبية .

وفى جميع المعابد الجنازية التى تم الكشف عنها لا يوجد معبد جنازى واحد نستطيع أن نقول إنه صورة مماثلة لغيره ولكنها تختلف فى الترتيب وفى التفاصيل المعمارية فقط .

ومنذ عصر خفرع حتى نهاية الدولة القديمة نرى أن كل معبد يحتوى على خمسة عناصر أساسية : صالة المدخل ، وفناء مكشوف . وخمس كوات للتماثيل ، ومخازن ، ومقدس . ومن المحتمل أن المعبد الجنازى للهرم الأكبر كان ذا تصميم مشابه ، ولكن حالته الخربة تجعلنا لا نستطيع تحديد تفاصيل رسمه .

وفى معبد خفرع لا يؤدى الطريق الجنازى إلى صالة المدخل

مباشرة بل إلى ممر طويل ، وتفتح على هذا الممر بضع حجرات ربما قصد منها أن يضعوا فيها الأدوات المستعملة فى احتفالات المعبد .

وفى الجزء الأوسط يتسع الممر فيصبح شبيها بالردهة (شكل ١٥ — ٣) التى تتصل بصالة المدخل عن طريق ممر ضيق . وتتكون الصالة من جزءين : الأول مستعرض (شكل ١٥ — ٤) والثانى طولى (شكل ١٥ — ٥) ، وتحمل سقف كل من الدهليز وصالة المدخل أعمدة مستطيلة كل منها من كتلة واحدة من الحجر الجرانيتى الوردى ؛ تشبه تلك التى فى مبنى الوادى ، وفى كل طرف من طرفى الجزء المستعرض من صالة المدخل حجرة طويلة ضيقة فى داخل قلب البناء . ولما كان الحائط الخلفى فى كل حجرة مكونا من كتلة واحدة من الجرانيت فقد ظن هولشر أنهم نحتوا سطحها على صورة ما يشبه تمثال الملك ، فإذا صح هذا التخمين فإن هذه الحجرات كانت سراديب من نوع ليس له مثيل فى المعابد الجنازية الملكية .

ويقع خلف صالة المدخل الفناء المكشوف الذى كانت جدرانه من الجرانيت الوردى أيضا وأرضيته من المرمر (شكل ١٥ — ٦) ، وعثر فى وسط هذا البناء على أثر بالوعة يوحى بوجود مذبح فى هذا المكان . وكانت هذه البالوعة لازمة لتصريف دماء ما يقدمونه قربانا من الحيوانات والسوائل المختلفة التى تقدم فى الطقوس الدينية ، ولكن من جهة أخرى ربما كانت وظيفة هذه البالوعة قاصرة على تصريف

مياه الأمطار التي قد تتراكم في المعبد . وكانت تماثيل الملك موضوعة على مسافات منتظمة حول جدران الفناء ، وربما كانت في الهيئة التي تختص بها تماثيل الإله أوزيريس ، وكان بين التماثيل أبواب تفضى إلى ممرات قصيرة تصل الفناء بممر يحيط به .

وأمام كل من الأبواب الغربية الخمسة التي كانت أمام الممر نرى كوة عميقة كانت تحوى تمثالا للملك . ولم يتغير عدد التماثيل في أى معبد جنازى بعد ذلك ، ومن المحتمل أن كل تمثال منها كان منقوشا عليه اسم من أسماء الملك الخمسة الرسمية التي انتحلها الملك يوم اعتلائه العرش.

وكان الفناء المكشوف هو الحـــد الذى لا يسمح بعده لأحد ـــ غير الكهنة ـــ بأن يتقدم . وفي أثناء احتفالات المعبد يتحتم على من يكون حاضرا من غير رجال الدين أن يبقى في الفناء ، بينما تتقدم الكهنة عن طريق الممر أمام كوات التماثيل إلى المقدس (شكل١٥-٨) .

وكان الشيء الأساسى للمقدس وجود باب وهمى في الجدار الغربى ، ومذبح منخفض عند قاعدته ، وكان الكهنة يضعون القرابين يوميا على هذا المذبح . ولما كانت روح الأشياء المقدمة هى ذات أهمية للميت وليست صفتها المادية ، فإن بقاء القرابين في أماكنها دون أن يمسها أحد حتى يغيروها لم يكن بالأمر الذى يشغل بال المصريين القدماء . وهناك خمسة مخازن بين المقدس وكوات التماثيل الخمس . وربما كان هذا التوافق في العدد أمراً غير عرضى أو مصادفة . وكذلك

فى البناء ، فقد شاركت المخازن خصائص الكوات فى كونها الأجزاء الوحيدة فى المعبد التى لم تكس أوجهها بالجرانيت وبلطت أرضيتها بالمرمر . واحتوت المخازن على أوان حجرية ومؤنة احتياطية من الطعام ربما احتاجها الملك إذا أهمل الكهنة واجبهم اليومى وهو تجديد القرابين التى تقدم إليه .

ويؤدى منزلق طويل من الركن الشمالى الغربى إلى الممر المحيط بالفناء المكشوف المرتفع الذى يقوم الهرم فوقه . وإن موقع المدخل من موقع المنزلق يجعلنا نعتقد أن الوصول إلى داخل سور الهرم كان مباحا للأشخاص الذين لم يكن مرخصا لهم بالدخول إلى الأجزاء الداخلية من المعبد الجنازى ، ولذلك فعند القيام بالمراسم الجنازية ربما دخل الحفل كله إلى الهرم (شكل ١٥ — ١) بعد أن تتم عملية « فتح الفم » على التماثيل التى فى الكوات . ولا بد أن البنائين والعمال الذين كانوا يقومون بسد وقفل مدخل الهرم كانوا يصلون إلى داخل حرم الهرم عن طريق هذا المنزلق . وقد منع الجدار العالى الذى يحيط بالهرم الوصول إليه عن طريق مباشر آخر .

ووجد بين الهرم والجدار المحيط به رصيف يبلغ عرضه نحو ٣٤ قدما من ناحية الشمال والشرق والغرب ، أما من ناحية الجنوب فيزداد عرضه قليلا حيث أقيم هرم إضافى أمام منتصف هرم الملك تقريبا . وبين المعبد الجنازى وواجهة الهرم الشرقية طريق مرصوف .

ونجد فى داخل أسوار الأهرام الأخرى أن المبنيين متلاصقان ، ولذلك لا توجد مسافة بين الباب الوهمى والهرم . وتفسيرا لهذا الشذوذ عن القاعدة ظن « بورخارت » أنه كان يوجد باب وهمى ثان أقيم فى واجهة الهرم الشرقية ، ولكن لم يوجد أى أثر لهذا الباب أثناء الحفائر .

وأهم المعالم الخارجية المميزة لهرم خفرع هى حجمه ، وذلك الجزء الباقى من كسائه الخارجى الذى ما زال باقياً بالقرب من القمة ، وقد حفظت بعض أجزاء الكسوة أيضاً عند القاعدة . إلا أن الحجر المستعمل يختلف فى المكانين . فالبقية العلوية مكونة من حجر طره الجيرى ، والسفلية من الجرانيت الوردى وهى المادة التى استعملت فقط لكساء المدماك الأسفل . وذكر هيرودوت فى وصفه للهرم أن خفرع استعمل الحجر متعدد الألوان الوارد من إثيوبيا Ethiopia[1] لبناء الجزء السفلى منه ، وربما كان ذلك راجعاً إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الجرانيت لم يكن للكسوة فقط بل إنه استخدم كرصيف بنى عليه الهرم . وربما كان حجر القمة ، الذى اختفى الآن ، مصنوعاً من الجرانيت أيضاً .

ونظراً لتشييد هذا الهرم فوق أرض مرتفعة قليلا ، فإن بعض الناظرين إليه يظنون خطأ أنه أكثر ارتفاعاً من الهرم الأكبر ، ولكن

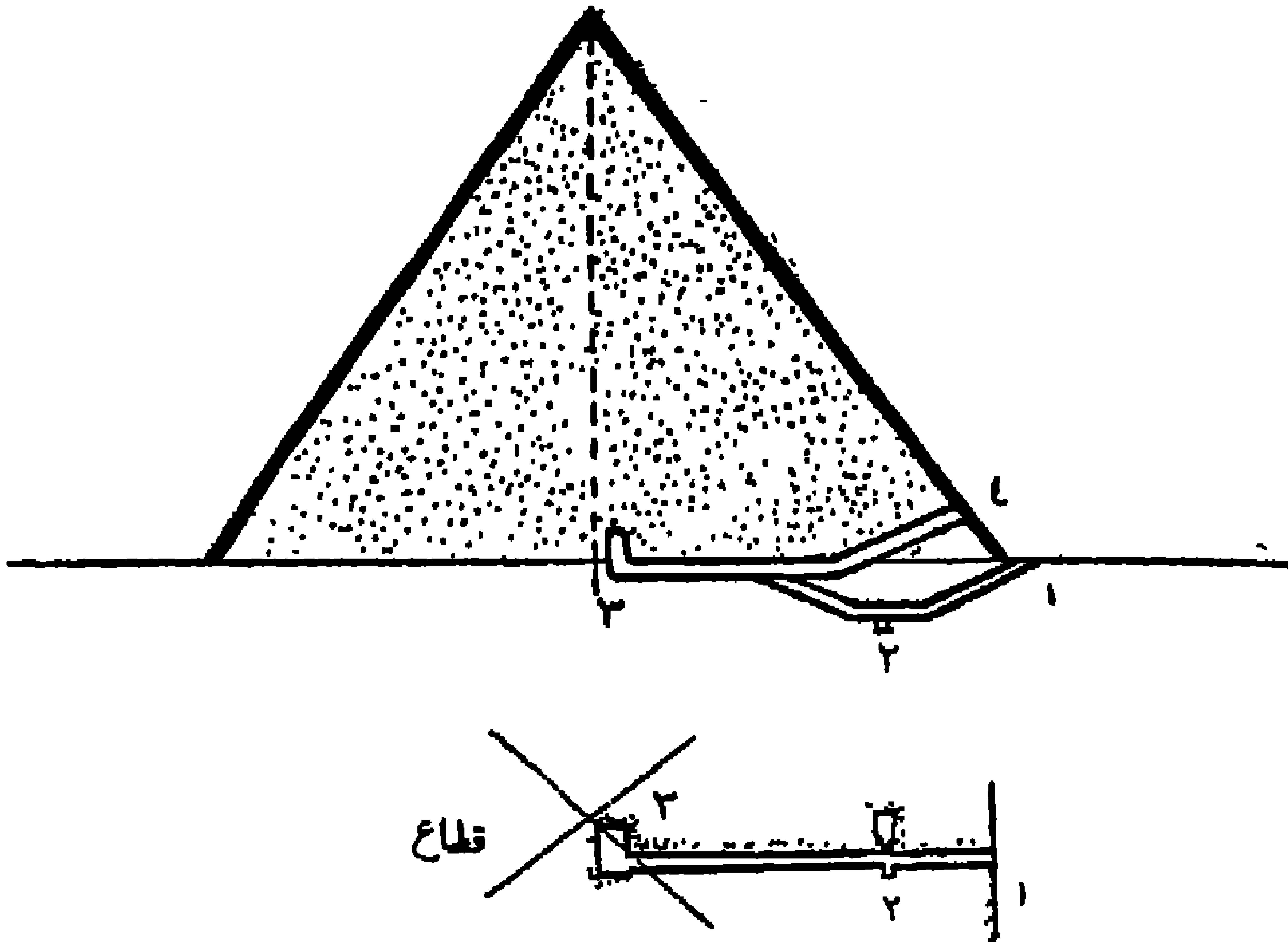
(1) Herodotus, Book II p. 127.

ارتفاعه الحالى ٤٤٧,٥ قدماً أى أنه أقصر من ارتفاع الهرم المجاور بقدمين و نصف قدم . وفى الأصل كان ارتفاعه ٤٧١ قدما ، ولذا كان أقل ارتفاعا من الهرم الأكبر بنحو ١٠ أقدام عند ما كان الأخير أيضاً كاملا . والمساحة التى يشغلها هرم خفرع اليوم تبلغ حوالى ٦٩٠,٥ قدما فى كل ضلع ، وكان يبلغ طول كل ضلع فى الأصل ٧٠٧ ¾ قدم ، لذا فإن أبعاد القاعدة كانت تقل بنحو ٤٨ قدما فى كل اتجاه عنها فى الهرم الأكبر . وترتفع أوجه الهرم بزاوية مقدارها ٢٠َ ٥٢° أى أن زاويته أكبر من زاوية الهرم الأكبر ، وهذه الحقيقة تفسر الفرق البسيط فى الارتفاع بين الهرمين ، إذا قارنا ذلك بالفارق الكبير فى طولى قاعدتيهما .

ولا يكاد هرم خفرع يتشابه فى نظامه الداخلى مع الهرم الأكبر ، فله مدخلان : واحد فى الواجهة الشمالية على ارتفاع يقرب من ٥٠ قدما ، والآخر تحته مباشرة منحوت فى الأساس الصخرى للرصيف المحيط به (شكل ١٦ — ٤ و ١) . ويقع كلا المدخلين على مسافة تبعد بنحو ٤١ قدماً إلى شرق محور الهرم الشمالى — الجنوبى ؛ ومن المدخل العلوى ينحدر ممر منخفض ضيق بزاوية مقدارها ٥٥َ ٢٥° داخل قلب بناء الهرم حتى يخترق الصخر ثم يصبح أفقياً ، ويستمر كذلك حتى حجرة الدفن (شكل ١٦ — ٣) . وقد كسى سقف وجدران وأرضية القسم المنحدر بأكمله وجزء صغير من القسم الأفقى

بأحجار من الجرانيت الوردى ، وبالقرب من نهاية التكسية الجرانيتية نرى شقوقاً رأسية فى الجدران لوضع سقاطة من الجرانيت لا تزال بقاياها المهشمة فى مكانها حتى الآن . أما حجرة الدفن فقد نحتت كلها — ماعدا السقف — فى الصخر ، ويتكون سقفها الهرمى المدبب من كتل من الحجر الجيرى تميل بزاوية مماثلة لزاوية أوجه الهرم . ويبلغ طول الحجرة ٤٦,٥ قدما من الشرق إلى الغرب ، وعرضها ١٦,٥ قدما ، وارتفاعها ٢٢,٥ قدما . وفى جانبها الغربى نرى تابوتا مستطيلا دقيق الصنع من الجرانيت المصقول موضوعا فى أرضية الغرفة إلى مستوى غطائه ، أما الغطاء نفسه فما زال ملقى إلى جانب التابوت مكسوراً إلى قطعتين، وهى الحالة التى وجده عليها فى عام ١٨١٨ جيوڤانى بلزونى (Giovanni Belzoni) أول باحث أوروبى دخل هذا الهرم فى العصر الحديث .

أما جثة خفرع فلم يعثر على أثر منها فى التابوت ، ويسير الممر السفلى (شكل ١٦ — ١) فى بدايته فى اتجاه مشابه للممر العلوى ، إلا أنه منحوت كله فى الصخر ، وبعد سيره بانحدار بدرجة ٤٠َ ٢١° يصبح أفقياً لمسافة قصيرة ، ثم يرتفع ثانية بزاوية كبيرة ليتصل بأرضية القسم الأفقى من الممر العلوى . وفى هذا الممر أيضا سقاطة من الجرانيت ، ولكن الجدران لم تكس بالجرانيت . وفى الجدار الشرقى من القسم الأفقى من الممر نرى دخلة أمامها ممر منحدر يؤدى إلى



شكل ١٦ — هرم خفرع . قطاع فى اتجاه الناحية الغربية ، مع رسم قطاع أفقى

حجرة طولها ٣٤ قدما و٣ بوصات ، وعرضها ١٠ أقدام و٤ بوصات، وارتفاعها ٨ أقدام و٥ بوصات (شكل ١٦ — ٢) . وما من شك فى أن الغرض من هذه الحجرة عند بنائها هو أن يوضع فيها تابوت الملك، ولذا يجب أن نجد تفسيراً للعدول عن ذلك .

إذا فحصنا هذه الحجرة يلفت نظرنا وجود أمرين غير مألوفين ربما ساعدانا على حل الموضوع ، أولهما أن الحجرة قريبة جدا من مدخل الهرم ذاته خارج حدود البناء العلوى للهرم . وفى الأهرام الأخرى المعاصرة نرى حجرة الدفن تقع تقريباً تحت القمة ، والمدخل

فى الواجهة الشمالية . فلو فرضنا أن التصميم الأول للهرم هو أن يكون إلى الشمال من مكانه الحالى بمسافة تقرب من ٢٠٠ قدم ، لأصبح كل من الحجرة والممر فى مكانهما المعتاد . والسبب المحتمل للتغيير فى التصميم هو العثور على أساس صخرى مناسب للطريق الجنازى كان مختفياً تحت الرمال إلى الجنوب من المكان الذى كان قد وقع عليه الاختيار .

وهناك مشكلة أخرى من الصعب أن نجد لها حلا مقبولا . وهى الغرض من الممر المنحدر الذى يصل الأماكن السفلى بالممر العلوى . فالتفسير الوحيد الذى أمكن التفكير فيه هو أنه استعمل لنقل التابوت من الحجرة القديمة إلى الحجرة الجديدة ، ولكن يبدو أن عملية قطع ممر جديد فى الصخر عمل شاق ولا داعى له . إذ كان من الميسور إخراج التابوت من الحجرة القديمة عن طريق ممر المدخل الأسفل ثم إدخاله إلى الحجرة الجديدة من أعلى قبل بناء السقف الهرمى (جمالون) . على أن الحقيقة التى ستظل باقية هى أن الممر قد أعد لغرض من الأغراض ، وأنه بعد تأديته لذلك الغرض سد بكتل من الحجر الجيرى ما زال الكثير منها فى مكانه الأصلى ، وقد سد الممر السفلى بهذه الطريقة سدا محكما حتى إنه لا يمكن دخوله الآن[١]

(١) قامت مصلحة الآثار المصرية فى عام ١٩٤٩ بتنظيف هذا الممر ويمكن دخوله الآن بسهولة . (المعرب)

وإلى الغرب من الهرم . وفى خارج السور ، كان هناك عدد كبير من الأروقة التى حدد سير فلندرز پترى وظيفتها بأنها كانت ثكنات يعيش فيها البناءون والعمال الذين كانوا يعملون فى تشييد المجموعة الهرمية . وقد اختفت الآن هذه الأروقة كلية تحت الرمال ، ولكن پترى — الذى قام بمسح المنطقة بين ١٨٨٠و١٨٨٢ — قرر أن عددها واحد وتسعون رواقا ، يبلغ طول كل منها ٨٨ قدما وعرضه ٩,٥ أقدام وارتفاعه ٧ أقدام[1] . وبنيت جدران هذه الأروقة من أحجار غير منحوتة من الحجر الجيرى ، وكانت مطلوسة بطبقة من الطين . كما غطيت الأرضية بطبقة من نفس المادة . وتقوم دعامات عريضة من الحجر الجيرى بمثابة أطراف الجدران عند المدخل . وسد الطرف الشرقى من كل رواق بجدار واحد يكون زاوية قائمة مع الأروقة ، ويكاد يكون موازيا للجانب الغربى من الهرم .

وإذا أردنا مقارنة هرم خفرع بالأهرام التى بنيت قبله ، فإن هذا الهرم هو أول واحد منها نستطيع أن نتعرف فيه على جميع أجزاء المجموعة الهرمية التى تظهر فيها جميع العناصر المعمارية على أتم صورها . ففى المجموعات الهرمية السابقة ، وبالأخص بمجموعة الهرم الأكبر ، فإن كثيراً من معالمها البارزة لم تكن فى حالة من الحفظ تسمح بمقارنتها ، وبالمثل المعبد الجنازى لهرم ميدوم الذى كان لا يزال فى حالة ابتداء ،

(1) Petrie, The Pyramids and Temples of Gizeh, pp. 101 — 3.

إذا تحدثنا عنه من الناحية المعمارية . أما فى مجموعة هرم خفرع فإن معظم مبنى الوادى سليم ، وأساسات الطريق الجنازى واضحة تماما ، ويبقى من المعبد الجنازى قدر كاف يساعد على تحديد تخطيطه تحديدا تاما . ويحوى كل من هذه المبانى فى تصميمه كل العناصر الأساسية لمجموعات الأهرام التى بنيت بعد ذلك ، مع إدخال بعض التعديلات فى التفاصيل أو عمل تجديدات زخرفية ، ولكن الهيكل الأساسى ظل دون تغيير .

ويقع الهرم الثالث من مجموعة أهرام الجيزة فى الركن الجنوبى من الهضبة (لوحة ١) ، وبالرغم من أن هيرودوت وديودور الصقلى — الذى زار مصر فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد — قد نسباه إلى منكاورع ، إلا أن ذلك لم يتحقق بصفة قاطعة إلا فى عام ١٨٣٧ — ٣٨ عندما وجد الكولونل هوارد فيس اسم منكاورع مكتوبا بالمغرة الحمراء على سقف حجرة الدفن فى ثانى الأهرام الثلاثة الإضافية لمجموعته الهرمية . ثم جاءت الأدلة الأخرى من حفائر بعثة جامعة هارفارد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة التى قامت بحفر المنطقة بين عامى ١٩٠٥ ، ١٩٢٧ تحت إدارة ج . ا . ريزنر .

ولم تلق النصوص المعاصرة أى ضوء على حياة وطباع منكاورع ، ويظهر أن ذكراه بين المصريين فى العصور المتأخرة جدا كانت طيبة ، وكان متصفا بالتقوى والعدل ؛ بينما اعتبروا خوفو وخفرع ملكين شريرين مستبدين .

ويتحدث هيرودوت — الذى ردد تلك الأحاديث المتواردة عن منكاورع — بالعبارات الآتية :«. . . واستنكر هذا الأمير (يعنى منكاورع) أخلاق أبيه ، ففتح المعابد ، وسمح للشعب الذى وصل إلى أحط دركات التعاسة ،بأن يعود كل إلى عمله ، وأن يعودوا إلى تقديم القرابين . فسبق فى عدالته جميع الملوك السابقين ، وامتدحه المصريون بسبب ذلك أكثر من أى ملك آخر من ملوكهم الآخرين ، مجاهرين بأنه لم ينصف فى أحكامه فحسب ، بل إنه عندما كان يرى أحد الناس غير راض بحكمه يعطيه تعويضاً من ماله الخاص لكى يهدئ من سورة غضبه»[1] . ولكن الآلهة كانت قد قررت أن يحكم مصر حكام مستبدون لمدة مائة وخمسين سنة ؛ فبناء على هذه القصة . ولما كان حكم خوفو وخفرع قد دام مائة سنة وستاً ، فقد كان على المصريين أن يتوقعوا أربعا وأربعين سنة من العذاب عندما اعتلى منكاورع عرش البلاد . ولكيلا تغير الآلهة ما حكمت به ، قررت أن يكون حكم منكاورع العادل الرحيم حكما قصيرا ، ولكن مع إنذاره بأن منيته قد قربت . .

وها هى كلمات هيرودوت : « . . . وجاءته نبوءة من مدينة بوتو قائلة له : « ستعيش على الأرض ست سنوات وستنتهى أيامك فى العام السابع » ، وغضب منكاورع وأرسل رسالة ملأى بالغضب إلى النبوءة معلنا فيها عدم عدالة الإلـه قائلا : « إن كلا من أبى وعمى قد أغلقا

(١) ترجمة رولنسن Herodotus, Book II, p. 129 (Rawlinson).

المعابد ، ولم يأبها للآلهة ، وأهلكا جموعا كثيرة من الناس ، ومع ذلك فقد تمتع كل منهما بحياة طويلة . وأنا التقى أموت بعد وقت قليل ! » فوصله الرد من النبوءة فى رسالة ثانية : « ولهذا السبب بالذات تنتهى حياتك سريعا . . فإنك لم تفعل ما كان ينبغى عليك أن تفعله ، فقد قدر على مصر أن تقاسى المحنة مائة وخمسين سنة ، وقد فهم الملكان اللذان سبقاك على العرش ذلك ، بينما لم تفهمه أنت ! » . وعندما وصلت إلى منكاورع هذه الرسالة أحس أن قضاءه أصبح محتوما ، فأمر بتجهيز المصابيح لإيقادها كل يوم عند المساء ، وأقام المآدب ومتع نفسه بدون انقطاع طول الليل والنهار ، متنزها فى الأحراش والغابات ، ومرتحلا إلى الأماكن التى سمع بطيب العيش فيها ، وكانت رغبته إثبات كذب النبوءة بإحالة الليل إلى نهار ، وهكذا عاش ست سنوات كأنها اثنتا عشرة سنة »[١] .

وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن القصة التى اقتبسها هيرودوت مستمدة فى أصلها من حقائق تاريخية ، رغم وجود الدليل على موت منكاورع المفاجئ ، بعد حكم ربما دام ثمانى عشرة سنة ، إذ نرى ذلك فى جميع مبانى مجموعته الهرمية . ولا بد أن منكاورع كان يريد السير على نهج خفرع فى إقامة مبنى الوادى ومعبده الجنازى من الحجر الجيرى المكسى بألواح من الجرانيت المصقول ، وأن يكون طريقه

(١) ترجمة رولنسن . Herodotus, Book II, 133

الجنازى مشيداً من الحجر الجيرى . إلا ان حفائر ريزنر قد أظهرت أن الخطة لم تنفذ ، وأن الجزء الأكبر من العمل قد تم بسرعة بمواد من نوع رخيص ، أو أنها تركت دون إتمام . وبنيت أساسات مبنى الوادى بالحجر فقط ، بينما بنيت كل مبانيه تقريباً بالطوب اللبن . أما الطريق الجنازى فقد كان رصيفاً مكونا من الأحجار بنى عليها ممر من الطوب اللبن المطلوس من الداخل والخارج بالملاط الأبيض ، وكان مسقوفا بكتل من الخشب . وأعدت أساسات المعبد الجنازى والقلب الداخلى لبعض مبانيه من الحجر الجيرى . وقد بدىء فى وضع بلاطات من الجرانيت فى الأرضية ، وكسوا بعض الجدران بالجرانيت ، ولكن الطوب اللبن كان المادة التى عم استخدامها فى إنجاز الجزء الأكبر من البناء .

وهناك عدد من المقابر والآثار التى تركها أصحابها دون أن يتموها وقام بعدهم أبناؤهم أو خلفاؤهم إتمامها ، وعلى هذا يكون أمراً متمشياً مع المنطق إذا قلنا إن الملك شبسسكاف — الذى يعتقد أنه خلف منكاورع على العرش — هو الملك الذى أتم بالطوب اللبن المجموعة الهرمية لسلفه منكاورع . وأحد النصوص التى عثر عليها فى المعبد الجنازى يدل على أن شبسسكاف هو الذى أخذ على عاتقه إتمام المجموعة الهرمية ، إذ يقرر أنه «صنعه (المعبد) كتذكار لوالده ملك الوجه القبلى والبحرى (منكاورع)» .

ولكن كلا من مبنى الوادى والمعبد الجنازى قد رمما وعدل تصميمهما فى عصر متأخر . ونسب ريزنر هذه الإصلاحات وهذه التغييرات إلى الكهنة الذين كانوا قائمين بالخدمة فى المعبد فى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة . وأشار إلى أن عملهم ربما لم يصدر عن شعورهم بالواجب فحسب ، بل بدافع من المصلحة الشخصية . إذ أنهم — ككهنة جنائزيين — كان لهم الحق فى التمتع بإيرادات الوقف السخى الذى أوصى به الملك المتوفى ، فى مقابل خدمته فى المعبد ، وكان لهم أيضاً الحق فى سكنى مدينة الهرم ، وهى عبارة عن مبان مسورة ألصقت بمبنى الوادى ، كان يعفى سكانها من دفع ضرائب معينة. ولكى يضمنوا لأنفسهم هذه الامتيازات أصبح من الواجب عليهم أن يحتفظوا بكيان المبانى سليما ، وأن يفعلوا بعض ما يظهرهم بأنهم قائمون بالطقوس اللازمة فى المعبد . واختلفت الإصلاحات القديمة والجديدة من الناحية المعمارية والترتيب الداخلى عن مبانى خفرع ، ولكن لم تدخل عليها أية تغييرات أساسية فى تكوينها العام .

واكتشف ريزنر أثناء حفائره فى مبنى الوادى وفى المعبد الجنازى عددا كبيرا من التماثيل الكبيرة والصغيرة ، معظمها يمثل الملك إما بمفرده أو كفرد فى مجموعة ، إذ كان من بين ماعثر عليه فى مبنى الوادى بعض مجموعات تماثيل من حجر الإردواز تحوى كل منها ثالوثا مكونا من الإلـهة حاتحور والملك وأحد آلهة الأقاليم (لوحة ٩) . ولا شك

أن منكاورع كان يريد أن يكون لديه اثنتان وأربعون من هذه المجموعات الثلاثية ، تمثله كل منها فى صحبة إله وإلهة من آلهة الأقاليم ، غير أنه لم يعثر إلا على أربع فقط منها وبعض أجزاء أخرى ؛ وربما لم يتم عمل العدد الباقى أبدا .

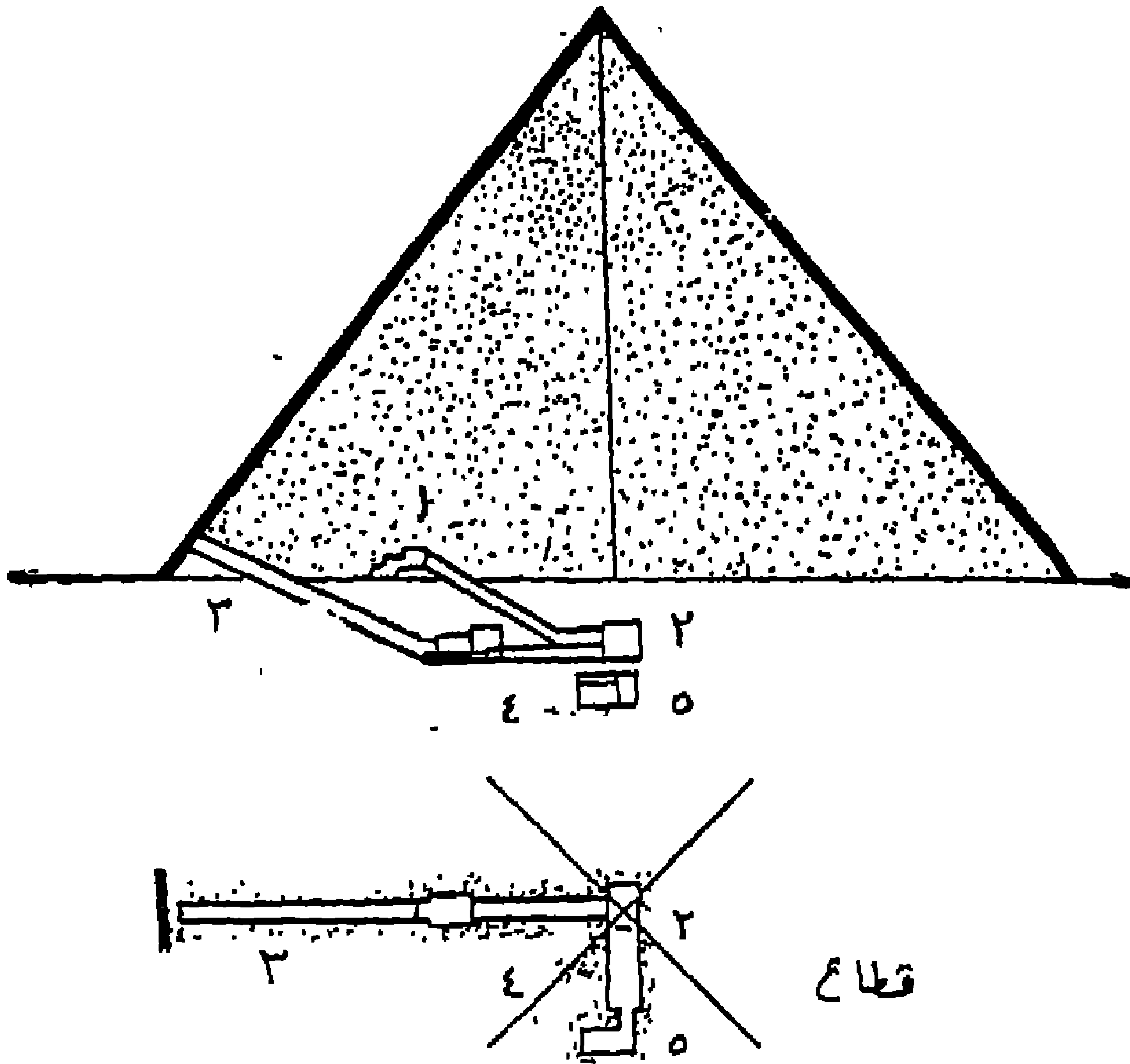
وعثر ريزنر أيضاً على قطع فنية أخرى فى مبنى الوادى . منها تمثال يجمع بين الملك منكاورع والملكة خع — مرر — نبتى الثانية ، (لوحة ١٠) . وهذه التماثيل كلها أعمال فنية ممتازة يمكن مقارنتها بأحسن القطع الفنية التى عرفت من نوعها حتى الآن ، فقد نحتت كلها على أساس الطراز الفنى الطبيعى الذى يميز تماثيل هذه الدولة . وكان من نتيجة ذلك أنها وصلت إلى درجة عالية من العناية بإظهار بعض المميزات الفردية فى كل منها . ففى الأشكال الثمانية التى نرى فيها وجه الملك لا نجد اثنين منها يتشابهان تماما ، ولكن معظمها يبين الوجه بعينين منتفختين قليلا ، وأنف مكسور ، والشفة السفلى مدلاة ؛ ويشبه الوجه فى كثير من مظهره وجه خفرع كما نراه فى تمثاله الشهير المصنوع من الديوريت (لوحة ٨) ولكن عظام الخدين فى الأخير أعلى والوجه أضيق .

وهناك خمسة عشر تمثالا صغيرا لهذا الملك تركت دون إتمام ، ويمكن تفسير ذلك بموت الملك المفاجىء وشح خلفه . ولئن كان ترك هذه التماثيل الصغيرة دون إتمام أمرا يؤسف له دون شك يحرمنا

عما كنا نتوقعه من جمال فنى، إلا أنها بحالتها الراهنة تلقى كثيرا من الضوء على الطريقة الفنية التى كان يستخدمها المثالون المصريون ، ولهذا فهى الآن أهم لنا مما لوكانوا قد أتموا نحتها . وقد قام ريزنر بفحص دقيق لهذه التماثيل ، وتمكن من تمييز ثمانى خطوات فى تطور العمل ، يماثل بعضها الخطوات المختلفة التى نراها فى التماثيل غير التامة فى مناظر صناعة التماثيل فى نقوش جدران المقابر .

ويشغل هرم منكاورع أقل من نصف المساحة التى أقيم عليها الهرم الأكبر . ويبلغ طول كل ضلع فى القاعدة ٣٥٦,٥ قدم ، والارتفاع العمودى له الآن ٢٠٤ أقدام .وكان عند تشييده يزيد أربعة عشر قدما . وكسى الجزء الأعلى منه بالطريقة العادية بأحجار منحوتة من أحجار طره الجيرية . ولكن الستة عشر مدماكا السفلية كانت مكسية بالحجر الجرانيتى الوردى ، وقد ترك بعض منها دون أن يصقل . ومن المرجح أن منكاورع كان يريد كساء الهرم كله بالجرانيت ، ولذا يمكن أن نقول إن تغيير المادة يبين الحد الذى وصل إليه العمل عند وفاته . ومن ناحية أخرى فربما كان الجمع بين الحجر الجيرى والجرانيت عن قصد ، وفى هذه الحالة يكون البرهان الوحيد على موت الملك المفاجئ هو وجود أحجار الجرانيت غير المصقولة عند القاعدة .

أما فى الداخل ، فهناك على الأقل تغيير واحد فى التصميم ، وربما تغييران . فالتصميم الأول يتكون من ممر منحدر من النوع المعتاد



شكل ١٧ — هرم منكاورع . قطاع فى اتجاه الناحية الغربية ، مع رسم قطاع أفقى

(شكل ١٧ — ١) قطعوه فى الصخر ويؤدى إلى حجرة الدفن المستطيلة الشكل ومحورها الأطول من الشرق إلى الغرب . وعندما عدلوا هذا التصميم عمقوا أرضية حجرة الدفن (شكل ١٧ — ٢) ونحتوا ممرا ثانيا تحت الأول (شكل ١٧ — ٣) . ويظهر أن السبب الوحيد لهذا التغيير فى التصميم كان عزمهم على تكبير البناء العلوى للهرم ، وما

يحتمه ذلك من تشييد الممر فى مستوى منخفض ، لـكى يحتفظوا بموقع المدخل فى الواجهة الشمالية الجديدة فى مستوى مرتفع عن سطح الأرض تقريبا ، وقد كسى الممر الجديد من المدخل بالجرانيت إلى النقطة التى يبدأ عندها دخوله فى الصخر . وعند أسفل المنحدر اتسع الجزء الأفقى من امتداد الممر ، وأصبح ردهة زينت جدرانها الصخرية بدخلات وخرجات منحوتة فى الصخر ، ووضعت ثلاث سقطات من الجرانيت فى هذا الممر بين تلك الردهة وبين حجرة الدفن .

ولم يشمل التصميم الثالث والأخير أى تغيير فى المشروع الأول ، بل اقتصر على إضافة حجرتين : أولاهما لوضع الأشياء التى رغب الملك فى أن تـكون قريبة من جثته ، أما الثانية فهى حجرة دفن جديدة . ويمكن الوصول إلى هاتين الحجرتين عن طريق منزلق ينحدر جهة الغرب من وسط أرضية حجرة الدفن الأصلية وينتهى بممر قصير أفقى . أما المخزن الذى يقع على الجانب الأيمن من الممر فيمكن الوصول إليه عن طريق بضع درجات (شكل ١٧ — ٤) ، وهو حجرة مستطيلة فيها أربع حجرات صغيرة عميقة فى الجدار الشرقى واثنتان فى الجدار الشمالى ، والحجرة كلها مقطوعة فى الصخر . وتقع حجرة الدفن الجديدة فى نهاية الممر (شكل ١٧ — ٥) وقد شيدت كل جدرانها وأرضيتها وسقفها من الجرانيت . وقطعوا الجـانب الأسفل من سقفها المدبب على شكل مدور لتشبه بذلك السقف المقبى (الشبيه بالبرميل) .

وقد عثر الكولونل هوارد ڤيس داخل هذه الحجرة على تابوت مستطيل من حجر البازلت زينت أوجهه على شكل دخلات وخرجات. ولسوء الحظ ضاع هذا التابوت الجميل — الذى كان يحوى أصلا جثة منكاورع — عندما غرقت السفينة التى كانت تنقله إلى إنجلترا أمام شاطىء إسبانيا. واكتشف الكولونل ڤيس فى حجرة الدفن الأصلية بعض العظام الآدمية، وغطاء تابوت خشبي على هيئة إنسان (Anthropoid) عليه اسم منكاورع. وهذا الغطاء موجود الآن فى المتحف البريطانى، ولا يمكن أن يكون قد صنع فى عهد منكاورع لأنه على نمط لم يستخدمه المصريون قبل العصر الصاوى.

أما تحديد صاحب العظام فهى مسألة شائكة، لأنه لا يوجد أى برهان على أنها خاصة بذلك الملك. واعتقد «بورخارت» — وهو تحت تأثير تاريخ غطاء التابوت — أن كل التصميم الثالث للهرم كان من عمل المرممين الصاويين، الذين وجدوا عند دخولهم الهرم أن حجرة الدفن العلوية فى حالة فوضى، وأن بقايا الجثة مبعثرة ومعرضة للأنظار. ولكن بعد أن أعلن «بورخارت» وجهة نظره هذه كشفت الحفائر عن مقبرة شبسسكاف وثبت أنها تحتوى على مخزن وحجرة الدفن يشبهان فى طرازهما مثيليهما فى هرم منكاورع.

ومن ذلك لا نرى أى داع للشك فى أن التصميم الثالث يرجع تاريخه إلى عهد منكاورع نفسه. أما ما قام به الصاويون فلم يزد على

وضع الجثة فى تابوت داخلى جديد ، ثم إعادتها إلى تابوتها الأصلى ولم يقوموا بعمل أى تغييرات فى البناء من أى نوع كان .

ويقع إلى جنوب هرم منكاورع صف من ثلاثة أهرام إضافية لم يتم العمل فى أى واحد منها على الأرجح ، ويقع أكبرها فى الطرف الشرقى من هذا الصف ، وكسى جزء منه — مثل الهرم الأصلى — بالجرانيت . ولكن العمل فى الهرمين الثانيين لم يتقدم بعد البناء الحجرى ، إذ أهمل العمل فيهما . وفى الناحية الشرقية من كل هرم بنوا معبدا جنازيا صغيرا من الطوب ، ولذا فمن المحتمل أن يكون شبسسكاف هو الذى بناها بعد موت منكاورع .

ولم يظهر أى دليل على شخصية أصحابها أثناء حفائر ريزنر لهذه الاهرام . ولكن حجم الأول منهما يجعلنا نظن أنه كان للملكة خع — مرر — نبتى الثانية ، وهى الزوجة الملكية الأولى . واكتشف الكولونل فيس فى الهرم الثانى منها تابوتا صغيرا من الجرانيت وبعض العظام الآدمية التى قال إنها كانت لامرأة شابة ، وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون هذا الهرم قبرا لملكة شابة أو أميرة . أما صاحب الهرم الواقع فى أقصى الغرب من هذا الصف فلا يعرف عنه شىء .

وعلاوة على الأهرام الثلاثة الكبيرة فى الجيزة وهرمى سنفرو فى ميدوم ودهشور ، فما زال هناك هرم آخر لملك من ملوك الأسرة الرابعة وبانيه هو « دد ف — رع » الذى حكم بين خوفو وخفرع ،

وقد اختار له مرتفعاً يشرف على الوادى عند أبو رواش على بعد خمسة أميال إلى الشمال من منطقة أهرام الجيزة . ولم يبق من بنائه العلوى إلا النزر اليسير ، ومن المستحيل أن نقدر أبعاده الأصلية أو نجرؤ حتى على القول بأنه تم بناؤه . ويتكون بناؤه السفلى من خندق مكشوف ، ينحدر إلى أسفل نحو قاع بئر عمودية يبلغ عمقها نحو ٣٠ قدما ، وعرضها ٣٠ قدما من الشمال إلى الجنوب ، وطولها ٧٠ قدما من الشرق إلى الغرب .

ومن الغريب أن دد ف — رع اختار العودة إلى تصميم الخندق المكشوف والبئر العمودية الخاصين بالأسرة الثالثة . فى حين أن سلفه خوفو قد نجح فى بناء الأجزاء السفلية من قبره بطريقة تستنفد مجهودا أقل من مجهود عمل خندق . ولكن ربما كان اختلاف نوع الصخر فى الهضبتين هو السبب فى ذلك .

ولا شك أن الاعتبارات الخاصة بطبيعة المنطقة هى التى حددت خط الطريق الجنازى ، الذى بدلا من أن يسير من الشرق إلى الغرب نراه يتصل بالمعبد الجنازى من الشمال ، وذلك لأنه باتباع هذا الخط أمكن استخدام إحدى الهضبات الصخرية ، وبذلك قلت كمية البناء اللازمة للعلو به إلى المستوى المطلوب .وقدر پترى — الذى قام بدراسة هذا الطريق الجنازى — أن طوله كان حوالى ميل وارتفاعه فى بعض المواقع ٤٠ قدما . ولا يظهر الآن أى أثر لمبنى الوادى ، ولكن قدراً

كافياً من المعبد الجنازى ما زال قائما كالمعتاد أمام الواجهة الشرقية للهرم ويكفى لاستخلاص رسمه التخطيطى . وبنيت جدرانه من الطوب اللبن ، مما يرجح أن هذا المبنى شيد بسرعة بعد موت صاحبه . وتقع إلى جنوب هذا المبنى مباشرة حفرة عميقة ينبئ شكلها أنها حوت يوما مركبا من مراكب الطقوس الدينية .

ولم يبين شبسسكاف، الذى أكمل مجموعة منكاورع الهرمية ، لنفسه هرماً . وقد قام مرييت فى عام ١٨٥٨ بفحص قبره فى سقارة ، ولكنه قال خطأ إن صاحبه هو الفرعون أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة ، ثم قال بعد ذلك إنه قبر أتى (Aty) خليفة أوناس .

وفى عام ١٩٢٤ قامت مصلحة الآثار المصرية بعمل حفائر فى المنطقة تحت إدارة جوستاف چيكييه (Gustave Jequier) فتوصل إلى معرفة صاحبه الحقيق ،ويعرف هذا القبر باسم « مصطبة فرعون »؛ وقد شيد على شكل تابوت ضخم مستطيل فوق رصيف واطئ على الأرجح . وتميل جوانب هذا التابوت إلى الداخل بدرجة تبلغ حوالى ٦٥° ، وترتفع نهايته المربعة فوق مستوى سطح سقفه المقبى . ولم يبق منه الآن إلا قلب البناء المبنى بالحجر المحلى ، ولكنه كان فى الأصل مكسيا بأحجار طرة الجيرية ، وعملت له « وزرة » من الجرانيت . وأقيم فى الجانب الشرقى منه معبد جنازى صغير ، يخرج من ركنه الجنوبى الشرقى طريق جنازى طويل بنيت جدرانه بالطوب اللبن ويتجه إلى أسفل ويصل إلى مبنى الوادى .

وبنت ملكة تسمى خنت كاوس — التى ربما كانت زوجة لشبسسكاف — فى المساحة الواقعة بين الطريقين الجنازيين لخفرع ومنكاورع قبرا يشبه تماما مصطبة فرعون . وظن فى وقت ما أنه هرم لم يتم ، ولكن الحفائر الحديثة التى قام بها الأستاذ سليم حسن على نفقة جامعة القاهرة أثبتت أن بناءه العلوى كان على شكل تابوت فوق قاعدة مربعة عالية . ونحت معبده الجنازى — الذى يتكون من ثلاث حجرات فقط — فى قلب صخرة القاعدة ، أى أنه ليس بناء منفصلا . ويجرى الطريق الجنازى أولا نحو الشرق ، ثم ينحرف بزاوية قائمة تماما نحو الجنوب ، وينتهى عند مبنى الوادى الذى يمتد حتى يصل إلى نهاية طول مبنى الوادى الخاص بمنكاورع .

وإذا ألقينا نظرة عامة على أهرام الأسرة الرابعة نجد أنها امتازت دون شك بالميل إلى الضخامة فى البناء ، وقدر ريزنر أن بعض الكتل من الأحجار المحلية المبنية فى جدران معبد منكاورع الجنازى تزن أكثر من ٢٢٠ طنا ، فى حين أن بعض كتل الجرانيت التى جاءوا بها من أسوان — أى من مسافة تبعد ٥٠٠ ميلا — يزيد عن ٣٠ طنا . ولاستخدام مثل هذه الكتل الهائلة فائدتان رئيسيتان ، أولاهما الحصول على متانة أكثر ، وثانيتهما تقليل عدد اللحامات فى المبانى .

وما كان فى استطاعة خوفو — الذى ربما كان مجنونا بحب العظمة — أثناء حكم دام نحو ٢٣ سنة أن يقيم بناء فى حجم ومتانة

الهرم الأكبر ، لو لم يكن بناؤوه قد بلغوا قدرا عظيما من التقدم الفنى أعانهم فى معالجة رفع الأحجار المفرطة فى ثقل الوزن وعظم الحجم ، وليس أدل على إتقانهم الكامل لهذا الفن من ملاحظة پترى بأن سمك اللحامات فى كسوة الهرم الأكبر واحد على خمسين من البوصة .

وإلى جانب إتقانهم الكامل لفن رفع كتل الأحجار الثقيلة فقد أتقنوا أيضا فن قطع ونحت الأحجار الصلبة . فمنذ وقت مبكر ، يرجع إلى الأسرة الأولى، استخدموا الجرانيت فى تبليط حجرة ، بينما بنيت حجرات الدفن الصغيرة فى هرم زوسر المدرج وفى المصطبة الجنوبية كلها من هذه المادة ، ولكنهم لم يبنوا إلا فى الأسرة الرابعة فقط مبانى فى حجم مبنى الوادى أو معبد خفرع الجنازى يكسونها كلها بالجرانيت . واستخدموا حجر البازلت أيضا من حين لآخر قبل الأسرة الرابعة بمدة طويلة ، ولكنهم لم يستخدموه بالكمية التى نراها فى تبليط أرضية معبد خوفو الجنازى أو تابوت منكاورع المفقود .

وقد كان من رأى پترى أنه كان لأحد الأهرام الإضافية للهرم الأكبر حواجز من البازلت تمتد أسفل كل ركن ، لتحول دون ما يتعرض له من التهدم أو التأثيرات الجوية .

وتقدم صنع التماثيل أثناء الأسرة الرابعة تقدما محسوسا فى الكم والقيمة ؛ وحسب ريزنر — بعد أن فحص كل أجزاء التماثيل المكتشفة

فى مبنى الوادى ومعبد خفرع الجنازى — أن مجموعة الهرم الثانى وحدها كانت تحتوى بين مائة تمثال ومائتين .وربما صنع عدد مماثل من التماثيل للهرم الأكبر وهرم منكاورع ، وبذا يصل المجموع الإجمالى للتماثيل فى المجموعات الهرمية الثلاث إلى عدد لا ينقص إلا قليلا عن خمسمائة تمثال . وقد ظهر الأثر الكامل لهذه النهضة الفنية فى صنع التماثيل التى شجعها أولئك الملوك ، عند ما جاءت الأسرتان التاليتان واحتوت كل مقبرة خاصة فى الجيزة وسقارة على تمثال لصاحبها . وتثبت تلك التماثيل القليلة نسبيا التى عثر عليها فى مجموعات الأهرام الثلاث فى الجيزة ، أن المصريين كانوا قد وصلوا إلى إظهار الملامح كما كانت فى وجوه أصحابها أكثر من أى تماثيل صنعت فيما سبق ذلك من عصور .

ومما يستلفت النظر كثرة إنتاج التماثيل وعدم وجود أى أثر للنقوش فى المجموعات الهرمية الخاصة بالأسرة الرابعة ؛ والأمثلة الوحيدة لتلك النقوش هى التى كشفت عنها الحفائر فى معبد خوفو الجنازى وفى هيكل الهرم الثانى من أهرامه الجانبية ، ولكنه قد عثر على أحجار منقوشة من معابد خوفو وخفرع فى مبان من الدولة الوسطى فى اللشت كانوا قد أخذوها من الجيزة . وتبين كل هذه النقوش أن فن نحت الأحجار بالنقوش البارزة — التى نرى

أمثلة منها فى ممرات الهرم المـــدرج والمصطبة الجنوبيـة — لم يندثر أثناء الأسرة الرابعة ، وما لم يخبىء لنا المستقبل بعض اكتشافات غير منتظرة فيجب أن نقرر أنها لم تـكن مستعملة على نطاق واسع[١] .

(١) اكتشف الدكتور أحمد فخرى فى مبنى الوادى لهرم سنفرو بدهشور كثيراً من النقوش التى كانت تغطى مساحات كبيرة من جدرانه وأعمدته ، وهى غاية فى الإتقان والجمال الفنى والأهمية . (المعرب)

الفصل الخامس

أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة

وبالرغم من افتقارنا إلى وجود وثائق تاريخية فإن فى إمكاننا التكهن بطبيعة الحوادث السياسية التى أحاطت بنهاية الأسرة الرابعة من عدد من المعلومات غير المباشرة ، فقد أفصح خلفاء خوفو الثلاثة (ددفرع وخفرع ومنكاورع) عن اعترافهم بإلـه الشمس رع بوجوده فى تكوين أسمائهم . وهناك أيضا بعض القرائن على أن خفرع ومنكاورع اتخذا اللقب « ابن رع » ، وهو لقب ملكى أخذ يظهر فى أسماء الفراعنة ابتداء من الأسرة الخامسة . ولهذا فمن المعقول أن نستنتج من ذلك أن عبادة الشمس كانت قائمة فى عهد هؤلاء الملوك ، وأنها حلت محل عبادة أتوم التى كانت أقدم منها فى هليوپوليس . ولكن عند نهاية الأسرة الرابعة نرى أن شبسسكاف لم يخالف من سبقوه فى اختيار طراز مدفنه فحسب ، بل إنه — حسب ما وصلت إليه معلوماتنا — لم يتبع ما كانوا يسيرون عليه من اعترافهم الصريح بصلتهم بالإلـه رع فى أسمائهم وألقابهم . وسواء أكان منقاداً فى ذلك بدوافع دينية أو ضرورة سياسية فإن هذا لا يمكن أن يقلل من الحقيقة الواقعة . ولكن نظراً لما نعرفه عن المصريين فى جميع العصور من حذر ومحافظة فى

الأمور التى تتعلق بالدين والحياة فى العالم الآخر ، نجد من الصعب أن نعتقد أن شبسسكاف قد أدخل مثل هذه التغييرات الأساسية إذا هو لم يفكر فى أن قوة كهنة رع المطرودة تهدد تهديداً مباشراً سلطة واستقلال العرش . وفشل نضال شبسسكاف — الذى كان فى أغلب الظن سلبيا ولم تصحبه عداوات مريرة — فى إحراز أى نجاح دائم ، لأنه بعد وفاته ، بعد حكم دام أقل من أربع سنوات ، اعتلى العرش طائفة من الملوك الذين رفعوا من شأن عبادة الشمس وجعلوها دين الدولة الرسمى .

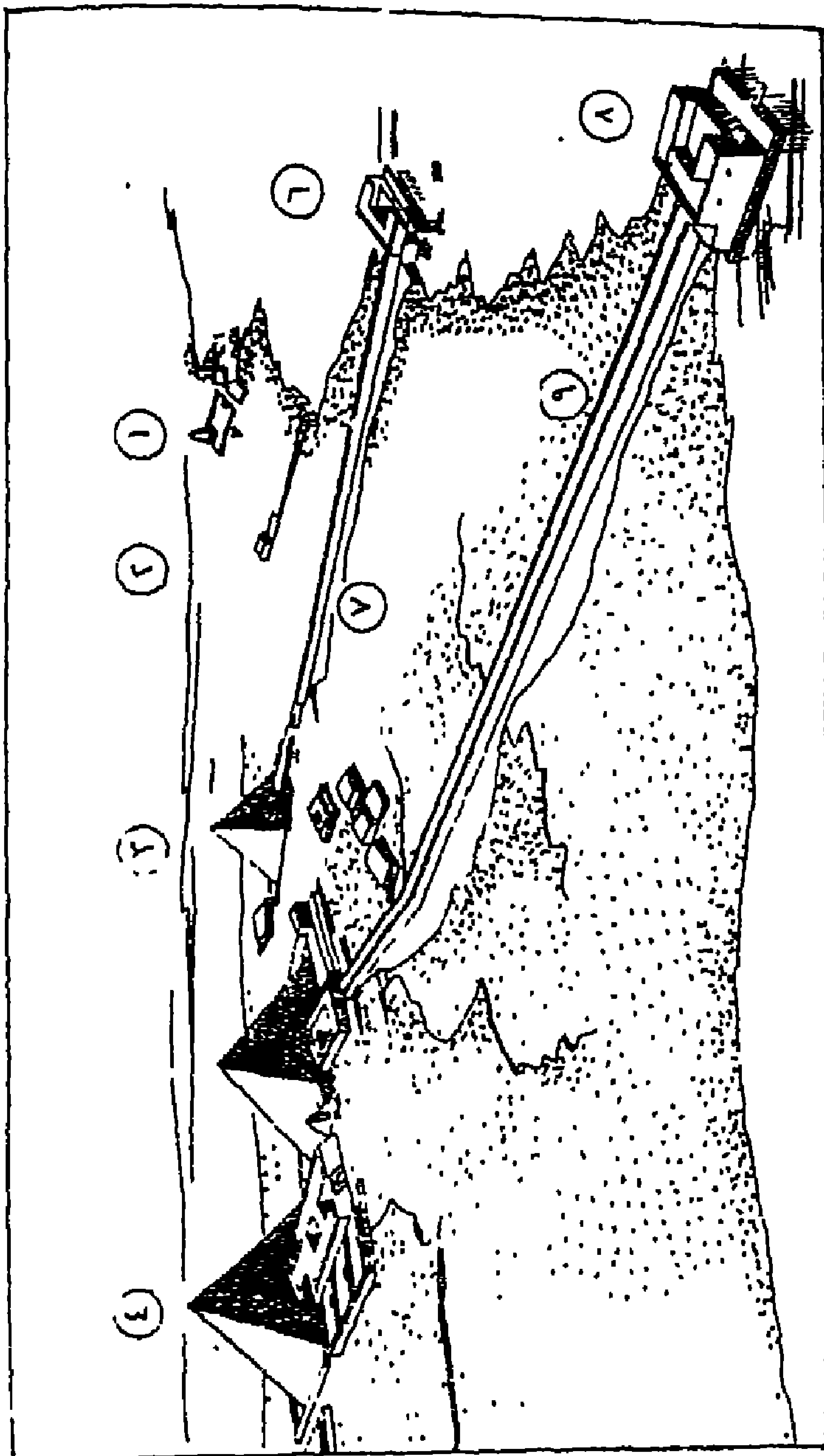
وحفظت لنا بردية فى متحف برلين تسمى « بردية وستكار » أسطورة عن أصل الأسرة الخامسة ربما كان فيها شىء من أصل الحقيقة . وتاريخ البردية نفسها يرجع على الأرجح إلى عصر الفترة الثانية . ولكنها كانت بكل تأكيد نسخة من مخطوط أقدم منها . وبناء على هذه الأسطورة كان الملوك الثلاثة الأول لهذه الأسرة — أوسركاف وساحورع ونفراركارع — توائم ثلاثة للإله رع ولدتهم زوجة كاهن من كهنة رع . وربما كان أوسركاف من عائلة كهنة ووصل إلى منصب الكاهن الأعظم فى هليوپوليس قبل اعتلائه العرش .

أما أمه نفرحتپس Neferhetepes فيرجح أنها كانت بنتا لددفرع ، ومن المرجح أيضاً أن ساحورع ونفراركارع كانا أخوين من أبناء

شبسسكاف وختتى — كاوس ، ولكنهما لم يحاولا أن يعيدا ما بدأه أبوهما من خروج على الدين .

وبنى كل من هؤلاء الملوك الثلاثة وثلاثة من خلفائهم معابد خاصة للشمس تمجيداً لرع . وقد ذكرت الكتابات المعاصرة ستة معابد ، ولكن لم يعثر إلا على معبدى نى — أوسر — رع وأوسركاف (شكل ١٨ - ١ و ٢) ، والمعبد الأول فى حالة حسنة جداً إذا قورن بالآخر ، وهو مشيد بالحجر وتم حفره فى الأعوام ١٨٩٨ — ١٩٠١ بمعرفة لودويج بورخارت وهاينريش شيفر (Heinrich Schaefer) على نفقة البارون فون بيسينج (Baron von Bissing) وجمعية الشرق الألمانية (Deutsch Orient - Gesellschaft) (شكل ١٩) ، وقد أقيم على قمة تل منخفض يقع على حافة الصحراء فى أبو غراب ، على مسافة ميل تقريبا إلى الشمال من بلدة أبو صير حيث بنى أوسر رع هرمه .

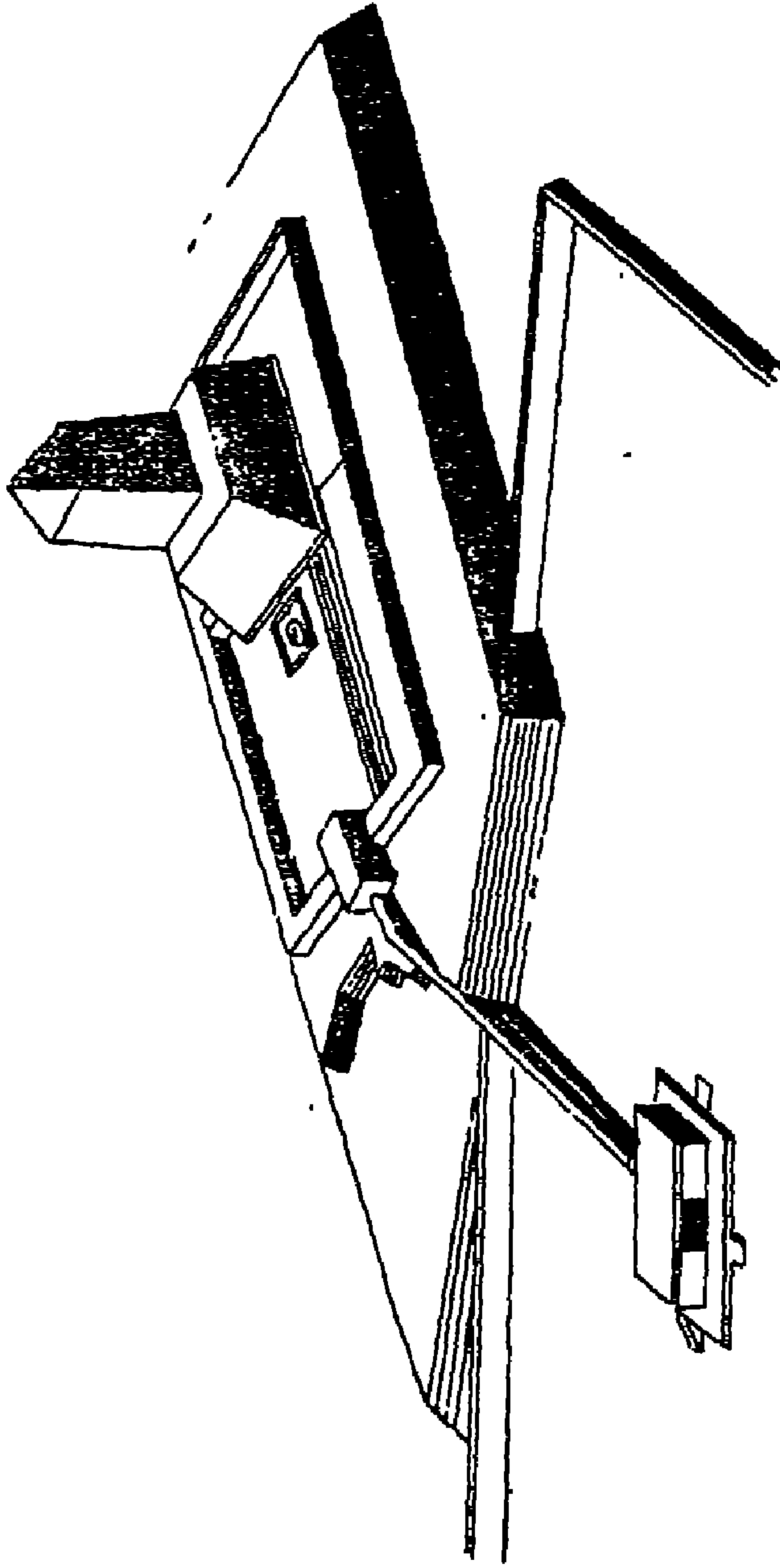
ويبدأ الطريق الجنازى من مبنى صغير (مبنى الوادى) أقيم داخل مساحة كبيرة مسورة ، وبنوا فوق هذا الطريق ممراً مسقوفا يصل إلى أعلى التل . وعند الطرف العلوى من الطريق الجنازى ما زالت توجد بقايا فناء مبلط طوله ٣٣٠ قدما وعرضه ٢٥٠ قدما . ومن أهم ما فيه قاعدة مستطيلة فوقها مسلة غير مرتفعة ، وهى الرمز المقدس لإله الشمس . وعند أسفل القاعدة يقوم مذبح منخفض لتقديم القرابين مكون من خمس كتل من المرمر . وحفرت بالوعات فى البلاط لتصريف دم



شكل ١٨ — أهرام أبو صير ، رسم تصوري لما كانت عليه عند تشييدها

الحيوانات المقدمة قرابين على المذبح إلى تسعة أحواض كبيرة من المرمر . وفى الجانب الشمالى من الفناء يوجد مكان مسور لتقديم القرابين وعدد من المخازن ، وفى خارج الفناء وفى الجهة الجنوبية منه نرى إلى ناحية الجنوب أساسات من الطوب اللبن لحفرة كانت تحوى نموذجا للمركب التى كان يستخدمها إلـٰه الشمس فى رحلته اليومية عبر السماء .

وكانت المعابد والمبانى الجنازية فى الأسرة الخامسة مليئة بنقوش ملونة على الجدران على أعظم جانب من الأهمية والقيمة الفنية . وفى المعبد الشمسى للملك نى — أوسر — رع نجد نقوشا بارزة ، نقلت الآن إلى المتحف المصرى ومتحف برلين ، وكانت فى ممر الطريق الجنازى ثم حول الجانبين الشرقى والجنوبى من الفناء ، وفى الهيكل الذى يقع بين نهاية الممر والمسلة . وتمثل هذه النقوش مواضيع مختلفة ومتنوعة، ففيها كثير من النباتات والحيوانات التى خلقها إلـٰه الشمس ، وفيها أيضا مناظر الاحتفالات المتصلة بتأسيس المعبد واحتفالات الحب سد للملك . ويدل وجود مناظر الحب سد على أن هذا المعبد لم يبن إلا بعد عدة سنين — ربما ثلاثين سنة — بعد اعتلاء الملك للعرش . وليس من المعقول أن يكون نى — أوسر — رع قد تباطأ فى بناء معبد الشمس حتى ذلك الوقت المتأخر من حياته ، ولهذا فربما



شكل ١٩ — معبد الشمس للملك نى . أوسر . رع

يكون المبنى الحجرى قد بنى بدلا من معبد سابق من الطوب اللبن ، وأقامه لأجل استخدامه فى حفلات الحب سد .

وقد عاد ملوك الأسرة الخامسة إلى عادة بناء الأهرام التى نبذها شبسسكاف ، إلا أن حجم هذه الأهرام ومراعاة الإتقان فى تشييدها يقلان كثيراً عما كان فى أهرام أسلافهم ، لأن قلب الهرم مبنى بأحجار صغيرة ثم كسوه بأحجار طره الجيرية . ونظراً لرداءة بنائها فقد حل الخراب بأهرام هذه الحقبة وتأثرت تأثراً بالغا ، بل إن بعضها تقلص إلى كومة من الرمل والرديم .

وبنى أوسركاف هرمه فى سقارة على مقربة من الركن الشمالى الشرقى لسور الهرم المدرج ، ومن المحتمل أن قبر زوسر أصبح له تقديس خاص ، وربما اعتقدوا أن الدفن فى حرمه يضفى عليهم منافع خاصة. وهذا يفسر لنا اختيار أوسركاف لمنطقة تبدو من وجوه عدة غير لائقة لإقامة هرم عليها .

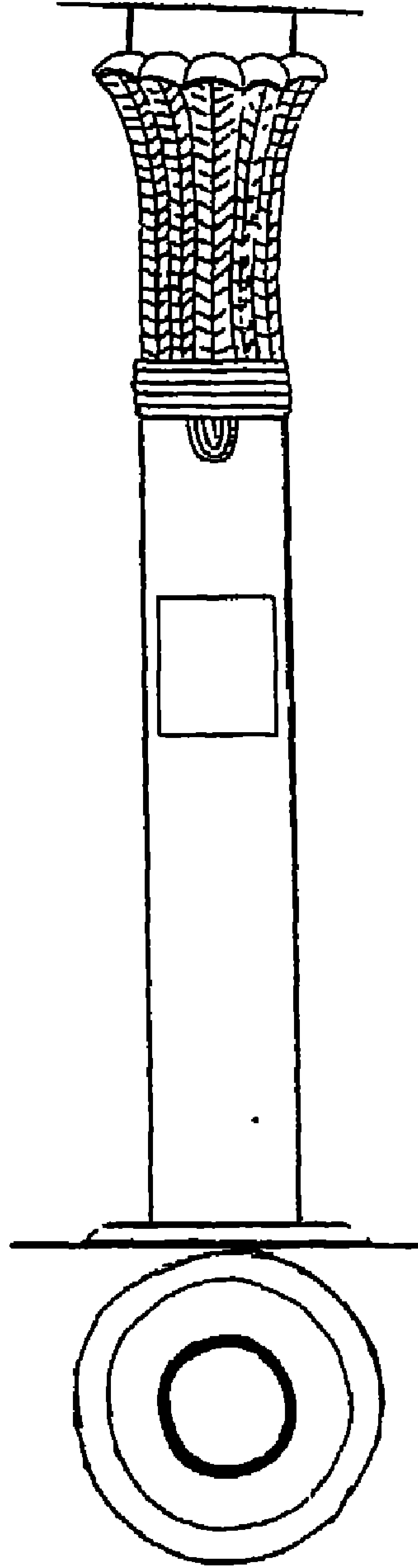
فإلى الشرق مباشرة ، حيث يقام المعبد الجنازى عادة ، ترتفع الأرض ارتفاعا كبيرا ، ولهذا لم يشيد إلا هيكل صغير فى الناحية الشرقية من الهرم ، وأقام المعبد الجنازى فى الناحية الجنوبية مخالفا بذلك القاعدة العامة . وقد أثبتت الحفائر التى قام بها س . م . فيرث لحساب مصلحة الآثار المصرية عام ١٩٢٨ — ٢٩ أن هذا المعبد تخرب فى العصور القديمة ، واستخدموا موقعه فى العصر الصاوى

لبناء المقابر ، فشيدوا مبانيها العلوية من أحجار معبد أوسر كاف ومن الأهرام المجاورة . وكان تخريب المعبد كاملا ، حتى أن كثيرا من تفاصيل رسمه التخطيطى — التى كانت غير عادية على ما يظهر — لا يمكن معرفتها الآن على وجه اليقين . وعثر الحفارون وسط الخرائب على أجزاء من مناظر نقشت بعناية نقشا بارزا ، تمثل الملك أمام الآلهة ، وفيها بعض مناظر من رحلات لصيد الطيور فى أحراش الدلتا . واكتشفوا أيضا رأس تمثال ضخم من الجرانيت الوردى للملك ، ولهذا الرأس أهمية خاصة لأنه الرأس الملكى الوحيد فى الأسرة الخامسة ، وأقدم الأمثلة فى التماثيل المصرية ، باستثناء تمثال أبى الهول ، التى تزيد على الحجم الطبيعى .

واختار ساحو رع ونفر اركا رع ، ونى أوسر رع لأهرامهم هضبة على حافة الصحراء بالقرب من أبو صير (شكل ١٨ — ٣ و ٤ و ٥) ، وبينما تتفق مجموعتا هرمى ساحو رع ونى — أوسر — رع فى نظامهما مع القواعد المتبعة ، نراهما يفوقان فى فخامتهما الفنية كل ما بنى قبلهما . وقد قدر لودويج بورخارت الذى كشف عن هذه المجموعات الهرمية لحساب جمعية الشرق الألمانية بين أعوام ١٩٠٢ — ١٩٠٨ أن مساحة سطح الجدران المغطاة بالنقوش البارزة فى مجموعة ساحورع الهرمية وحدها بلغت نحو ١٠,٠٠٠ متر مربع . ولكن من سوء الحظ كان سكان المنطقة قد اكتشفوا أن حجر طره الجيرى المنقوش يخرج أحسن أنواع الجير :

وكانت نتيجة ذلك أنه لم يبق من المساحة الأصلية إلا حوالى ١٥٠ مترا مربعا نجت من أولئك المخربين وكانت مكسرة إلى قطع صغيرة لا حصر لها . وكان تخريب مجموعة فى أوسر رع الهرمية أكثر مما حدث لمجموعة ساحورع . أما مجموعة نفراركارع الهرمية فمن المحتمل أن العمل لم يكن قد انتهى فيها وأوقفوه قبل تنفيذ كثير من النقوش التى كانوا يزمعون القيام بها .

وكان لمبنى الوادى فى معبد ساحورع مرفآن ، أحدهما يواجه الشرق والآخر يواجه الجنوب (شكل ١٨ — ٦ ، شكل ٢١ — ١ و ٢) . وكان هناك منزلقان متصلان بالمرفأين إما بقناة أو بالنيل الذى كان فى أيام فيضانه السنوى يمتد إلى ماوراء مجراه العادى . وفى داخل الواجهة الشرقية من البناء شرفة مقامة فوق أعمدة . بلاط أرضيتها من البازلت الأسود المصقول ، وسقفها من الحجر الجيرى المدهون بالأزرق ليحاكى السماء ومزين بنجوم ملونة بلون الذهب ، وكل عمود من الأعمدة الثمانية يتكون من قطعة واحدة من الجرانيت . أما الجدران فكانت من الحجر الجيرى المزين بالنقوش البارزة ولكن إفريزها الأسفل كان من الجرانيت . أما طراز الأعمدة فكان محاكاة لأشجار النخيل وقد ربط جريدها فى حزمة مكونة تاج العمود (شكل ٢٠) . وعلى كل عمود ، داخل إطار مستطيل ، وضعوا اسم الملك وألقابه بالهيروغليفية وملأوها بمعجون ذى لون أخضر . وشيدوا شرفة



شكل ٢٠ — عمود من الطراز النخيلى

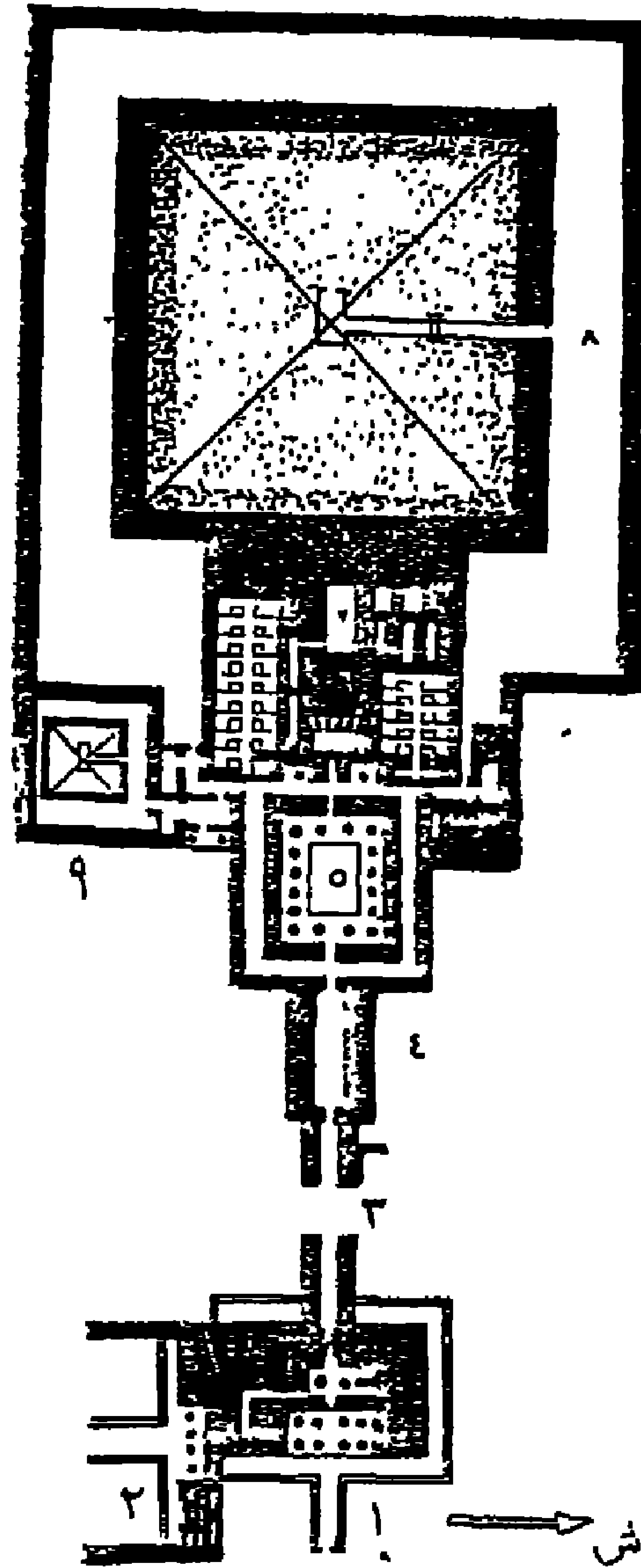
أخرى فى الواجهة الجنوبية للبناء ، وهى أقل فى اتساعها من الشرفة الشرقية، وأرضيتها من الحجر الجيرى وأعمدتها أسطوانية، وليس عليها أى نوع من التيجان . وكانت كل من الشرفتين تتصل ببهو على شكل حرف T ، وهذا البهو هو القاعة الوحيدة فى هذا المبنى . وكان الملك يمثل فى النقوش التى فى هذا البهو إما على صورة أبى الهول أو بشكل أسد له رأس طائر يطأ تحت قدميه آسيويين أو ليبيين أحضرهم الإله له أسرى مكبلين، ويتكرر هذا المنظر — ربما مع اختلافات بسيطة — على الجدران الداخلية للطريق الجنازى فى نهايته السفلى (شكل ١٨ — ٧ وشكل ٢١ — ٣) .

واحتوى معبد ساحورع الجنازى على العناصر الأساسية الخمسة فى معبد خفرع ، وهى : بهو المدخل ، والفناء المكشوف ، وخمس كوات للتماثيل ، والمخازن ، والمقدس . وبهو المدخل (شكل ٢١ — ٤) مخرب تخريبا تاما إلى درجة تجعلنا عاجزين عن معرفة أى شىء عنه على وجه التأكيد ، ولكن أرضيته كانت من الحجر الجيرى وجدرانه من الحجر نفسه تغطيها نقوش بارزة ملونة ، وكان الإفريز الأسفل من تلك الجدران من الجرانيت . وبلط الفناء المكشوف (شكل ٢١ — ٥) بالبازلت المصقول ، وإذا استثنينا مذبحا من المرمر فى الركن الشمالى الغربى فقد كان هذا الفناء خاليا خلوا تاما ، وأحيطت جوانبه الأربعة برواق يشبه فى مبناه الشرفة الشرقية فى مبنى الوادى ، فيما عدا

سقفه المزين بالنجوم فقد كان محمولا على صف واحد من الأعمدة النخيلية الطراز . وكانت جدران هذا الرواق مغطاة بنقوش تمثل الملك ينتصر على أعدائه ، فالذين على الجانب الشمالى أسيويون ، والذين على الجانب الجنوبى ليبيون . وعلى أحد هذه النقوش ، التى عثر عليها فى الركن الجنوبى الغربى، نرى ساحورع وهو يقتل زعيما ليبيا أسيراً. كما نرى اثنين من أبناء هذا الزعيم وامرأة — ربما كانت زوجته أو ابنته — يقفون متضرعين ؛ وهناك أسرى ليبيون آخرون — بعضهم من النساء والأطفال — يتضرعون مثلهم . ونرى فى أماكن أخرى مبعثرة مناظر لحيوانات حية أخذت كغنيمة ، ذكروا عددها فى الكتابات المجاورة فمثلا ١٢٣٫٤٤٠ رأسا من الماشية ، ٢٢٣٫٤٠٠ حمار ، و٢٣٢٫٤١٣ غزالا، و ٢٤٣٫٦٨٨ من الغنم ؛ ولكنهم لم يرسموا ذلك العدد الهائل من الحيوانات بل رمزوا لها بعدد قليل من كل منها.

وهناك مناظر أخرى مشابهة يبلغ عددها أحد عشر منظرا عثر عليها على بقايا مبانى هذا الرواق ولكنها محطمة إلى درجة لا يمكن معها إعادة تركيبها أو فهم تفاصيلها .

وهناك ممر عريض يحيط بالفناء وهو مبلط أيضاً بالبازلت ومزين بالنقوش . وأمكن بدراسة الأجزاء الباقية من نقوش هذا الممر التأكد من أنها تختلف كثيراً فى طبيعتها عن تلك التى فى الفناء أو الطريق الجنازى . فكان على الجانب الشمالى منه مناظر تمثل الملك وهو



شكل ٢١ — المجموعة الهرمية لساحورع

يطعن بحربته سمكة كبيرة ، أو تمثله وهو يصطاد الطيور بعصا الرماية.

وعلى الجانب الجنوبى نقوش يبلغ طولها ٣٠ قدما تقريبا تمثل الملك وهو يصيد الحيوانات ، ويقف وراءه خليفته على العرش نفر اركارع وعدد من حاشيته وأمامه مجموعة من الآرام والغزلان والأيائل وحيوانات أخرى ذات قرون ، يسوقها رجال يضربونها لتدخل إلى أرض متسعة مسورة حيث يرميها الملك بسهام من قوسه ، وتمسك كلاب الصيد بعضا من الحيوانات المجروحة من نحورها لإحضارها للصيادين . ونرى هنا وهناك شيئاً من التنويع فى المناظر ببعض أشياء مسلية، كتصوير فأر الغيط (اليربوع) والقنفذ وهما يختفيان فى جحريهما أوالضبع وهو يحاول أخذ رثم جريح ليلتهم جزءامنه. ويرجع الفضل فى حفظ هذه التحفة الممتازة من النقش الفنى إلى محض الصدفة ، إذ تحول هذا الجزء من الممر فى العصور المتأخرة فأصبح هيكلا للإلـٰهة سخمت إلـهة النار .

ومن أهم النقوش فى المعبد كله تلك التى كانت على الجدار الشرقى للممر الغربى . فإلى يسار الباب الذى نغادره من الفناء المكشوف كان يقف الملك بصحبة رجال بلاطه وهم يشاهدون رحيل اثنتى عشرة سفينة بحرية ذاهبة إلى أرض غير معينة ، ربما فلسطين أو سوريا . ويقابل تلك المناظر فى الناحية الجنوبية للباب منظر الملك مع حاشيته يشاهدون

وصول السفن وقد عادت محملة ومعها عدد من الآسيويين . ونحن لانعرف إن كانت هذه السفن قد خرجت فى مهمة حربية أولغرض تجارى . ولهذا ربما كانت حمولتهاجزية أو بضائع تجارية ، ولانعرف أيضاً إن كان الآسيويون أسرى حرب أو عبيداً اشتروهم . وقد استورد المصريون الخشب من سوريا فى عهد سنفرو ، ولهذالايمكننا أن نعتبر هذه الحملة شيئاً جديداً استحدثه ساحورع .

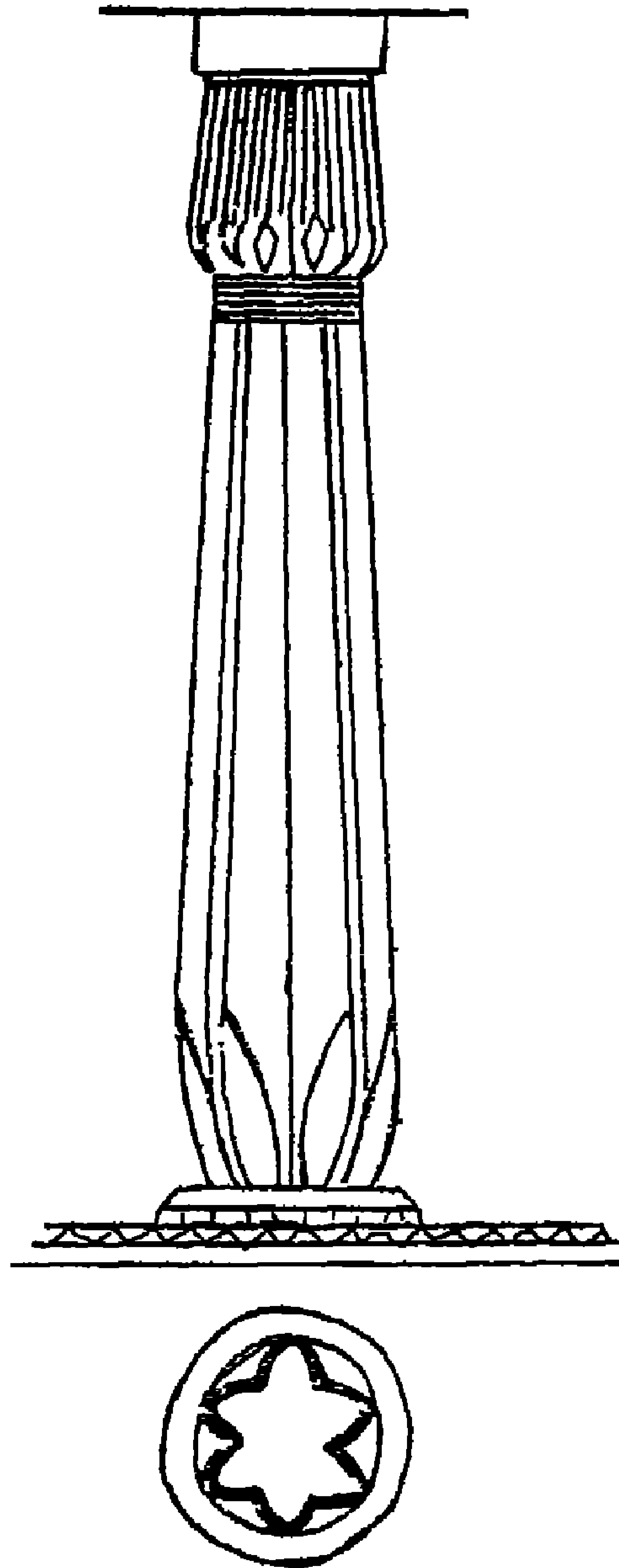
ويمكن الدخول إلى جميع أجزاء المجموعة الهرمية بطريق مباشر أو غير مباشر من الممر الغربى . ويمكن الوصول عن طريق باب فى الطرف الشمالى إلى داخل حرم الهرم أو إلى سلالم تؤدى إلى سقف المعبد ، ويؤدى باب آخر فى الطرف المقابل من الممر إلى داخل حرم الهرم ، وكذلك إلى فناء الهرم الجانبى (شكل ٢١ — ٩) وإلى مدخل جانبى للمجموعة الهرمية . وفى وسط الممر على الجانب الغربى يوجد ممر يعقبه بضع درجات تؤدى إلى حجرة صغيرة فيها الكوات الخمس للتماثيل (شكل ٢١ — ٦) . وفى الجدار الجنوبى لهذه الحجرة باب هو الطريق الوحيد للوصول إلى المقدس (شكل ٢١ — ٧) وإلى خمس حجرات خلفه كانت اثنتان منها على الأقل تستخدمان فى إقامة نوع من الطقوس فى حفلات المعبد الدينية .

ويبلغ طول المقدس حوالى ٤٥ قدما وعرضه نحو ١٥ قدما ، ويحتمل أن تكون أرضيته قد بلطت بالمرمر ، وهو المادة التى صنعوا

منها المذبح المنخفض القائم عند أسفل الباب الوهمى الجرانيتى فى الجدار الغربى .

والجدران الشمالية والجنوبية والشرقية كانت مشيدة من أحجار جيرية ومزينة بنقوش تمثل الآلهة وهى تحضر الهدايا من الأطعمة للملك ، أما أفاريزها السفلى فكانت من الجرانيت .

ويمكن الوصول إلى المخازن — وهى فى صفين متقابلين — عن طريق ممرات تبدأ من دخلتين عميقتين فى الجدار الغربى من الدهليز الغربى . وهى سبعة عشر مخزنا تصل إليها من الدخلة الجنوبية وعشرة مخازن من الدخلة الشمالية . ويحمل سقف كل دخلة عمود من الجرانيت ارتفاعه ١٢ قدما على هيئة حزمة مكونة من ستة جذوع من نبات البردى مربوطة مع بعضها، وكونت براعمها تاج العمود (شكل ٢٢) . وبنيت المخازن فى مجموعات من طابقين ، وكل مخزن حجرة واحدة ، ولكل مجموعة سلمها الخاص . ومن المحتمل جداً أن المجموعة الصغيرة من المخازن كانت للاحتفاظ بالأشياء النفيسة ، مثل الأوانى المزخرفة والتماثيل المذهبة التى يستعملها الكهنة الجنازيون فى مناسبات خاصة . وعلى بعض القطع المنقوشة من جدران إحدى الحجرات نرى الملك ممسكا بحلية . ولهذا فمن المحتمل أن تكون هذه الحجرة مخزنا لوضع النياشين الذهبية التى كان الملك يكافىء بها موظفيه اعترافا بخدماتهم الممتازة ، وربما كانت المخازن فى المجموعة الكبيرة تستخدم لتخزين بعض الأوانى والأطعمة .



شكل ٢٢ — عمود من طراز حزمة البردى

ومن أهم معالم مجموعة ساحورع الهرمية ذلك النظام الدقيق لتصريف المياه التى كانت تسقط على السقف فتنصرف من ميازيب على هيئة رؤوس الأسود ، تبرز من أعلى الجدران الخارجية . أما فى الأجزاء المكشوفة (غير المسقوفة) فى المجموعة الهرمية فإن ماء المطر الذى يسقط فيها ينصرف من فتحات عند أسفل الجدران الخارجية بعد أن يصل إليها عن طريق قنوات محفورة فى أحجار بلاط الأرضية . إلا أنه كانت هناك طريقة أخرى لتصريف المياه ونقل الميـــاه والسوائل الأخرى التى كانت تستخدم أثناء إقامة الاحتفالات فى المعبد ، والتى أصبح بعضها نجسا من الناحية الدينية ولذلك كان من الخطر لمسها . فقد وضعوا فى أجزاء مختلفة داخل المعبد خمسة أحواض من الحجر ، مغلفة بالنحاس ولها سدادات من الرصاص تحكم غلق فتحاتها . اثنان منها فى الحجرات الواقعة خلف المقدس ، وواحد فى المقدس نفسه ، وآخر فى الممر المؤدى إلى المقدس ، والأخير فى مجموعة المخازن الصغرى . وركبوا فى هذه الأحواض مواسير من النحاس لتوصلها بأنابيب نحاسية تجرى تحت أرضية المعبد الداخلى والفناء المكشوف وبهو المدخل والطريق الجنازى حتى طرفه السفلى حيث تنتهى إلى منفذ فى الجانب الجنوبى . وذلك كله لتصريف المياه إلى خارج المعبد . ولا شك أن المصريين استخرجوا المعدن اللازم لهذه الأنابيب من مناجم سينا أو مناجم

الصحراء الشرقية ، لأن طولها أكثر من ألف قدم . وإن فى استعمال مثل هذه الكمية من هذا المعدن النفيس ، دليلا واضحا على الأهمية التى كان ساحورع يعلقها على وجودها فى معبده .

وتهدم هرم ساحورع تهدما بالغا سواء من الخارج أو الداخل . وكان طول ضلع قاعدته عندما كان تاما ٢٥٧ قدما ، وكان ارتفاعه العمودى نحو ١٦٢ قدما ، ولم يبق من كسوته الأصلية التى كانت من أحجار طره الجيرية إلا بعض قطع ، غير أن جزءا كبيرا من قلب بنائه ما زال سليما . وقد سد معظم الممر المؤدى إلى حجرة الدفن سدا كاملا بانهيار بنائه ، ولهذا لا يمكن المرور فيه . أما مدخله فهو فى الواجهة الشمالية (شكل ٢١ — ٨) عند نقطة تبعد عن شرق الوسط بقليل وفى مستوى الفناء المحيط به ، وينحدر بزاوية قدرها ٢٧° لمسافة ١٤ قدما تقريبا ، ويستمر أفقيا لمسافة ٢٧ قدما حيث سد بسقاطات من الجرانيت . ثم يصعد بانحدار تدريجى بسيط حتى يصل إلى حجرة الدفن المستطيلة . وكسيت جدران الممر كلها من الداخل بالحجر الجيرى ، أما منزلق المدخل وبضعة أقدام على جانبى السقاطات ومسافة قصيرة فى نهايته فقد كسيت بالجرانيت . وبنيت حجرة الدفن كلها من أحجار طره الجيرية . ويتكون سقفها المدبب من ثلاث طبقات فوق بعضها . وقدر برنج الذى فحص السقف أن أضخم أحجارها يبلغ ٣٥ قدما فى الطول وعرضها ٩ أقدام وسمكها ١٢ قدما . ولكن

بالرغم من حجمها وثقلها فلم يبق منها سليما دون تكسير سوى اثنين فقط .

ووضع نفرار كارع Neferirkara — الذى دام حكمه أكثر من عشر سنوات — تصميم مجموعته الهرمية على مثال مجموعة ساحورع تقريبا، ولكنها على نطاق أعظم (شكل ١٨ — ٤) . ولكن لم يقدر له أن يراها كاملة ، فعند ما حانت منيته لم يكن قد تم إلا وضع أساسات مبنى الوادى . وبنوا الطريق الجنازى ، ولكنهم لم يتموا الممر الذى فوقه ، أما العمل فى كوات التماثيل الخمسة وفى المقدس داخل المعبد فقد تم منها جزء كبير . ولم يتم بناء الهرم، مع أن العمل فيه كان قد تقدم أكثر من أى مبنى آخر فى المجموعة الهرمية . ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٦٠ قدما وارتفاعه ٢٢٨ قدما . وهو بذلك يزيد قليلا عن هرم منكاورع . وتبين القطع القليلة الباقية من كسوته الخارجية أن المدماك الأسفل على الأقل كان من الجرانيت الذى لم يصقل سطحه . وأراد نفرفرع — خليفة نفرار كارع الذى لم يحكم إلا فترة قصيرة وبدأ يبنى هرما على مسافة قصيرة فى الجهة الجنوبية الشرقية لنفسه — أن يتمم مجموعة نفر اركارع ، وكذلك فعل نى أوسر رع ، ولكنهما استعملا فقط الطوب اللبن وعدلا فى التخطيطات الأصلية ، وتركا مبنى الوادى والطريق الجنازى دون انجاز ، فأتمهما نى أوسر رع (Niuserra) فيما بعد واتخذهما لنفسه . وترتب على ذلك أن كهنة نفر اركارع الجنازيين

ــ بدلا من أن يتبعوا القاعدة المألوفة ببناء مدينة الهرم على مقربة من مبنى الوادى ــ وجدوا أنفسهم مضطرين لتشييد منازلهم المبنية بالطوب اللبن خارج جدران المعبد الجنازى .

ولكى يستعمل طريق « نفرابر كارع » الجنازى دون عمل أى تغيير، اضطر « نى أوسر رع » أن يبنى مجموعته الهرمية إلى جانب معبد نفرابر كارع الجنازى فى الجهة الشرقية . وقد اختار أرضا واقعة فى الناحية الشمالية الشرقية ، وبذلك أمكن استعمال النصف الأسفل من الطريق الجنازى فقط كما هو ، وخلع أحجار الجزء الأعلى منه وأعاد بنـــاءه حسب الاتجاه الجديد أى فى اتجاه الشمال الشرقى (شكل ١٨ ــ ٩) وأصبحت هذه الزاوية إلى حد ما أقل ، نظرا لوضعهم بهو المدخل وفناء الأعمدة أمام النصف الجنوبى من الواجهة الشرقية للهرم . فإذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك عمدا لتقصير المسافة بين المعبد والطريق الجنازى القديم ، فلا بد أن عدولهم عن بناء المعبد على خط محور الهرم من الشرق إلى الغرب كالمعتاد كان نتيجة حتمها عليهم وجود عائق فى المكان ، مثل وجود مقبرة مثلا أو نظرا لعدم صلاحية الأرض فى ذلك المكان .

واختلفت مجموعة نى أوسر رع الهرمية عن مجموعة ساحورع فى التفاصيل فقط ، غير أنها تعطى صورة واضحة للمدى الذى يمكن عمله فى تعديل التخطيط المتبع ليلائم ما تفرضه طبيعة المكان فى أى

موقع من المواقع . وكان لمبنى الوادى شرفتان ، كبراهما تواجه الناحية الشرقية وصغراهما تواجه الناحية الغربية (شكل ١٨ — ٨) إلا أنه بدلا من الأعمدة النخيلية التى نراها فى مبنى الوادى لساحورع فقد زودت هاتان الشرفتان بأعمدة بردية الطراز من الجرانيت الوردى ، وقد استخدموا أيضا أحجار طره الجيرية والجرانيت الوردى والبازلت الأسود المصقول فى الأسقف والجدران وأرضيات الغرف . كما استخدموا البازلت فى بناء الإفريز السفلى لجدران ممر الطريق الجنازى . أما الجدران نفسها فقد كسيت بأحجار طره الجيرية ، وزينت بنقوش لمناظر مختلفة منها ما يمثل الملك كأسد أو كأسد له رأس طائر يطأ أعداءه تحت قدميه . وفى المعبد الجنازى تحمل الأعمدة البردية سقف الممر المحيط بالفناء . وبنيت معظم المخازن — نظرا لضيق المكان — فى المعبد الداخلى خارج الجدارين الشمالى والجنوبى لبهو المدخل . وشغل المقدس مكانه المعتاد ، إلى الشرق من حجرة الدفن ، وبذلك أصبح إلى الشمال من المحور الشرقى الغربى للمعبد بمسافة غير قليلة . وفى جنوب شرق الهرم الأصلى بنوا الهرم الاضافى المعتاد .

وبنى ددكارع أسيسى — وهو الذى خلف نى أوسر رع على العرش — هرمه فى سقارة ، وهو الهرم المسمى باللغة العربية « هرم الشواف » . ولم تتحدد نسبة هذا الهرم إلى أسيسى إلا فى خريف عام ١٩٤٥ عند ما كشفت عنه مصلحة الآثار المصرية تحت إدارة

اسكندر فارى [١].

وأقام أوناس — آخر ملوك هـذه الأسرة — هرمه قريبا من الركن الجنوبى الغربى لسور الهرم المدرج ، أى فى الناحية المقابلة للمنطقة التى قام عليها هرم أوسركاف مؤسس الأسرة ، وثبت من حفائر مصلحة الآثار — التى تمت منـذ سنوات قليلة تحت إدارة الأستاذ سليم حسن أولا ثم عبد السلام حسين فيما بعد — أن جزءا كبيرا من الطريق الجنازى ما زال محتفظا بكيانه فى هذه المجموعة الهرمية أكثر من أى طريق جنازى آخر (لوحة ١١١) . وبالرغم من أن الطرف العلوى من هذا الطريق فقط هو الذى قد أزيحت عنه الرمال ، فإن اتجاه الطريق بأكمله أصبح واضحا على طول المسافة كلها ، أى الـ ٧٣٠ ياردة التى تفصـل بين مبنى الوادى والمعبد الجنازى . ولا يتبع هذا الطريق خطاً مستقيما ، ولـكنه يغير اتجاهه مرتين لـكى يستفيد من طبيعة الأرض . ولـكن بالرغم من هذه التعديلات فقد كان من الضرورى ملء هبوط فى الأرض يبلغ عمقه نحو ٢٥ قدما واتساعه أكثر من ذلك . وقد أخذوا بعض الأحجار التى استعملت فى ملء هذا الهبوط من مبانى الهرم المدرج ، وهذا يثبت أن آثار زوسر الشهيرة كانت قد بدأت تتهدم فى أواخر أيام الأسرة الخامسة . وبنيت

(١) كان المرحوم إسكندر فارى يعاون المرحوم عبد السلام محمد حسين فى حفائره فى تلك المنطقة . (المعرب)

جوانب الجسر منحدرة فأصبح اتساعه فى سطحه العلوى ٢٢ قدما تقريبا . وفوق هذا الأساس الضخم بنوا الممر العادى المسقوف . ويبلغ ارتفاع جدرانه نحو ١٢ قدما وسمكها حوالى ٦ أقدام و ٨ بوصات، أما عرض الممر فى الوسط فلم يزد على ٨ أقدام و ٧ بوصات تقريبا . وسقفوا الممر بكتل من الحجر يبلغ سمكها قدما و ٩ بوصات ، وقد تركوا فى وسط السقف فتحة عرضها ٨ بوصات تقريبا لإدخال الضوء . وإلى جنوب الطريق الجنازى حفرة المركب طولها ١٤٨ قدما ومبطنة كلها بأحجار طره الجيرية .

والجدران الداخلية للممر رسمت عليها نقوش دقيقة ومناظر كثيرة شغلت مساحات كبيرة منها ، وفى بعضها نرى سفينة تنقل بعض الأعمدة النخيلية والأعتاب المستعملة فى بناء المعبد الجنازى ، وكلها من الجرانيت جاءت بها السفينة من أسوان .

وفى مجموعة أخرى من هذه النقوش نرى بعض الصناع يطرقون الذهب ، ويصبون الأدوات النحاسية ، أو يصقلون الأوانى المصنوعة من الذهب أو الحجر . ونجد فى أماكن أخرى نقوشاً تبين عمال الضياع الملكية وهم يجنون التين ويحصدون القمح ويجمعون العسل ، وهناك عدد كبير من الخدم يحضرون الأطعمة من مختلف الأنواع إلى القبر . واشتملت مناظر الصيد على صور لكل حيوان ذى قرنين معروف للمصريين ، وكذلك على رسم للزرافة والأسد والفهود

والذئاب والضباع واليرابيع والقنافذ . وربما كان أكثر هذه المناظر تعبيراً عن موضوعه ، ذلك النقش الذي يمثل ضحايا إحدى المجاعات ، فقد هزلت أجسامهم حتى بدت جلداً على عظم (لوحة ١١ ب) . ومما يدعو إلى الأسف أن هذا المنظر غير كامل ، ومن الصعب أن نتكهن بالمناسبة التي جعلتهم يرسمونه ، بل لا يمكن على وجه اليقين تحديد الجنسية التي ينتمي إليها الأشخاص المرسومون فيه .

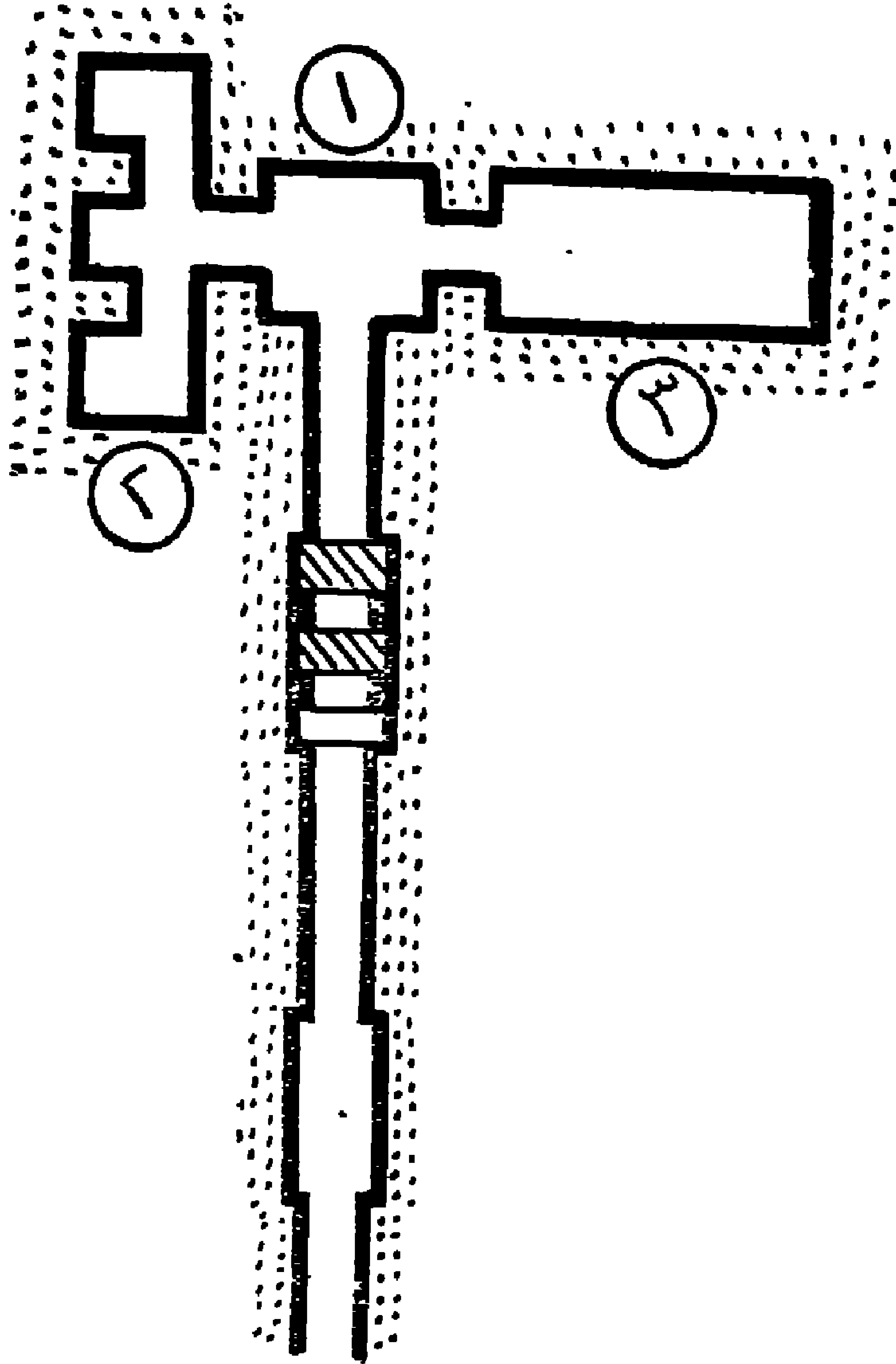
ولما كانت نقوش المقابر توضح عادة الوقائع والحوادث التي يرغب صاحب المقبرة في تخليدها ، فربما كان هؤلاء الناس الذين كادوا يموتون جوعا غير مصريين ، وأن الجزء المفقود من هذا الجزء من النقوش يحتوي على مناظر المؤن التي أرسلها إليهم أوناس . ولونت كل هذه المناظر بألوان زاهية بقيت بعض آثارها واضحة حتى الآن . وزين السقف أيضاً بنجوم ذهبية نقشت نقشاً بارزاً فوق أرضية تشبه السماء في زرقتها .

أما معبد أوناس الجنازي فقد كشف ا . بارزانتي (A. Barsanti) عن جزء منه عند ما كان يعمل هناك لحساب مصلحة الآثار في عام ١٩٠٠ . وأجرت مصلحة الآثار في عام ١٩٢٩ حفائر أخرى تحت إدارة س. م فيرث فأتمت حفره . وهو يشبه في تخطيطه وبنائه معبد ساحورع الجنازي شبها كبيراً ، ولكنه يختلف عنه في وضع الممرات والمخازن داخل المعبد . وتختلف أرضيتها ، فقد استخدم أوناس أحجار المرمر .

بينما استخدم ساحورع البازلت فى تبليطات أرضيات معبده . وبينما وصل إلينا عدد عظيم من النقوش التى كانت فى الطريق الجنازى ، لم تحفظ لنا الأيام من نقوش المعبد إلا قطعاً قليلة عليها رسم بعض الخدم يحملون القرابين .

ولا يختلف هرم أوناس فى مظهره الخارجى عن غيره من الأهرام فى شىء ذى أهمية خاصة ، وطول ضلع قاعدته ٢٢٠ قدما وارتفاعه العمودى ٦٢ قدما ؛ وهذه مقاييس متواضعة إذا قارناها بآثار الأسرة الرابعة ، أما فى داخله فهناك عدة أشياء جديدة . فالمدخل ، ولو أنه فى الناحية الشمالية إلا أنه ليس فى واجهة الهرم بل تحت الأرضية . وكانت هناك ثلاث سقاطات من الجرانيت لسد الممر المؤدى من المدخل إلى ردهة مربعة (شكل ٢٣ — ١) وعلى الجانب الشرقى لهذه الردهة تفتح حجرة طويلة ضيقة فى الجدار الشرقى منها ثلاث كوات لتماثيل (شكل ٢٣ — ١) . أما حجرة الدفن فكانت فى الناحية الأخرى غربى الردهة (شكل ٢٣ — ٣) ، وفى نهاية الحجرة نجد تابوتا حجريا مستطيلا ، وقد ظل سليما حتى الآن ولكن محتوياته سرقت من مدة طويلة قبل عام ١٨٨١ وهو الوقت الذى اكتشفه فيه ج . ما سبرو ، أول عالم أثرى فتح هذا الهرم .

وبنيت كل الحجرات داخل الهرم من أحجار طره الجيرية ماعدا الجدار الغربى من حجرة الدفن ، وكذلك النصف الجنوبى من كل من



شكل ٢٣ — الحجرات والممرات فى هرم أوناس

الجدارين الشمالى والجنوبى أمام التابوت ، إذ بنوها بأحجار المرمر بدلا من الحجر الجيرى ، ونقشوا على المرمر زخارف تمثل دخلات وخرجات وباباوهميا لونوها كلها .

ولكن هناك ماهو أهم من هذه التجديدات فى البناء فى هذا الهرم ، وتلك هى السطور الرأسية من الكتابات الهيروغليفية التى تغطى جدران الردهة والأجزاء المبنية بالحجر الجيرى من حجرة الدفن ، وملأوا كل حرف هيروغليفى بمعجون أزرق اللون لجعلها واضحة جلية فوق الارضية البيضاء . وتعرف هذه الكتابات باسم « متون الأهرام » ، وهى غير قاصرة على هذا الهرم فقط بل وجدت أيضا فى أهرام الأسرة السادسة ، فى أهرام تيتى ، وببى الأول ، ومرن رع ، وببى الثانى ، وفى هرم ملك يسمى إيبى (Ibi) لايعرف تاريخه على وجه التحقيق ، وفى أهرام زوجات الملك ببى الثانى الثلاث .

وليست متون الأهرام قصة متصلة ، بل تحتوى على مجموعة من التعاويذ جمعت دون عناية كبرى بما تحويه ، ودون أن يكون لها ترتيب خاص . وبالرغم من أننا نجد معظم هذه المتون فى أكثر من هرم ، إلا أن الموجود منها فى هرم ما يختلف عن الموجود فى هرم آخر ، فثلا فى هرم أوناس نجد فقط مائتين وثمانية وعشرين متنا اختيرت من مجموع الرقى المعروفة لنا والتى يزيد عددها على سبعمائة .

وكان الغرض من متون الأهرام — كأى عنصر آخر فى المجموعة

الهرمية — أن تضمن للملك أو الملكة السعادة فى الحياة بعد الموت . وكان سحر الكلمة المكتوبة قويا لدرجة أن وجودها وحده يكفى ليضمن تحقيق الأفكار التى تعبر عنها .

ولا شك أن الكلمة التى تخرج من فم شخص له أهلية التفوه بها كان لها أيضا الأثر نفسه على الأقل . ولكن خروجها من الفم كان يتوقف على حسن قصد أو مثابرة أشخاص آخرين .

ويوجد نص يكتب عادة على الجدار الشمالى لحجرة الدفن يبين الصلوات التى يتلوها الكهنة كل يوم فى المعبد الجنازى عندما يضعون الأطعمة على المذبح أمام الباب الوهمى . فإذا ما كتبوا هذه الصلوات وملأوا مخازن المعبد بالأطعمة . فإن الملك يأمن غائلة الجوع والعطش حتى ولو أهمل الكهنة فى أداء واجباتهم . ويصف كثير من النصوص رحلة الملك فى العالم الآخر ، ذلك العالم الذى كان مقره فى السماء بعد الأفق الشرقى ، ويصف مجهوداته عند وصوله إلى هناك . وواضح أن الملك لا يتوقع أن يلقى معونة ذات شأن من الآلهة عندما يقوم بهذه الرحلة ، ولكنه إذا تحصن بقوة هذه النصوص السحرية يستطيع أن ينجح فى التغلب على كثير من مخاطرها . وبمساعده هذه النصوص أيضا يضمن الملك اشتراكه مع إله الشمس فى رحلته اليومية عبر السماء . وبين هذه النصوص مجاميع من الأناشيد للآلهة ودعوات من أجل الملك المتوفى .

وأكثر نصوص الأهرام لم يكن من عمل الأسرتين الخامسة والسادسة على وجه التأكيد ، ولكنها نشأت فى العصور الموغلة فى القدم ، ولهذا لا نعجب إذا رأيناها تحتوى فى بعض الأحيان على تلميحات لأمور لم يزاولها الناس فى عهد أوناس ومن جاءوا بعده ، ففى المتن رقم ٦٦٢ مثلا نقرأ هذه العبارة : « اطرح الرمل عن وجهك » وهى عبارة لا يمكن إلا أن تشير إلى طريقة الدفن فى عصر ما قبل الأسرات ، عند ما كان الملك يدفن فى قبر محفور فى الرمل .

وهناك خطأ مشابه ولكنه يشير إلى مصاطب الطوب اللبن فى العصر العتيق ، ففى المتن رقم ٣٥٥ : « أزيلت قوالب الطوب من أجلك فى القبر العظيم » . وفى المتون رقم ٢٧٣ — ٢٧٤ إشارات إلى عادات كانت متبعة فى عصور أقدم عهدا من العصر العتيق ، تصف الملك المتوفى كصياد يمسك الآلهة ويلتهمها لكى تحل صفاتها فيه .

ولكن فى الوقت ذاته نجد ذكر الهرم فى كثير من هذه المتون ، ومعنى ذلك أن هذه المتون يمكن أن تكون قد نشأت قبل الأسرتين الثالثة والرابعة ، فالمتن رقم ٥٩٩ مثلا يقول : « هم (أى الآلهة) أولئك الذين يجعلون هذا العمل خالدا وسيجعلون هذا الهرم خالدا » . ونظرا للإشارة المستمرة إلى عقيدة الشمس يكاد يكون من المؤكد أن هذه المتون من عمل كهنة عين شمس . فعند ما وضعوها فى الأسرة الخامسة أخذوا بعض تعاويذ دينية قديمة وأضافوا عليها بعض أدعية

وصلوات من عصور أحدث لتلائم احتياجاتهم فى العصر الذى عاشوا فيه .

ومع أن الغرض من متون الأهرام هو مساعدة الملك المتوفى ، إلا أن وجودها فى قبره خلق مشكلة جديدة لها خطورتها ، فنظرا لكتابتها بالهيروغليفية فقد اشتملت على كثير من صور الكائنات الحية ، ولم يكن لهذه الصور قيمتها كعلامة من علامات اللغة الهيروغليفية فحسب ، بل كان لها — بفضل السحر — القدرة على أن تصبح مرة ثانية المخلوقات التى تمثلها . فمثلا رسم الأسد يعبر عن العلامة التى تنطق « رو » ، وفى الوقت ذاته اسم الحيوان الحى نفسه بكامل صفاته . وكذلك صور الآدميين التى تتكون منها بعض العلامات الهيروغليفية المستخدمة بكثرة تؤدى وظيفة مزدوجة . فلكى يدرأوا عن الملك خطرها — الذى قد ينتج من وجود عدد كبير من كائنات عدوة للإنسان ومهلكة له على مقربة من المكان الذى هو فيه — لجأ الكهنة والفنانون إلى عدد من الحيل المختلفة . فأحيانا يحذفون العلامات الخطرة ، أو يضعون مكانها علامات تمثل أشياء لا حياة فيها ولها نفس القيمة الصوتية فى اللغة الهيروغليفية . وكثيرا ما كانوا يحذفون من صور الإنسان الرجلين والجسم ، فتقتصر على الرأس والذراعين فقط . أما الحيوانات فإنهم يستطيعون تفادى ضررها بوسيلة بسيطة ، وهى بتر أجسامها ورسمها نصفين الواحد منهما

منفصل عن الآخر . أما الثعابين فكانوا يرسمونها كاملة . ولكن العقارب كانت تجرد من أذنابها . وكان المخلوق الوحيد الذى لم يسمحوا بوجوده على جدران حجرة الدفن هو السمك (ولم يشذوا عن هذه القاعدة إلا مرة واحدة فقط) إلا أن هذا الإغفال لم يكن راجعا إلى أن السمك ربما يزعج صاحب المقبرة بوجوده ، بل نتيجة اعتقادهم بأن السمك — رغم أنه غير ضار بالإنسان الحى — إلا أنه يدنس أى جثة .

وبقيت متون الأهرام ، ولكن فى صورة معدلة ، أثناء الدولة الوسطى . فإن عادة كتابة المتون على جدران الحجرات والممرات فى القبر قد أهملت وكتبت بدلا من ذلك على الجوانب الداخلية للتوابيت الخشبية المستطيلة التى كانوا يستخدمونها فى ذلك العصر . وهذا هو السبب فى تسميتها « متون التوابيت » . وفى هذا العصر أيضاً لم تعد قاصرة على الملوك بل اغتصب النبلاء حق استعمالها ، متبعين فى ذلك نفس الطريقة الديمقراطية التى اتبعوها فى أمور أخرى كثيرة كانت فى أول أمرها امتيازا قاصرا على الملك . وفى عصر الدولة الحديثة ، وبعد أن دخلت على المتون تعديلات أخرى ، كتبت على ورق البردى وسميت « كتاب الخروج أثناء النهار » ، وهى التى يعرفها أكثر الناس فى العصور الحديثة باسم « كتاب الموتى » .

وبنى تيتى وببى الأول ومرن رع أهرامهم فى سقارة ، فاختار تيتى

منطقة تقع فى الشمال الشرقى من الهرم المدرج ، بينما اتجه خليفتاه إلى جهة الجنوب واختارا موقعين لهرميهما على مقربة من مصطبة شبسسكاف .

ولم تشذ المجموعات الهرمية الثلاث عن النظام المتبع ، ولكن التفاصيل الكاملة لمبانيها لا يمكن التحقق منها حتى يكشف عنها تماما ، فالأهرام ذاتها تبدو صغيرة إذا قورنت بأعمال العصور السابقة ، ولكنها رغم صغر حجمها ورغم تهدمها فإن أهميتها كبيرة ، نظرا لما تحويه من النصوص التى تشمل كثيراً من متون لم ترد فى هرم أوناس . وأحد هذه الأهرام الثلاثة — وهو هرم پيپى الأول — جدير بأن نذكره لأن نصوصه كانت أول متون الأهرام التى عثر عليها ، وكان يظن قبل أن يكتشفها ماسبرو فى عام ١٨٨١ أن الجدران الداخلية فى الأهرام كانت عارية من الكتابة .

واعتلى پيپى الثانى — الذى خلف مرن رع — عرش البلاد وهو طفل ، ومات فى سن المائة ، على ما ذكره مانيتون . وقد ذكرت الوثائق التاريخية المصرية التى كتبت فى العصور المتأخرة أنه حكم أربعا وتسعين سنة . فإن صح ذلك فحكمه أطول حكم فى تاريخ مصر . وتقع مجموعته الهرمية — أو على الأصح ما تبقى منها بعد قرون من تعرضها للهدم والاعتداء — على مسافة قصيرة إلى جنوب مجموعتى سلفيه ، وتبعد بمقدار ٣٠٠ ياردة عن الركن الشمالى الغربى لمصطبة شبسسكاف ، وقد

حفرها جوستاف چيكييه بين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٣٦ ونجح فى معرفة رسومها التخطيطية كلها ، والقليل من مبانيها . وكان من نتيجة عمله هذا أن أصبح ميسورا لنا أن نرى تخطيط المجموعة الهرمية عندما اكتملت ووصلت إلى آخر تطوراتها .

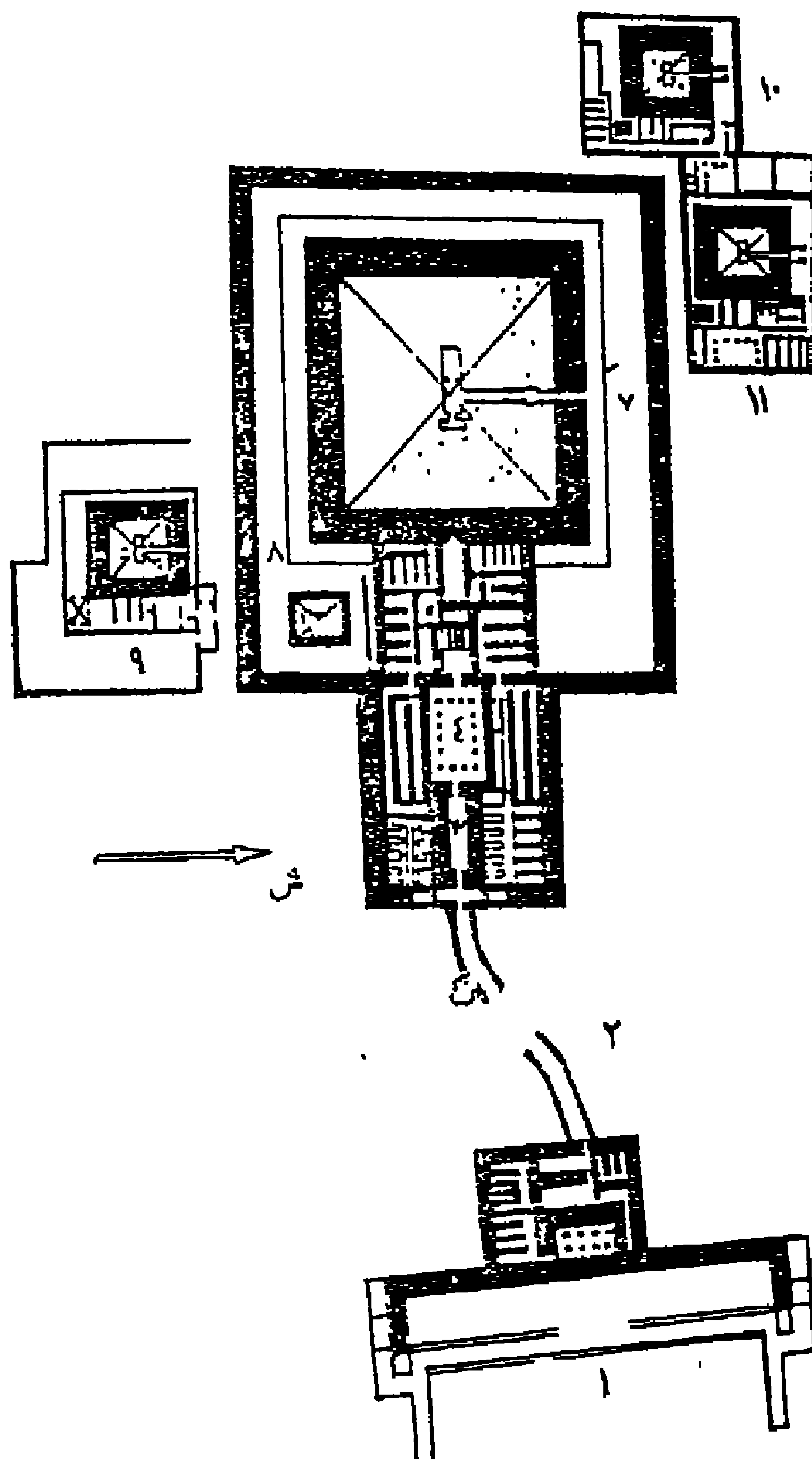
وأمام مبنى الوادى رصيف عريض يبرز مسافة لا بأس بها عن حدوده الشمالية والجنوبية (شكل ٢٤ — ١) ، ولكى نصل إلى هذا الرصيف من مستوى الوادى يجب أن نصعد منزلقا قصيرا من كلا الجانبين ، ثم نواصل السير فى منزلق أطول صاعد ولكنه على زاوية قائمة . وأحاط بالرصيف فى نواحيه الشمالية والجنوبية والغربية جدار سميك مرتفع من الحجر الجيرى . وبنيت سلالم ضيقة داخل المبانى عند كل طرف من الجدار ، وهى تؤدى إلى « متراس » يمتد بطول الجدار كله . وفى وسط الجدار الغربى الطويل فتح باب عتبته وجاباه من الجرانيت نقشت عليه أسماء وألقاب الملك ، بحروف هيروغليفية كبيرة ، ويوصل هذا الباب إلى طرقة تسير خلال سمك الجدران حتى تصل إلى بهو أعمدة به ثمانية أعمدة مستطيلة كانت من الحجر الجيرى على الأرجح .

ولم يبق من مبانى هذا الفناء إلا أرضيته وأساساته ، مثل باقى أبنية المعبد . ولكن المكتشف وجد بين الرديم بعض قطع نقشت ولونت بعناية نقوشاً كانت يوما من الأيام على جدران ذلك الفناء . ويبدو أن المناظر المرسومة كانت من النوع التقليدى الذى يمثل الملك وهو

يذبح أعداءه أو يصطاد الطيور فى أحراش الدلتا أو فى حضرة الآلهة. ولا شك أنها كانت أهم حجرة فى المبنى كله ، إذ أن الحجرات الباقية لم تكن إلا مخازن وغرفتين أخريين وكانت جـــدرانهما عارية من النقش على ما يبدو . ولم تسفر الحفائر عن أثر لأى تمثال ، ولـكن ليس من المستبعد أن هذا المعبد قد حوى عدداً من تماثيل الملك .

ومع أن مبانى طريق ببى الثانى الجنازى (شكل ٢٤ — ٢) على أسوأ حالة ، إلا أنه يشبه طريق أوناس فى كثير من الاعتبارات ، فـكلا الطريقين غير اتجاههما مرتين ، إما لـكى يستفيدوا من طبيعة المكان وإما لتقليل زاوية انحدارهما . وكذلك تقارب الممران اللذان فوقهما فى مقاييسهما أيضاً . ولـكن بينما عثر على كثير من بقايا النقوش فى ممر أوناس ، نجد أنه لم يعثر إلا على بعض قطع قليلة مبعثرة فى ممر ببى الثانى . ويبدو واضحاً من هذه القطع أن المناظر التى كانت مرسومة فى الطرف الأسفل من الممر تشبه كثيراً تلك التى كانت فى المـكان نفسه فى ممر ساحورع . فالملك ممثّل على صورة أبى الهول أو على صورة أسد برأس طائر وهو يطأ تحت أقدامه أعداء مصر التقليديين الذين يحضرهم إليـه الآلهة كأسرى . وكان يصحب هذا المنظر ، كما فى الأماكن الأخرى . مجموعة من النقوش تبين الإلـٰهة سشات وهى تسجل أسماء الضحايا وتحرر كشوف الجزية المأخوذة .

أما المناظر التى فى الطرف العلوى من الممر فـكانت تحمل طابعاً



شكل ٢٤ — المجموعة الهرمية لبيبى الثانى

جنازياً صرفا ، فهناك صفوف طويلة من الخدم يحملون ما تنتجه الضياع الملكية إلى القبر . وفى المناظر المجاورة نجد مواكب مشابهة ، لكنها تتكون من الآلهة والإلـهات ، تتقدم نحو الملك الجالس على عرشه . وبالقرب من أعلى الممر نرى أبوابا فى الجدران الجانبية لكى يمر منها الكهنة الذين يصلون إلى المجموعة الهرمية من الشمال أو الجنوب ويريدون دخول المعبد الجنازى ، فلا يضطرون للذهاب أولا إلى مبنى الوادى ثم يصعدون الطريق الجنازى كله . وكان البواب يقيم فى بيت صغير إلى جوار جدران الممر ، ليحرس الباب الجنوبى وليمنع الأشخاص غير المصرح لهم بالدخول إلى الأماكن المقدسة . ولم يعثر على أثر لمثل هذا البيت الصغير فى الجانب الشمالى ، إذ أن المكان متهدم الآن ولا يمكن تحقيق وجود مكان الباب نفسه ، ولكن المفروض أن مثل هذا البناء كان موجوداً .

وكان الطريق الجنازى فى هذه المجموعة مفصولا عن بهو المدخل فى المعبد الجنازى بممر مستعرض لا يمكننا أن نعتبره عنصراً معماريا جديداً لأنه ، كما يبدو ، قد قصد به فقط أن يوصل إلى السلالم التى تؤدى إلى السقف من ممرات فى كلتا الناحيتين . ولم يختلف بهو المدخل فى الشكل والحجم عن التصميم المعتاد . فكانت جـــدرانه محلاة بالنقوش ، وفى أحدها نرى الملك وهو يصطاد فرس النهر من قارب مصنوع من البوص . وبعد بهو المدخل مباشرة نجد فناء فيه أعمدة على

جوانبه ، وهو وإن كان أقل إتقانا من الناحية المعمارية إلا أنه يتفق في تخطيطه مع أبهاء معابد الأسرة الخامسة (شكل ٢٤ — ٤) . ولم تنقش الثمانية عشر عموداً المصنوعة من حجر الكوارتزيت الأحمر والتي تحمل سقف الممشى لتحاكى الأعمدة النخيلية أو أعمدة البردى ، بل صنعت من قطعة واحدة مستطيلة زين وجهها الخارجي فقط بصور الملك مع أحد الآلهة ، وحلت بلاطات من الحجر الجيرى محل بلاطات البازلت المصقول أو المرمر في معبدى ساحورع وأوناس. ومن المحتمل أنهم لم يزينوا جدران هذا الفناء بزخرفة نقوشه بألوان زاهية ، وربما كان مظهره — إذا قارناه بالمعابد التي شيدت قبله — بسيطاً ومملا لا تنويع فيه .

وبعد هذا الفناء ذى الأعمدة الجانبية يقع الممر المستعرض المتوسط الذى لم يستخدم لفصل الأجزاء الداخلية من المعبد عن الأجزاء الواقعة خارج السور المحيط بالهرم فحسب ، بل كان النقطة المركزية في المجموعة الهرمية كلها . وبالرغم من أنه تطور معماريا من الجزء الغربي من الممر الذى يحيط في المعابد السابقة بالجدران الخارجية للأبهاء ذات الأعمدة ، إلا أنه أصبح الآن عنصراً مستقلا ، وحذفوا الأقسام الجنوبية والشرقية والغربية من الممر السابق . وتؤدى الأبواب الموجودة في الطرفين الشمالى والجنوبى لهذا الممر إلى داخل السور المحيط بالهرم ؛ حيث تقوم — في الركن الجنوبى الشرقى من

الهرم الإضافى (شكل ٢٤ — ٨) وإلى الشرق من هذا الممر ومتاخما للجانبين الشمالى والجنوبى من البهو ذى الأعمدة وبهو المدخل — مجموعة كبيرة من المخازن . ونحن نعرف أن نى اوسررع — نظراً لقلة المساحة فى معبده الداخلى — شيد المخازن على جانبى بهو المدخل ، ولهذا لا يمكن القول بأن پيپى الثانى قد أدخل بدعة معمارية فى هذا الصدد . وكانت الأجزاء الداخلية من المعبد وباقى المخازن تقع فى غرب الممر . ونصل إليها عن طريق فناء صغير أو بهو يحتوى على كوات التماثيل الخمسة (شكل ٢٤ — ٥) .

ولم يعثر چيكييه إلا على بعض قطع صغيرة من النقوش فى الممر المستعرض المتوسط ، ولكنه استطاع أن يبين فى رسمه - الذى صور فيه هذا الممر كما كان يوم إنشائه - أن تلك النقوش كانت من أهم مافى المعبد كله . وفى الناحية الجنوبية من الجدار الشرقى نرى الملك وهو يضرب زعيما ليبياً أسيراً بدبوسه على رأسه ، ووقف خلف هذا الزعيم زوجته وولداه طالبين الرحمة . ولم يكن هذا المنظر تكراراً للموضوع المرسوم فى معبد ساحورع فحسب بل هو فى الحقيقة نسخة منه ، حتى فى تكرار أسماء الزوجة والولدين . وتثبت هذه النسخة المزدوجة لموضوع واحد فى معبدى ملكين يفصل بين حكمهما قرنان من الزمان أن نقوش المعابد لا تسجل فى الواقع حوادث تاريخية من حياة الملك

بل إنها تثبت أنه لم يقصد منها سوى إظهار الحياة المثالية التى كان الملك يرغب فى أن يحياها فى العالم الآخر .

وفى مكان آخر من هذا الجدار نفسه نرى الملك مرسوما أربع مرات لابسا تاج مصر العليا وممسكا فى يده سوطا وشيئا مستطيلا ، وهو يؤدى شعيرة دينية تتطلب منه أن يجرى بين أحجار مرصوصة على هيئة حدوة الجواد وبعضها موضوع على مسافة من البعض . وقد سبق العثور على مثيل لمنظر هذا الاحتفال فى الهرم المدرج (لوحة ٣١) وهو منظر الجزء الخاص بعيد الحب . سد ، ويبدو أن الغرض منه فى الأصل على الأقل هو إعادة الخصوبة إلى الأرض . وفى منظر آخر على هذا الجدار — وربما كانت له أيضا علاقة بشعائر الخصوبة — نرى الملك واقفا إلى جوار عمود مرتفع مدعم بأربع سنادات من الخشب ، ورسم رجلان أحدهما فوق الآخر وهما يتسلقان هذه السنادات ، بينما يقف آخرون ممسكين بالحبال المربوطة فى السنادات والعمود . وهناك نسخ من هـــذا المنظر ، الذى يذكرنا إلى حد ما باحتفالات «عمود شهر مايو» فى العصور الوسطى . ونرى أيضا فى العصور المتأخرة على جدران معابد الكرنك والأقصر ودندرة وإدفو صورا منه ، ولكننا نرى فى تلك النسخ الإلـٰهيين إلـٰه الخصب يقف فى مواجهة الملك على الجانب الآخر من العمود المرتفع ويتقبل منه خضوعه .

ومن فجوة فى الجدار الغربى للممر المستعرض المتوسط ، يوصل سلم صغير إلى البهو أو الفناء الذى توجد فيه كوات التماثيل الخمسة (شكل ٢٤ — ٥) ولكن لم يبق داخل هذه الكوات إلا قاعدة تمثال واحد مهشمة ، وهى تثبت أن التماثيل قد صنعت من الحجر الجيرى . وتمشيا مع العادة المتبعة لدى المصريين كانت هذه التماثيل ملونة ، وكان على كل تمثال اسم الملك ولقب من ألقابه الخمسة على الأقل . وكانت هناك أيضا أبواب مزدوجة من الخشب لتحجب التماثيل عن العيون فى غير أوقات الطقوس الدينية التى كانت تقام أمامها . وربما كانت هناك أيضا مجموعة ثانية من التماثيل مخبأة ، وذلك إذا صح التفسير الذى يقول بأن البناء الأجوف الذى يقع داخل البناء خلف الكوات الخمس ليس إلا سردابا .

وفى كل من طرفى بهو التماثيل ممر ، الشمالى منهما يؤدى إلى مجموعة صغيرة من المخازن ، والجنوبى إلى حجرة ضيقة تتصل بدورها بمجموعة أكبر من المخازن وبردهة مربعة إلى جوار المذبح (شكل ٢٤ — ٦) . وكان من بين النقوش التى تزين جدران الحجرة الضيقة منظر من المناظر العديدة التى تكررت فى هذا المعبد وتمثل الملك منتصراً على أعدائه ، ولم يبق من هذا المنظر إلا أجزاء قليلة ولكنها تعطينا فكرة واضحة عن المنظر كله ، لأن چيكييه قد عرف فيها أنها كانت الأصل الذى نقلت عنه نسخها ، نقلها الملك إمحوتپ الثانى فى

معبد الكرنك بعد موت ببي الثاني بنحو ألف سنة . ففي الجزء الأوسط من المنظر رسم كبير للملك ملوحاً بدبوس فوق رؤوس جمع من الأسرى الأجانب ، وخلف الملك صورة آدمية صغيرة تمثل قرينه الذي يحميه ، وفي مكان آخر من المنظر ترى الإلـهة سشات تسجل على قرطاس عدد الأسرى المذبوحين ومقدار الجزية المأخوذة .

وإن تكرار وجود مثل هذه المناظر في المعبد الجنازي يجعلنا نظن أن احتفالات في أوقات معينة كانت تقام لإحياء ذكرى النصر الذي أحرزه المصريون في العصور الأولى على جيرانهم الأجانب ، وربما كان هذا التفسير يوضح لنا أيضا وجود بعض تماثيل في هذا المعبد وفي غيره من معابد أسلافه ممثلة أسرى من الأجانب راكعين مكتوفي الذراعين . ولم يعثر حتى الآن على تمثال كامل من هذا النوع من التماثيل ، ونرى في أكثرها أثر تحطيمها عن عمد . فمن المحتمل إذن أن تلك التماثيل كانت تستخدم أثناء تلك الاحتفالات التذكارية لتحل محل الأسرى الأحياء الذين كان من المفروض أن يقتلوا ، اذ أن العقلية المصرية لم تستسغ هذا النوع من القتل المجرد من أية رحمة .

ويحمل سقف الردهة المربعة عمود واحد كان في الغالب مثمن الشكل . وعلى كل من جدرانها الأربعة نرى الملك تستقبله الآلهة المصرية وكبار الموظفين الدينيين والمدنيين ، الذين اجتمعوا لتحيته عند دخوله المعبد آتياً من قبره عن طريق المقدس . فالآلهة الذين

يزيد عددهم على المائة قد وقف كل منهم منتصب القامة ممسكا بصولجان فى يد وبعلامة « الحياة » فى اليد الأخرى ، والموظفون البالغ عددهم نحو خمسة وأربعين قد انحنوا أمام مليكهم خاشعين ، وكذلك نرى الجزارين وهم يذبحون الماشية استعداداً للاحتفال .

وكان المقدس (شكل ٢٤ — ٦) الذى يبلغ طوله ٥١ قدما وعرضه ١٧ قدما وارتفاعه ٢٤ قدما أكبر حجرة فى المعبد الداخلى ، وزين سقفه المقبى حسب المعتاد بنجوم ذهبية فوق أرضية من سماء زرقاء . ولم يبق أثر للباب الوهمى الذى يشغل النصف الأسفل من الجدار الغربى أو من المذبح المنخفض الذى كان أمامه على الأرض ، وفى الاستطاعة معرفة المواضيع الكاملة للنقوش الملونة على الجدران الشمالية والجنوبية والشرقية مع أنها مهشمة إلى مئات القطع . فعلى كل من الجدارين الطويلين كان الملك جالساً إلى مائدة محملة بالمأكولات ، وقد وقف من ورائه قرينه ، وأمام كل مائدة رهط من مائة وخمسة وعشرين حاملا للقرابين من الكهنة وموظفى الأقاليم ورجال البلاط وأعيان البلاد . وقد ضمن هؤلاء جميعاً بتمثيلهم فى هذا المنظر أن يظلوا فى خدمة الملك فى الحياة الأخرى . ومن بين القرابين التى يقدمها هؤلاء الرجال البط والأوز والنبيذ والجعة والفواكه والخبز والخضروات ، ونرى الماشية والغزلان والماعز وقد ربطت بحبال فى أعناقها أو أرجلها الأمامية ، أما الحمام والسمان فقد حملوه

فى أقفاص . وفوق هذه النقوش إفريز عريض رسمت عليه مقادير أخرى من الأطعمة ، ويمتد هذا الإفريز على الحائط الشرقى حيث نرى مناظر ذبح الماشية وقد شغلت المكان الذى شغله حملة القرابين على الجدارين الشمالى والجنوبى .

ولم يحدث أن أمكن إعادة تكوين مناظر النقوش الأصلية فى مقدس المعبد الجنازى كما حدث فى هذا المعبد ، أو رأينا كيف كانت جدرانه كلها مغطاة بما كان يسد الحاجات المادية اللازمة لإسعاد الملك المتوفى . فنحن نرى هنا جميع أنواع المأكولات ، فإذا أهمل الكهنة فى وضع الكميات اليومية من المؤن فوق المذبح فإن الملك لن يتأثر من الجوع أو العطش ، لأن مجرد وجود الصيغة السحرية التى صاحبت النقوش والصور تمدها بجميع خصائصها المادية . وزيادة فى الحرص خزنوا بعض الخمور والأطعمة الجافة فى عدد من المخازن فى الناحية الشمالية ، وهى متصلة بالمقدس عن طريق ممر بينهما .

وقبل أن يقوم چيكييه بحفر هذه المنطقة كان كوم التراب المرتفع فى الصحراء هو الدليل الوحيد على وجود هرم ببى الثانى ، الذى كان — مثل الأهرام الأخرى التى من عصره — مشيداً من أحجار صغيرة ، واستخدموا فى بنائه مونة مكونة من طمى النيل وقد أمسكت بعضها ببعض كسوة سميكة من أحجار طره الجيرية . وكان لهذه الطريقة فى بناء الأهرام أضرار جسيمة ، إذ لا يوجد ما يعوق سرعة

تحطيم البناء كله إذا ما أزيل جزء من الكسوة الخارجية ، وكان طول قاعدة الهرم عند بنائه ٢٥٨ قدما تقريبا ، وارتفاعه العمودى ١٧١ قدما تقريبا ، أى أنه أكبر من أى هرم من أهرام أسلافه المباشرين .

وكان هذا الهرم فريداً فى ظاهرة واحدة فقط ، إذ بنوا حول قاعدته كلها إطاراً مربعاً ، وكسوه بأحجار طرة الجيرية ، ولم تكن له فتحة إلا فى الناحية الشرقية فقط حيث يتصل المعبد الجنازى بواجهة الهرم . ويرتفع هذا الإطار الذى يبلغ عرضه ٢١ قدماً إلى مستوى المدماك الثانى ، أو ربما الثالث ، من كسوة الهرم . ونظراً لأنه بنى ملاصقا مباشرة للكسوة ، فيتحتم أن يكون قد أضيف إلى الهرم بعد أن تم بناء الجزء الأسفل منه على الأقل .

وهناك فى الواقع كل ما يجعلنا نعتقد أنه كان إضافة إلى التصميم الأصلى ، لأن جكييه وجد أن الجوانب الشمالية والجنوبية والغربية من السور المحيط بالهرم قد فك بناؤها ثم أعيد بعد ذلك على مسافة أبعد من الهرم ، وربما كان ذلك لإفساح مكان لبناء الإطار . ومن الصعب أن نفهم لماذا عملت هذه الإضافة ، ولكن ربما أوجبها زلزال هز كيان البناء كله فبنوا هذا الإطار لزيادة متانته . ويرى البعض أن هذا الإطار ربما يفسر البناء المستطيل المضاف إلى قاعدة الهرم عند ما يستعمل كعلامة هيروغليفية (◬) ؛ ولكن من الصعب الاقتناع بذلك لأن هذا الإطار ليس له شبيه معروف ، ويبدو أن تنفيذه فى هذه

الحالة جاء فيما بعد كنتيجة أملتها حادثة معينة ، وأغلب الظن أن العلامة الهيروغليفية السابق الإشارة إليها تمثل الهرم يعلو فوق جدار السور المحيط به.

واكتشف چيكييه عند فك جزء من الإطار خارج مدخل الهرم أن بعضاً من الأحجار التي استخدمت في بنائه مزينة بالنقوش ، ومن المعتاد أن النقوش التي تدخل في بناء الجدران أو المباني لابد أن تكون من مخلفات مبان أقدم عهداً تستخدم غالبا بعد مرور قرون كثيرة. ولكننا نجد أن هذه النقوش كانت دون شك من العصر نفسه كتلك التي في المعبد الجنازي المجاور ، وإن الاستنتاج المنطقي ليدل بوضوح على أنها كانت في يوم من الأيام جزءاً من البناء الذي هدم في الوقت الذي أضيف فيه الإطار إلى جوانب الهرم .

ويمكن تحديد طبيعة البناء من هذه النقوش القريبة الشبه بتلك التي كانت في المقدس ، وذلك في اشتمالها على صفوف الموظفين الذين يحملون القرابين إلى الملك الجالس إلى مائدة ، وعلى مناظر ذبح الحيوانات ، وفي ذلك ما يجعلنا نرجح أن البنائين قد صمما للقيام بوظائف متشابهة . فنحن نعرف وجود هيكل للقرابين عند مدخل القبر وذلك في هرم تيتي أول ملوك الأسرة السادسة ، كما نعرف أمثلة أخرى من عصور متأخرة ، ولهذا لا يكاد يوجد شك في أن هيكلا من هذا النوع بني أيضاً عند مدخل هذا الهرم (شكل ٢٤ — ٧) ، ولكن إضافة

الإطار استلزمت إزالته ، وربما حل محله فيما بعد هيكل جديد لم يبق له أثر الآن ، أو أنهم عدلوا عن التخطيط الأصلي .

وكانت كل أهرام الأسرة السادسة متشابهة فى التصميم العام وفى ترتيب أجزائها الداخلية . فينحدر ممر المدخل إلى أسفل انحداراً شديداً لمسافة قصيرة ، ثم يستمر أفقيا إلى أن يصل إلى ردهة مربعة بين السرداب وحجرة الدفن . وفى بداية القسم الأفقى يتسع الممر ويرتفع سقفه فيتكون منه ما يشبه الحجرة . وقد وجد چيكييه داخل هذه الحجرة فى هرم ببى الثانى بعض قطع من أوانى المرمر والديوريت نقش عليها اسم الملك مع أسماء بعض من سبقوه ، واستنتج من فحص هذه القطع أن الأوانى ربما كانت تحوى عطورا كسرت عمداً أثناء القيام بشعيرة دينية عند مدخل القبر . ونقشت متون الأهرام على جدران هذه الحجرة وعلى كل الجدران الباقية فى داخل الهرم ، باستثناء تلك الأجزاء من الممر التى كسيت بأحجار الجرانيت ، والسرداب والطرف الغربى من حجرة الدفن المجاورة للتابوت حيث كسيت الجدران بالمرمر وزينت برسوم تمثل باباً وهميا وبعض دخلات وخرجات .

وبالرغم من أن هذه المتون ليست محفوظة جيداً مثل متون أوناس ، إلا أن كلا منهما تتشابه فى كثرتها ، وأن محتوياتها مرت بدور التطور ووصلت إلى مستوى عال .

ويقع خارج السور المحيط بهرم الملك ثلاثة أهرام صغيرة خاصة بالملكات أوجبتن (Ujebten) وإبوت (Iput) ونيت (Neit). (شكل ٢٤ — ٩ و ١٠ و ١١) أما الملكة الرابعة المسماة عنخس — إن پپی (Ankhes-en-Pepi) التى تزوجها فى آخر أيام حكمه الطويل والتى عاشت بعده بمدة فلم تدفن فى هرم . وكان لكل من الأهرام الثلاثة مجموعته الخاصة به ، والتى تضمنت فى صورة مصغرة العناصر الأساسية للمعبد الجنازى والسور الذى يحيط بهرم الملك ، ويمكن رؤية أوضح الأمثلة لتخطيطها وتنظيمها فى هرم نيت (شكل ٢٤ — ١١).

ففى الركن الجنوبى الشرقى من جدار السور الحجرى المحيط بالهرم، يوجد مدخل ضيق يوصل إلى ردهة تتصل بدورها بفناء مكشوف محاط من جوانبه الثلاثة بأعمدة مربعة ، وزينت جدران كل من الردهة والفناء بنقوش بارزة تمثل الملكة وهى تقدم القرابين لإلهات مختلفة أو تتقبل التحية من أسرتها وأتباعها . ويخرج ممر من الركن الشمالى الغربى للفناء ويمر بمجموعة من خمسة مخازن وفناء صغير فيه ثلاث كوات للتماثيل والمقدس . ويقع خلف الحجرة الطويلة والكوات سرداب أقيم داخل البناء ، وهو بذلك يشبه السرداب الذى بين الكوات والمذبح فى معبد الملك .

ولم يكن هرم الملكة نيت — الذى يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة ٧٩ قدما وارتفاعه نحو ٧٠ قدما — فى كل معالمه الأساسية إلا نسخة

مصغرة من هرم الملك، وأقيم أمام مدخله هيكل للقرابين كانت جدرانه الداخلية مزينة جزئيا بنقوش تمثل الملكة وهى تتسلم المأكولات : ووضع مذبح للقرابين الجنازية عند قاعدة الباب الوهمى الذى قام مقام الجدار الجنوبى من الهيكل . ولما كان هذا الباب يغطى فتحة الممر إلى الهرم فلا بد أنه لم يوضع فى مكانه إلا بعد عملية الدفن ، أما داخل الهرم فإن الجدران الجانبية الممر بعد سقاطة الجرانيت الوحيدة كانت مغطاة بمتون الأهرام إلى حجرة الدفن ما عدا طرفها الغربى حيث كسيت الجدران بالمرمر ، وزينت برسوم الباب الوهمى والدخلات والخرجات . وكان التابوت الجرانيتى عند العثور عليه فارغا وبدون غطاء .

وكان إلى جواره ، مدفونا فى أرضية الحجرة : الصندوق الكانوبى المصنوع من الجرانيت والذى كان يحتوى يوما ما على أربعة أوان وضعت فيها أحشاء الملكة . وفى الناحية الأخرى من حجرة الدفن توجد طرقة قصيرة تؤدى مباشرة إلى السرداب دون وجود الردهة التى تفصل بينهما كما هو الحال فى هرم الملك .

وربما كان أهم شىء للمجموعات الهرمية الثلاث للملكات تلك الأهرام الإضافية بالقرب من الركن الجنوبى الشرقى لكل هرم منها . ففى مجموعات أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة كان بعض علماء الآثار المصرية ينظرون إلى تلك الأهرام الإضافية على أنها قبور للزوجات الملكيات، نظرا لمشابهتها للأهرام الإضافية التى أقامها خوفو

ومنكاورع ، والتى لها فى الحقيقة كل مظاهر القبور الملكية ؛ ولكن هذا الظن أصبح بعيد الاحتمال بعد أن عرفنا أن ببى الثانى ، مع أنه ضمّن مجموعته الهرميــــة هرما إضافيا ، إلا أنه بنى أهراما منفصلة بمجموعات هرمية للملكاته ، فدُحضت هذه النظرية نهائيا بعد أن ثبت أن كل مجموعة هرمية للملكات قد احتوت أيضا على هرم إضافى . وبالرغم من أننا لا نعرف التفسير الثابت الصحيح لوجود هذه الأهرام ، فإن بعض البيانات عن الغرض الحقيقى من وجودها قد أمدنا به هرم نيت الإضافى الذى كان مملوءا بأوان من المرمر والفخار . وعلى ذلك فالأرجح أنهم كانوا يظنون أن تلك الأوانى كانت تكتسب من محتوياتها فضلا خاصاً وإلا لكانوا وضعوها فى المخازن .

ووجد چيكييه فى الفناء الصغير خارج هرم نيت الإضافى ستة عشر نموذجا لمراكب دفنت جنباً إلى جنب فى حفرة غير عميقة . ومع أن وجود مثل هــذه النماذج فى الدولة القديمة كان نادراً نسبياً ، إلا أن مقابر الفترة الثانية والدولة الوسطى كثيراً ما اشتملت عليها كجزء من أثاث حجرة الدفن ، وكانت توضع فوق غطاء التابوت . ولم يكن الفرق بين مكان النماذج فى العصرين بمحض الصدفة ، ولكنه كان على الأرجح نتيجة لاختلاف الغرض منهما . ففى الدولة الوسطى كانوا يقصدون من استعمالها أن تكون لفائدة المتوفى فى الحياة بعد الموت ، ولهذا كان من الضرورى أن تحفظ بنفس العناية التى يحفظ بها باقى أثاث القبر .

أما المراكب الموضوعة تحت أرض مجموعة نيت الهرمية فكانت صورة مصغرة للأسطول المستعمل فى جنازة الملوك لنقل الجسم إلى مبنى الوادى .

وقد بنى هرم نيت على مسافة بعيدة من الوادى ، فلم يخصص له مبنى للوادى أو طريق جنازى لأن الوصول إلى مكانه عن طريق الماء كان أمراً غير عملى ، ولكن رغم ذلك فقد كان للاحتفال بنقل الجسم فى مركب درجة من القداسة أجبرتهم على وضع بديل عنها من نماذج المراكب ، فمتى وصلت الجثة إلى القبر تصبح وكأنما قد أدت وظيفتها ، وكانت تدفن بعد ذلك فى حفرة بسيطة معرضة لما يلحقها من أذى النمل والقوى المدمرة الأخرى .

ويبدو أن ببى الثانى كان آخر ملك فى الدولة القديمة بنى مجموعة هرمية على نمط كبير ، وقد ترك أحد خلفائه ويسمى إيبى (Ibi) هرما لم يتم بناؤه ، ولكن لم يزد حجمه عن هرم نيت وتنقصه المبانى المعتادة الملحقة به . ولم يكن هذا التدهور نتيجة لتغير مفاجئ فى العقائد الدينية ، وإنما كان مرجعه إلى نقص الثروة وفى نفوذ العرش ، وهى الحالة التى استمرت بعد ذلك مدة تزيد على مائتى سنة . فمنذ الأسرة الرابعة اعتاد الملوك مكافأة رجالهم لا بتشييد المقابر لهم فحسب ، بل بإقطاعهم قطعا ذات قيمة من الضياع الملكية التى خصصت غلتها لتزويد المقابر بالمأكولات . وكانت مثل هذه الأراضى الموهوبة تعفى عادة من الضرائب ، ومع مرور الأيام أصبح مجموعها كبيراً وسبب

نقصاً في مسوارد الخزانة وأثر على الدخل . وزيادة على ذلك فنى الأسرتين الخامسة والسادسة أصبحت وظيفة حكام الأقاليم وراثية ، بعد أن كان الملك يمنحها سابقاً لمدة معينة أو مدى حياة من يعينه فيها . وكانت نتيجة ذلك أن تكون جيل من أمراء الأقاليم لم يعودوا يشعرون بأنهم مدينون بمراكزهم لعطف الملك بل اعتبروها كحق ينالونه بفضل مولدهم . ولكن النتائج التى ترتبت على هذه التطورات لم يظهر أثرها إلا فى نهاية حكم ببى الثانى الطويل ، عندما أدت كهولته إلى نقص فى الهيبة الشخصية التى كان يتمتع بها الملك سابقاً ، فلم يمض على موته إلا فترة قصيرة حتى ساءت الأمور في البلاد ، وخاصة فى الشمال عند ما تعرضت لغزو أسيوى ، وأصبت أمورها الداخلية الانحلال ، وعادت مرة ثانية فانقسمت إلى أقاليم تشبه تلك التى أخضعها الملك « منا » عند ما وحد الأرضين فى بداية العصور التاريخية .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على أهم المعالم الفنية فى المجموعات الهرمية للأسرتين الخامسة والسادسة نجد أن أهم ما استحدثوه هو الأعمدة الجرانيتية التى على شكل النبات ، وكذلك الزيادة العظيمة فى استعمال النقوش على الجدران . وقد استعمل زوسر من الأسرة الثالثة من قبل الأعمدة التى على هيئة ساق بردى أو زهرة لوتس ، ولكنها كانت تصنع من الحجر الجيرى ولم تقم فى وسط حجرة بمفردها ؛ ولسنا نعرف شبيها لها فى الأسرة الرابعة . ونرى فى مجموعة خفرع الهرمية

ـ إذا اعتبرناها نموذجاً لعصره ـ أن أعمدة ذلك العصر كانت مستطيلة وخلت من الزخرفة خلواً تاماً ، وفى عهد ببى الثانى فضلوا استعمال الأعمدة المستطيلة مرة أخرى ، ولكنها لم تكن خالية من الزخارف ولم تكن أيضاً من الجرانيت .

ولم تصل نقوش الأسرة الخامسة إلى المستوى الفنى لنقوش الأسرة الرابعة ، ولكنها غطت مساحات كبيرة تشمل مواضع كثيرة وكانت أكثر حيوية فى تعبيرها . وإلى هذه الحقبة من الزمن تنتمى بعض المصاطب الهامة فى سقارة ، ومن أكثرها شهرة بنقوشها مصطبة تى وبتاح حتپ . وقد أنتجت الأسرة السادسة أيضاً أمثلة عظيمة من جمال النقوش ، أحسنها تلك التى فى مجموعة ببى الثانى الهرمية وفى المصطبة القريبة من هرم تيتى ؛ ولكننا نرى فى أكثرها تدهوراً واضحاً فى قيمتها الفنية ، برغم ما فيها من حيوية بالغة وتنوع فى الشكل .

وبينما وصلت إلينا كميات هائلة من النقوش فى مدافن ملوك الأسرة الخامسة والسادسة ، فإننا نلاحظ أن عدد التماثيل التى عثر عليها لهؤلاء الملوك الذين صنعت من أجلهم تلك النقوش قليل جداً . وليس هناك ما يدعو إلى الشك فى أن كل معبد قد ضم فى الأصل خمسة تماثيل على الأقل فى الكوات، كما أقيمت تماثيل أخرى فى الأبهاء المكشوفة .

كما احتوت معابد الأسرة السادسة التى كانت مزودة بسراديب

على عدد من التماثيل التى أخفيت تماماً عن الأنظار . ويمكننا أن تتخيل القيمة الفنية لهذه التماثيل المفقودة لا من القليل الباقى منها فحسب — مثل رأس التمثال الكبير للملك أوسركاف المكتشف فى معبده بسقارة — بل من التماثيل الكثيرة للأتباع والموظفين المعاصرين التى عثر عليها فى المصاطب . ولا شك أن أعظم القطع الفنية يرجع تاريخها إلى الجزء الأول من عصر الأسرة الخامسة ، عندما كانت الدروس التى تعلموها من المثالين الذين نحتوا التماثيل الرائعة لخفرع ومنكاورع ما زالت ماثلة فى أذهانهم . وفى النصف الأخير من الأسرة الخامسة وفى الأسرة السادسة هبط مستوى فن النحت هبوطا محسوسا، ولكنهم أنتجوا فى هذه الفترة بضعة أمثلة تسر النفس من بينها ذلك التمثال المصنوع من المرمر للملك ببى الثانى وهو طفل (لوحة ١٣ ا) .

الفصل السادس

أهرام العصور التالية

فى أعقاب الدولة القديمة عانت مصر عصرا من أحلك مامر عليها فى تاريخها الطويل ، فلم يهتم أحد بتقدم الفنون والصناعات ، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إن معظم المعابد والمقابر من عصر بناة الأهرام بما فيها من قطع فنية وكنوز مخبوءة قد نهبت وخربت تخريبا منظما . ويذكر مانيتون أن الأسرتين السابعة والثامنة كانتا من حكام اعتلوا العرش فى منف وحكموا عهودا قصيرة . وكان سلطانهم محليا فقط . وعمت الفوضى الشاملة معظم أنحاء البلاد حتى لقد ظل معظم الأراضى من غير زراعة ، وأنشبت المجاعة أظفارها فى عدد من الأقاليم . وبدا فى وقت من الأوقات — أثناء عصر الأسرة الثامنة — أن محاولة قامت لإعادة الاستقرار فى ثمانية أقاليم من أقصى الجنوب ، إذ تكون حلف تحت زعامة أمير قفط . وبعد أربعين عاما غزا أمير إهناسيا (Herakleopolis Magna) — ويسمى خيتى — مصر العليا كلها إلى حدود الشلال الأول عند أسوان . وأصبح مؤسس الأسرة التاسعة (سنة ٢٢٣٠ ق . م) وامتدت مملكته شمالا حتى منف ، ولكنها لم

تشمل كل الدلتا لأن جزءا منها ظل تحت سيطرة الغزاة الأسيويين

وبعد مائة سنة تقريباً من غزو خيتى ، ثار أنتف أمير طيبة ضد ملك إهناسيا المعاصر له ، وأعطى نفسه لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى. واتخذ اثنان من خلفائه نفس اللقب ، وكان كلاهما يسمى أنتف ولكن حملهم للقب لم يكن إلا ادعاء على غير أساس ، لأن مملكتهم — مع أنها تضم كل البلاد الواقعة فى الجنوب حتى أسوان — إلا أنها لم تمتد فى أى وقت من الأوقات إلى ما بعد أبيدوس فى الشمال .

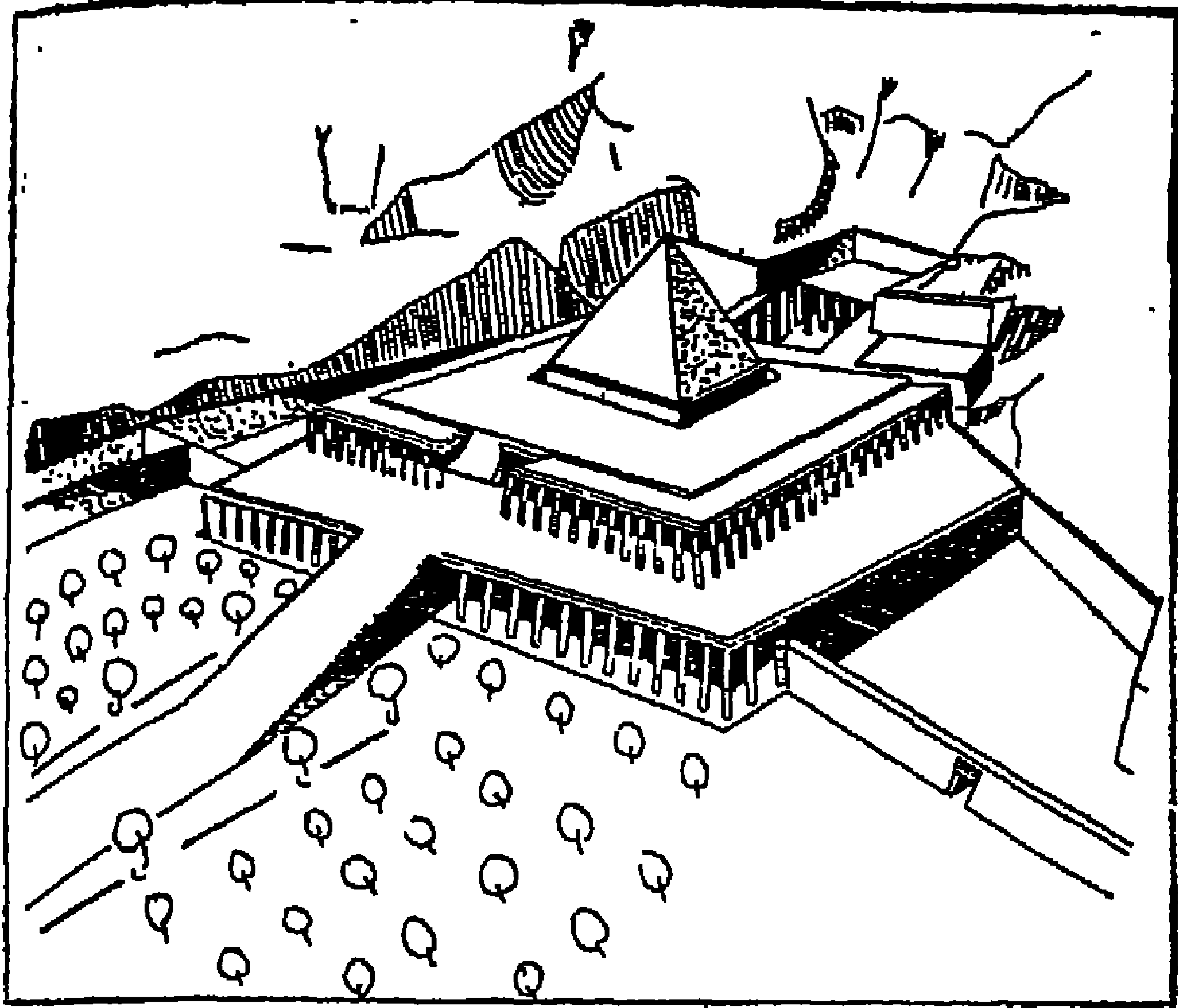
وبالرغم من ملكهم المحدود فإنهم اعتبروا فيما بعد أنهم أول ثلاثة من ملوك الأسرة الحادية عشرة . وسمى الملوك الثلاثة الباقون من ملوك هذه الأسرة باسم منتوحتب (Menthuhetep) وكان ثانيهم المسمى نب — حبت — رع منتوحتب (Neb. hepet-Ra Menthuhetep) من أعظم ملوك مصر . فاستولى فى أول سنى حكمه — الذى دام واحدا وخمسين عاما — على أبيدوس التى كان قد أضاعها سلفه ، وزحف شمالا ليقهر منافسه فى إهناسيا ، وأقام نفسه ملكا على مصر كلها دون منازع .

وإذا اعتبرنا بعض النقوش التى زينت يوما هيكلا بناه نب ، حبت . رع منتوحتب فى جبلين (Gebelein) صالحة لتكون وثيقة تاريخية ، فإنه قاد أيضا حملة ناجحة ضد النوبيين والليبيين والأسيويين، ولكن ما يستنتج من هذا النوع من الآثار لا يمكن التعويل عليه ،

وبالرغم من أنه اقتـــدى إلى حد ما بما فعله مينا قبله بألف عام ، إلا أنه لم يقم بنقل عاصمة ملكه إلى الشمال بل استمر يعيش فى طيبة التى أصبحت لأول مرة مقرا للحكومة .

ونحن لا نكاد نعرف إلا القليل من المعلومات الصحيحة عن إدارته الإقليمية ، ولكن من المرجح أن أمراء الأقاليم — ماعدا عدد قليل من بينهم — عينهم الملك فى وظائفهم ولكنه سحب منهم الحق فى وراثة هذه المناصب . وبدأت الفنون تنتعش بعد أن بقيت مهملة قرنين ونصف قرن من الزمان . وخلف مثال من هذا العصر يسمى إرتيسن (Irtisen) نقشا — يوجد الآن فى متحف اللوفر — سجل فيه : « كنت فنانا بارعا فى فنى ، متفوقا فى علمى .. عرفت [كيف أصور] الحركات فى صورة الرجل وقوام المرأة ... وموازنة الذراع عند التغلب على فرس النهر ، وحركات الشخص الجارى .. وليس فى استطاعة أحد أن ينجح فى كل هذا [العمل] إلا أنا وابنى الأكبر من صلبى » .

ولم يكن النحت هو الفرع الوحيد للفنون التى انتعشت فى عصر نب . حپت . رع منتوحتپ ، فقد تقدم فن المعمار تقدما ملحوظا كما يتضح ذلك من معبده الجنازى الفريد فى نوعه ، وهو المعبد الذى قام بحفره إدوارد ناڤيل (Edouard Naville) وﻫ . ر . هول (H. R. Hall) لحساب جمعية الأبحاث المصرية (Egypt Exploration Fund) فى



شكل ٢٥ — المعبد الجنازى لـ « نب . حبت . رع منتوحتب »
كما كان عند تشييده

الأعوام ١٩٠٣ — ١٩٠٧ ، ثم بعد ذلك مرة أخرى ﻫ . إ . وينلوك (H. E. Winlock) لحساب متحف المتروپوليتان بنيويورك (شكل ٢٥ ولوحة ١٢).

بنى هذا المعبد فى طيبة فى جون عميق بين صخور الجبل على الضفة الغربية من النهر فى المنطقة المعروفة باسم الدير البحرى ، وهو يحوى فى تصميماته كثيراً من التجديدات تستلفت النظر . فلهذا المعبد طريق

جنازى غير مسقوف يبلغ طوله ثلاثة أرباع الميل ، على كل من جانبيه جدار من الحجر ، ويمتد من مبنى الوادى على حافة الأراضى المنزرعة ثم يصعد فى حافة الهضبة إلى فناء كبير محاط من كل جوانبه ماعدا الغربى منها بجدران عالية . ووضعت تماثيل للملك من الحجر الجيرى ، يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة ٣٠ قدما ، وتمثله فى صورة مومياء الإله أوزيريس مستندة إلى الجدران الداخلية للطريق الجنازى . وعند الطرف الغربى للفناء الأمامى أقاموا صفين من الأعمدة المربعة حجبت الجانب الشرقى من شرفة عريضة أقاموا فوقها المعبد . وكان من بين النقوش الملونة التى تزين كسوة الشرفة مناظر لحملة حربية على الأسيويين ، وصفوف الأسرى الاجانب ، وفرق من الجنود المصرية المسلحة بالأقواس ، وأسطول من السفن . وأمام هـــذه الأعمدة زرعوا — فى حفر مملوءة إلى عمق ٣٠ قدماً بخليط من التربة السوداء ورمل النهر — صفوفا من الأشجار كانت تبدو كالغابة الصغيرة . وكانت كل هذه الأشجار من الأثل ، ماعدا ثمان منها — كل أربع على أحد جانبى الطريق الصاعد إلى أعلى الشرفة — فقد كانت من الجميز ، وكانت كل شجرة منها تظلل تمثالا جالسا للملك .

وقد نحت جزء من الشرفة فى الصخر وبنى الجزء الآخر بالحجر ، وتشبه فى شكلها حرف T مقلوبا . وكان الجزء المتقاطع منه متاخما للفناء الأمامى ، أما الجذع فقد نحت فى واجهة الجبل . وفوق الجزء

المتقاطع أقيم مبنى مربع زينت واجهاته الخارجية كلها — باعدا الغربية منها — بأعمدة . أما جدرانه الأربعة فقد زينت كلها من الداخل والخارج بنقوش ملونة لم يبق منها إلا أجزاء قليلة . ويعلو فى وسط الشرفة هرم أقيم فوق قاعدة مستطيلة عالية ، وكان بناء متينا للغاية ، بناؤه الداخلى من الرديم وكسى بأحجار جيرية مصقولة ، ولا توجد فيه ممرات أو حجرات . ويقع بين القاعدة التى تحت الهرم وجدران المبنى ممشى يحمل سقفه المسطح أعمدة مثمنة ، ثلاثة صفوف فى كل من الجوانب الشمالية والجنوبية والشرقية ، وصفان فى الجانب الغربى . ويقع خلف المبنى المربع فى القسم الضيق من الشرفة فناء تقوم البواكى فى جانبه ، وصالة أعمدة مكونة من ثمانين عمودا مثمنا مرتبة فى عشرة صفوف .

وهناك هيكل صغير بنى داخل صالة الأعمدة ، وكان فيه تمثال ، إما للملك أو لأحد الآلهة ، وكان هذا التمثال فى كوة منقورة فى الصخر .

وأقام نب . حبت . رع منتوحتب صفا من ستة هياكل مكعبة الشكل من الحجر الجيرى ، قبل أن يفكر فى بناء معبد جنازى بهذا الحجم ، وكان خلف كل هيكل بئر عمودية تهبط عميقة فى قلب الصخر ، وفى نهايتها حجرة دفن صغيرة تقع تحت الهيكل تقريباً . وخصصت هذه المقابر والهياكل لست سيدات من العائلة المالكة ، ربما كان بعضهن ملكات والأخريات أميرات ، متن جميعا ودفن فى الوقت الذى

كان الملك يعتزم إقامة معبده الجنازى فى الجزء الأمامى من الشرفة فقط . ولكن امتداد المبنى نحو الغرب أوجب إما إزالة الهيا كل — وهذه عملية لا يمكن تنفيذها دون نقل المقابر كلها إلى مكان آخر — أو أن تصبح هذه الهيا كل جزءاً من المبنى الجديد . وفضلوا الرأى الأخير ، ودخلت الهيا كل ضمن الجدار الذى يفصل المبنى المربع والهرم عن الفناء ذى البوا كى الجانبية ، وأصبح كل ثلاثة منها على جانب من المدخل الذى يصل بين هذين الجزئين من المعبد . ولم يكن هذا الحل موفقاً من جميع الوجوه ، لأن معظم النقوش التى كانت تزين الهيا كل من الخارج غطيت بالجدار الجديد ، ولكن مثل هذا الأمر لم يسبب انزعاجا للتفكير المصرى ، فان وجود النقوش هو الأمر الأهم ، أما إذا كانت النقوش ظاهرة أو غير ظاهرة فهذا شىء غير ذى بال . وبقيت المقابر التى تحت الهيا كل كما هى ولم تتأثر بتوسيع المعبد ، بل أصبحت فى الواقع أكثر حماية إذ أصبح أربع من الست آبار تحت بلاط الأرضية أو الجدران أو الأعمدة الخاصة أو الفناء ذى البوا كى ، بينما غطيت البئران الباقيتان ببلاط وضع من جديد . وإلى هذه العناية والتحفظ فى إخفاء المقابر يرجع الفضل فى أنها — ما عدا اثنتين منها — قد نجت من النهب والسرقة أكثر من مرة . ومن أهم ما احتوت عليه تلك المقابر تابوتان من الحجر الجيرى للملكتين أولاهما تسمى كاويت والثانية تسمى عشيت ، ونرى سطحيهما الخارجيين

مزينين بنقوش غائرة جميلة . ومن بين المناظر المرسومة عليهما بعض ما يحدث في حياة الملكات اليومية ، مثل قيام إحدى الخادمات بتعطيرها وتزيينها ، أو رسمها وهى تشرب اللبن من بقرات رسمت مصحوبة بعجولها ، أو وهى تزور إحدى الضياع الملكية حيث كان الفلاحون منهمكين في ملء مخازن الغلال بالقمح ، أو الاستعداد لوليمة . ورسمت مناظر ملونة ومشابهة لما سبق داخل تابوت عشيت ، بينما كان إفريز الكتابة الملونة هو الزخرفة الوحيدة داخل تابوت كاويت .

وأقام نب — حپت . رع منتوحتب داخل حدود المعبد كلا من قبره الرمزي وقبره الحقيقي ، ويقع مدخل قبره الرمزي في قاع حفرة كبيرة في أرضية الفناء الأمامي . وقطعوا بعد هذا المدخل طرقة لمسافة تبلغ ١٥٥ ياردة في الصخر حتى وصلوا إلى نقطة تقع مباشرة تحت الهرم وانتهت بحجرة متسعة ، وبالرغم من أن هذه الحجرة لم تفتح مطلقا قبل اكتشافها على يد هوارد كارتر في عام ١٩٠٠ فقد كانت عارية من كل شيء ، اللهم إلا من بقايا قرابين ، ومن تمثال جالس للملك يلتف في قماش من الكتان الرقيق ، وتابوت خشبي فارغ . وكان تحت هذه الحجرة ويتصل بها من بئر عمودية حجرة أخرى اشتملت فقط على بضع قدور وثلاثة مراكب خشبية رديئة الصنع . ويظن أن الغرض من وجود هذا القبر الرمزي لاستعماله في حفلة دفن رمزي في عيد الحب سد الذي ربما أحياه الملك في السنة التاسعة والثلاثين من حكمه .

ويؤيد هذا التفسير وجود التمثال الجالس بدلا من جثة الملك ، ويؤيده أيضا زى التمثال الذى يمثل الملك وهو يلبس الرداء القديم الذى كان يرتديه الملوك عادة فى احتفالات الحب سد .

أما القبر الحقيقى فهو عند نهاية نفق أطول من نفق القبر الرمزى ، يبدأ فى الفناء ذى البواكى ويهبط فى خط مستقيم تحت بهو الأعمدة حتى يصل إلى حجرة دفن على مسافة بعيدة تحت صخور الجبل . واحتوت هذه الحجرة التى كانت مكسية بالجرانيت على حوزة من المرمر والجرانيت وضع بداخلها — كما هو المفروض — تابوت خشبى ملون يضم رفات الملك . وعندما وصل المكتشفون إلى هذه الحجرة لم يجدوا من الأشياء المكتشفة داخلها سوى تلك الحوزة ومركبين صغيرين وصولجانات مكسرة وأختام مخروطية وأقواس . ولكنهم لم يجدوا المومياء أو التابوت الخشبى .

ولم يبن مطلقاً معبد جنازى يطابق تماما معبد نب . حبت . رع منتوحتب الجنازى . وقد بدأ الملك الذى تلاه على العرش — واسمه سمنخ . كا . رع . منتوحتب — يعد العدة لإقامة مبنى مشابه فى منطقة لا تبعد كثيراً من جنوبى الدير البحرى ، ولكن نظراً لجلوسه على العرش بعد أن تقدم به العمر فقد مات ولم تكن عمليات البناء قد تقدمت أبعد من الخطوات الأولى ، وأهمل العمل بعد ذلك . ولكن بعد مرور خمسمائة عام جاءت ملكة مشهورة فى عهد الأسرة الثامنة

عشرة تسمى حتشبسوت وكلفت مهندسها سنموت بأن يبنى لها معبداً جنازيا يشمل كل المعالم المعمارية الهامة فى معبد نب . حبت . رع . منتوحتب ، وتلبية لرغبتها صمم سنموت معبداً أكبر وأبهى ، وهو المعبد ذو الشرفات الذى يقع إلى الشمال من بقايا مبنى منتوحتب والذى أصبح بحق من أشهر الآثار المصرية .

وبعد موت سمنخ . كا . رع منتوحتپ مباشرة وقعت البلاد مرة ثانية فى الفوضى ، واعتلى العرش منتوحتپ الرابع الذى كان يسمى أيضاً نب . تاوى . رع ، والذى حكم جزءاً من السبع السنوات التى انقضت قبل أن يعود النظام . ولكن لأسباب مازالت غامضة لم تعترف الوثائق المتأخرة به كحاكم شرعى على البلاد . أما الذى خلفه على العرش فهو وزيره وقائد جيشه أمنمحات الذى أصبح مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وهى أسرة مكونة من أربعة ملوك سموا باسم أمنمحات وثلاثة ملوك سموا باسم سنوسرت (Senusert) وملكة سميت باسم سبك ـ نفرو ـ (رع) .

وكانت الأسرة الثانية عشرة من أعظم الأسر فى تاريخ مصر ، ويتضح من اسم مؤسسها الذى يعنى حرفياً « آمون فى المقدمة » أنه ولد فى طيبة ، حيث كانت عبادة الإله آمون قد أصبحت منتشرة ، إلا أن أجداده ربما عاشوا فى الأشمونين ، الموطن السابق لهذا الإله . ولم يترسم أمنمحات ما فعله ملوك الأسرة الحادية عشرة بجعل طيبة

عاصمة ملكه ، ولكنه استفاد من تجاربهم ومن معلوماته عن الصعوبات التى ربما لاقوها فى بسط سيطرتهم على مصر السفلى من ذلك المكان البعيد ، فنقل مقر الحكومة نحو الشمال وأقام العاصمة فى مكان يطلق عليه اثت . تاوى ، ومعناه « التى قبضت على الأرضين » . ولسنا نعرف تماما موقع اثت تاوى ، ولكن لا بد أنها تقع فى حدود منطقة اللشت حيث يوجد هرما أمنمحات الأول وخلفه سنوسرت الأول .

وكان الموقع الجديد للعاصمة على مقربة من أهم آثار الدولة القديمة التى يمكن رؤيتها منها . ولهذا فضل أمنمحات الاول أن يبنى قبره متفقا مع التصميم الأساسى للمجموعة الهرمية المعروفة لتأثره بها ، ولكنها فى ناحية أخرى فقط ، شابهت تصميم معبد الدير البحرى الخاص بمنتوحتب ، وذلك بإقامتها على أرض مرتفعة وجعل مبانيها على مستويين مختلفين . فقام الهرم على الشرفة العلوية محاطا بسور من الحجر ، وفى الجهة الغربية من الهرم — وعلى نفس الشرفة . ولكن خارج السور الحجرى — نرى صفا من المقابر الخاصة بأفراد الأسرة المالكة ، وعندما قامت بعثة متحف المتروبوليتان بالحفائر هناك عام ١٩٢٠ وجدت أن جميع محتوياتها الداخلية قد نهبت كلها من قديم الزمن . وعلى الشرفة الصغيرة التى تحتها المعبد الجنازى المبنى إلى جواره قامت من الشمال والجنوب مقابر فئة قليلة من المقربين من رجال البلاط ، وأحيطت الشرفتان والمقابر القريبة منهما بسور

مستطيل من الطوب . وهناك خارج هذا السور جبانة تحتوى على مصاطب ما يقرب من مائة نبيل وموظف .

واستعمل أمنمحات الأول عند بناء قلب هرمه وجدران معبده الجنازى عدداً هائلا من كتل الحجر الجيرى المأخوذة من مقابر الدولة القديمة فى دهشور وسقارة والجيزة .

وكان كثير من هذه الأحجار مزينا بالنقوش أو الكتابات ، ولما كان من المرجح أن المبانى التى أخذت منها هذه الأحجار كانت قد تخربت فعلا فإن أخذها من أمكنتها ووضعها فى تلك المبانى صان كثيراً من النقوش التى لولا ذلك لفقدت إلى الأبد . ولكن نظراً للتخريب الكامل الذى أصاب هذا الهرم ومجموعته عند إجراء الحفائر ، فقد تعذر أحيانا التفريق بين الأحجار التى من الدولة القديمة وتلك التى صنعت فى الأسرة الثانية عشرة لتزيين هذا المعبد . ولم يكن من الميسور دائماً معرفة الفرق بين نقوش كل من العهدين ، لأن أمنمحات الأول كان يقلد عن عمد بعض مميزات النقوش فى الدولة القديمة ، وكثيراً ما نقلوا على آثارهم مناظر مشابهة تماما للمناظر الموجودة فى مقابر الدولة القديمة .

وكان مدخل هذا الهرم فى مكانه المعتاد وفى مستوى الأرض فى وسط الواجهة الشمالية ، وأقيم أمامه هيكل للقرابين شبيه بالهيكل الذى وجد فى هرم تيتى وبيبى الثانى ، وبنى فى حائطه الخلفية باب وهمى

من الجرانيت الوردى . ويقع خلف الباب الوهمى ممر مكسى بالجرانيت يؤدى إلى حجرة الدفن ، وكانت هناك سقاطات عديدة من الجرانيت لسد هذا الممر بعد دفن الملك .

ولسنا نعرف عن الترتيب الداخلى لهـــذا الهرم غير وجود الممر ، وذلك لأن ارتفاع مستوى النيل جعل حجرة الدفن مغمورة بصفة مستمرة بالمياه ، وكانت عودة ارتفاع المياه عند محاولة إزالتها من داخل الهرم سريعة جعلت كل الجهود التى بذلت للوصول إليه تبوء بالفشل .

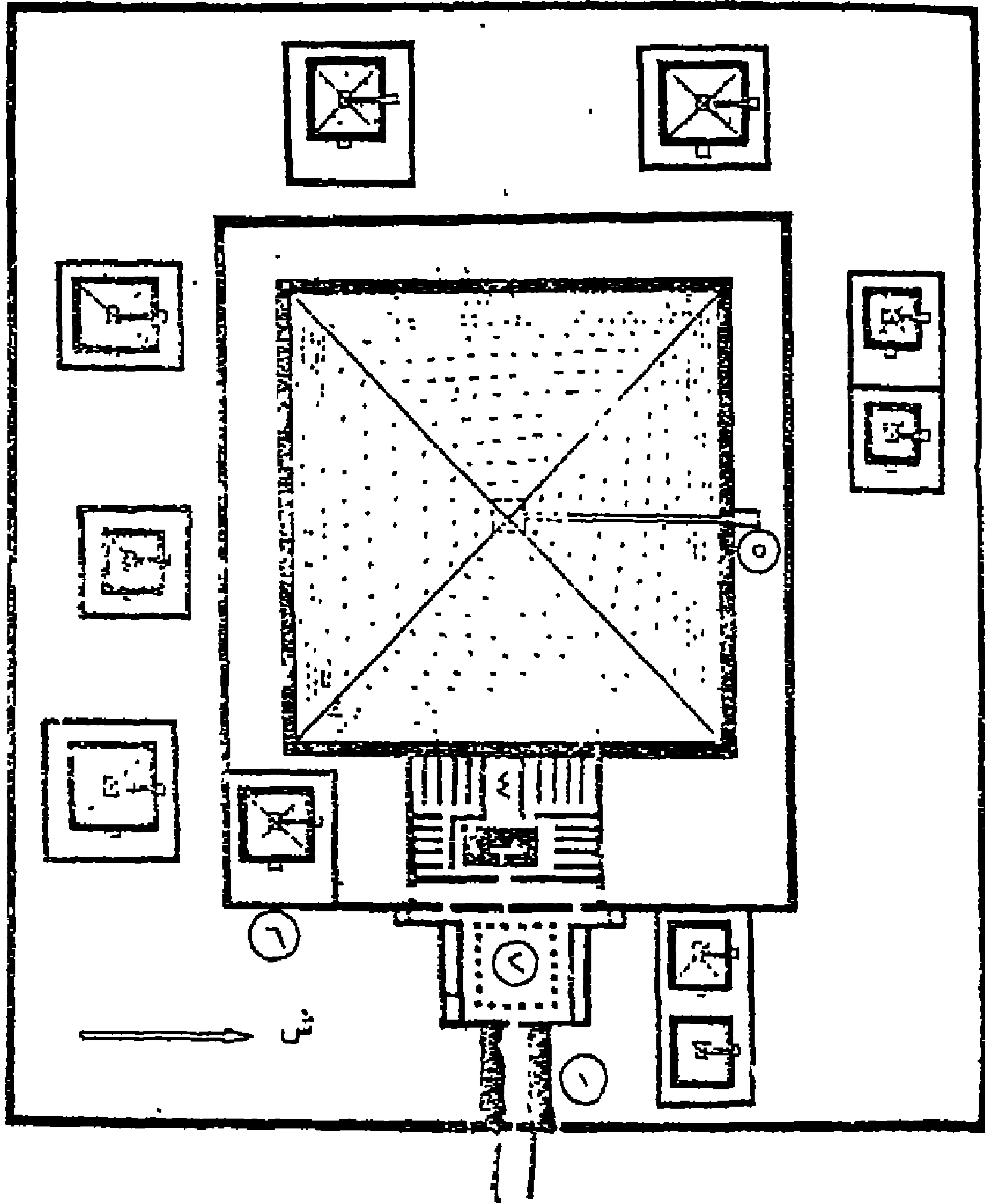
وبنى سنوسرت الأول هرمه على مسافة تبلغ نحو ميل ونصف إلى الجنوب من هرم سلفه ، وحقق ماسپرو عام ١٨٨٢ نسبة هذا الهرم إليه إذ وجد بعض أجزاء من أدوات صنعت من المرمر تحمل اسم سنوسرت الأول داخله . وبعد اثنتى عشرة سنة قام چ . ا . جوتييه (J. E. Gautier) وجوستاف چيكييه (Gustave Jéquier) بحفر جزء كبير من المنطقة ، ونظفت بعثة متحف المتروپوليتان الباقى منه وكذلك الجبانة المتاخمة فى فترات متقطعة بين عام ١٩٠٦ وعام ١٩٣٤ تحت إدارة ا . م . ليثجـــو (A. M. Lythgoe) و ا . س . ميس (A. C. Mace) وأمبروس لانسنج (Ambrose Lansing) .

وتشبه مجموعة سنوسرت الأول الهرمية فى كثير من تفاصيلها مجموعة أمنمحات الأول . ولكن بينما لا نكاد نعرف عن المجموعة

الهرمية لا منمحات إلا الخطوط العامة، فإن الجزء الأكبر من التخطيط الأصلي لمجموعة سنوسرت الأول أصبح معروفا جيدا ، وأصبح معروفا أيضا أنه يكاد يكون صورة من معابد الأسرة السادسة الجنازية ، وعلى الأخص بمجموعة ببي الثانى (شكل ٢٦) .

وبنى فوق الطريق الجنازى ممر عرضه ثمانية أقدام يربط مبنى الوادى — الذى عثر على أثر بسيط منه — ببهو المدخل فى المعبد الجنازى. وقد نقطوا بالأسود والأحمر الإفريز الأسفل من الجدران الحجرية لتحاكى الجرانيت ، وزينوا الأجزاء التى فوقها بالمناظر المعتادة ، وعلى مسافات منتظمة يبلغ طول كل منها حوالى ٣٣ قدما وضعت تماثيل الملك بهيئة الإله أوزيريس على جانبى الممر ، ووضع كل منها فى دخلة الجدار . وأقيمت تماثيل مشابهة لها — عثر على ستة منها فى حفرة قريبة من الهرم — وكانت تستند إلى جدران بهو المدخل (شكل ٢٦-١) وفى هذا ما يثبت أن هـذا الجزء كان معتبرا استمرارا لممر الطريق الجنـازى .

وفى البهو ذى البواكى (شكل ٢٦ — ٢) تماثيل للملك ربما استند كل منها إلى الأربعة والعشرين عمودا التى تحمل سقف الممشى . وعثر جوتييه وچيكييه على عشرة منها ، وهى من أحسن أنواع حجر طره الجيرى ، وكانت موضوعة جنبا إلى جنب فى حفرة أخفيت عن الأنظار فى زمن قديم — مثل التماثيل الأوزيرية — بمعرفة شخص كان يريد أن يحفظها



شكل ٢٦ — المجموعة الهرمية لسنوسرت الأول

من خطر كانت معرضة له . ومع أن هناك بعض فروق بسيطة جدا فى سيماء الوجه إلا أنها كانت فى الحقيقة نسخا طبق الأصل من بعضها ، وكل تمثال منها بالحجم الطبيعى ويمثل الملك جالسا على العرش ومرتديا اللباس الملكى المعتاد (لوحة ١٥) . ولا شك أن هناك تماثيل أخرى تمثله واقفا كانت موضوعة خلف الأبواب الخشبية للكوات الخمس فى المعبد الداخلى (شكل ٢٦ — ٣) . وتحتوى البقية الباقية من المعبد الداخلى على المخازن العادية فقط وبعض الغرف والمقدس (شكل ٢٦ — ٤) . ويبدو أنهم لم يبنوا سردابا ليضعوا عددا آخر من التماثيل داخل البناء بين الكوات والمقدس .

وكان نظام جدران السور الخارجية فى هذه المجموعة يماثل نظام الجدران فى مجموعة أمنمحات الحرسية ، وكان يحيط بالحرم سور داخلى من الحجر . وكان هذا السور مزينا على مسافات منتظمه بدخلات وخرجات نقشت عليها أسماء الملك ، وقد أحاط هذا السور بالحرم والأجزاء الداخلية من المعبد الجنازى والحرم الإضافى (شكلى ٢٦ — ٦) . وبين هذا السور والسور الخارجى المبنى بالطوب اللبن يوجد فناء واسع كان يقوم فيه البهو ذو البواكى وصالة المدخل الخاصة بالمعبد الجنازى وتسعة أهرام صغيرة لأفراد من الأسرة المالكة . وزود كل هرم من هذه الأهرام الصغيرة بمعبد جنازى صغير وهيكل للقرابين وسور يحيط به ، ونحتوا تحت أرضية هيكل القرابين بئرا عمودية ونزلوا

بها إلى عمق كبير ، وحفروا فى الوقت ذاته بئرا ثانية من نفس النوع إلى شرق البئر الأولى ولكنها كانت أقل عمقا وتتصل بالأولى بممر فى أسفلها .

وليس من السهل تفسير وجود البئر الثانية ، وربما قصد بها سهولة إدخال التابوت عند ما كان العمل جاريا فى بناء القبر بعد بناء هيكل القرابين . ومن المحتمل فى مثل تلك الحالة أنهم كانوا يدلون الجثة والتابوت الخشبى إلى البئر الأولى ثم ينقلونهما إلى حجرة الدفن عن طريق الممر الذى سد بسقاطات وضعت على مسافات منتظمة تنزلق إلى الجانب .

وفى حجرة الدفن لأحد هذه الأهرام الصغيرة — وهو الهرم الذى فى الطرف الغربى من الصف الجنوبى — وجد حفارو متحف المتروبوليتان تابوتا جميلا من الحجر الرملى الكوارتزى ولكنه كان فارغا . وكان ذلك التابوت يملأ فراغ الحجرة تماما ، مما جعل اللصوص القدماء عند ما كانوا يبحثون عن الكنز المخبوء فيها ينقبون جوانبه وأرضيته ليصلوا إلى جدران الحجرة ، إلا أن تخريبهم هذا لم يأت بثمرة . وكان هناك صندوق كانوبى صنع من نفس المادة التى صنع منها التابوت وبنفس العناية ، وضعوه فى كوة فى الركن الجنوبى الشرقى من حجرة الدفن ، ولم يكتب على التابوت أو الصندوق الكانوبى ما يمكننا

من الاستدلال على اسم ولقب صاحبهما الذى كان ينتمى دون شك إلى العائلة الملكية .

ويشغل هرم الملك مساحة مربعة طول ضلعها ٣٥٢ قدما تقريبا ويعلو إلى ارتفاع ٢٠٠ قدم تقريبا . ويتكون بناؤه العلوى من ثمانية جدران ضخمة من الحجر تبدأ من وسطه متجهة إلى الخارج إلى أن تصل إلى أركانه الأربعة وإلى منتصف كل جانب .

وقسم كل من هذه الأجزاء الثمانية فى التصليبة إلى قسمين غير متساويين فى الحجم بجدران بنيت موازية لجوانبه وتنتهى عند منتصف المسافة بينها وبين المركز الأوسط . وملئت هذه الأجزاء الستة عشر بقطع من الأحجار الجيرية الخشنة وضعت فى رمل أبيض . ثم بنوا كسوة متينة من أحجار طره الجيرية جعلت البناء كله يتماسك مع بعضه .

ولم يكن مدخل الهرم فى واجهة البناء العلوى ، بل جعلوه تحت بلاط أرضية هيكل القرابين (شكل ٢٦ — ٥) وينحدر منه إلى أسفل ممر مربع طول ضلعه ٣ أقدام وبوصة واحدة متجها نحو حجرة الدفن . وكسوا مسافة طولها نحو ٣٦ قدما من هذا الممر بأحجار منحوتة من الحجر الجيرى ثم كسوا المسافة الباقية منه بأحجار الجرانيت . وبالرغم من أن الجثة والتابوت الداخلى قد نقلا إلى حجرة الدفن عن طريق هذا الممر ، إلا أنه من غير المعقول — نظراً لصغر

أبعاده — أنهم نقلوا التابوت الخارجى عن طريقه أيضا ، وربما نقلوه عن طريق بئر منفصلة مازالت مختفية عن الأنظار تحت خرائب البناء العلوى . ولا نعرف شيئا عن حجرة الدفن التى تملأها وتغطيها المياه مثل حجرة الدفن فى هرم أمنمحات الأول .

وبنى ثلاثة من خلفاء سنوسرت الأول الأربعة مجموعات هرمية فى دهشور على حافة الأرض المزرعة — إلى الشرق من الهرمين اللذين شيدا فى الدولة القديمة وأقدمها كلها — وهى مجموعة هرم أمنمحات الثانى التى لم تحتو على أى تجديد فى التصميم أو فى طريقة البناء ، ولكنها نالت شهرة خاصة فى نهاية القرن الماضى لأنها كانت أحد الأمكنة التى عثر فيها على ماسموه كنز دهشور ، وهو مجموعة ممتازة من المجوهرات والأمتعة الشخصية اكتشفها ج . دى مورجان (J. de Morgan) ومحفوظة الآن فى متحف القاهرة . وكان هذا الجزء من الكنز لأميرتين سميتا خنومت (Khnumet) وإيتا (Ita) كان قبراهما من بين مجموعة المقابر الملكية على مقربة من هرم الملك فى الجانب الغربى منه . وتشهد دقة الصناعة والذوق الفنى فى هذه المجموعة كلها بمهارة الصائغ والجوهرى المصرى فى أعلى درجاتها .

ونبذ سنوسرت الثانى — الذى خلف أمنمحات الثانى على العرش — أهم التقاليد الثابتة فى عمارة الهرم ، وهو كون موقع المدخل فى الواجهة الشمالية . ولا بد أن المزايا المترتبة على توجيه ممر المدخل

نحو بمجموعة النجوم القطبية لم تعد لها الأهمية الكبرى فى نظره ، وأصبحت الأهمية الأولى هى المحافظة على سلامة الهرم بوضع مدخله فى مكان لا يتوقعه من سيحاول سرقته . ولكن هذه الحيطة زادت من متاعب الأثريين ، فإن پترى الذى حفر هذا الهرم — الذى بنوه عند اللاهون على حافة الفيوم — عمل بضعة شهور عام ١٨٨٧ - ١٨٨٨ دون أن يتمكن من العثور على الطريق الموصل إلى الداخل . وبعد أن أنفق مبالغ طائلة وزمناً طويلا فى السنة التالية نجح فى العثور عند الناحية الجنوبية من الهرم على بئر تهبط عمودية ثم تؤدى إلى ممر نحت على عمق ٤٠ قدما تحت سطح الأرض يوصل عن طريق غير مستقيم إلى حجرة الدفن المبنية كلها من الجرانيت . ثم عثر بعد ذلك فى مكان بعيد فى الجنوب أيضاً على بئر ثانية أكبر من الأولى تهبط أيضاً إلى الممر ، وعن طريق البئر — كما لاحظ پترى — أنزل إلى هذا الممر التابوت الفخم المصنوع من الجرانيت الوردى والذى عثر عليه فى حجرة الدفن ، لأن البئر الأولى كانت أقل عرضاً من التابوت بمقدار قدم و ٧ بوصات . ويقول پترى إن هذا التابوت من أجمل القطع الفنية الدقيقة الصنع التى أمكن نحتها فى هذه المادة الصلبة الصعبة . وكان توازى أضلاعه ، بناء على حسابه ، أقرب ما يكون إلى الكمال ولا يزيد الخطأ فيه عن $\frac{1}{100}$ بوصة فى كل ذراع .

وعلاوة على التابوت فقد احتوت الحجرة على مائدة للقرابين صنعت من المرمر .

وفى بنائه العلوى اختلف هرم سنوسرت الثانى فى كثير من النواحى عن أهرام أسلافه ، فقد احتوى بناؤه الداخلى على ربوة من الصخر ترتفع عن سطح الأرض بأربعين قدما ، وفوق ذلك المستوى أقام فوق الصخر شبكة من الجدران السائدة وملأ المساحات المتخلفة بين تلك الجدران بالطوب اللبن .

ثم كسى هذا البناء الداخلى بالطريقة المعتادة بأحجار جيرية من نوع جيد ، وبنوا المدماك الأسفل داخل الأساس الصخرى ليتحمل ضغط البناء الخارجى . ويوجد حول كل جانب من جوانب القاعدة خندق غير عميق مملوء بالرمال كان الغرض منه امتصاص مياه الأمطار التى كانت تنزل على واجهة الهرم . وقدر بترى أن مثل هذا الخندق يستطيع أن يستوعب أى كمية من ماء المطر فى أى مرة تسقط فيها الأمطار بشدة فى مصر . ويحيط بالهرم جداران ، أحدهما من الحجر على حافة الخندق والآخر من الطوب اللبن أقيم بعيداً إلى الوراء . وكان خلف السور الخارجى صف واحد من الأشجار ، زرعت فى الحفر التى نقرت فى الصخر وملئت بالطين .

وبين جدارى السورين المحيطين بالهرم وفى الناحية الجنوبية منه توجد أربع مقابر أعدت لدفن أفراد من الأسرة المالكة . وعند

الكشف عن المقبرة التي فى الطرف الشرقى فى عام ١٩١٣ اكتشف
پترى ومساعده جاى برنتين مجموعة من الجواهر والأشياء الشخصية
خاصة بأميرة تسمى سات — حاتحور — يونت (Sat-Hathor-Iunut)
صاحبة تلك المقبرة . ولا تقل هذه المجموعة ، من أى وجه من الوجوه ،
عن تلك التي سبق العثور عليها فى دهشور . وكان من بين القطع المهمة
فى هذه المجمـــوعة تاج ذهبي فخم ، وصدريتان ذهبيتان مرصعتان
بالعجائن الملونة والأحجار الكريمة على إحديهما اسم سنوسرت الثانى
وعلى الثانية اسم أمنمحات الثالث ، وعقود من حبات من الذهب
وحجر الجمشت (الأماتيست) والعقيق الأحمر واللازورد والفلسپار ،
وعقد مكون من حبات من الذهب على هيئة رأس أسد ، وحبات
فى إطار من الذهب والأحجار الكريمة ، وأساور وخواتم . واشتملت
أدوات الزينة على أمواس شفراتها من النحاس ومقابضها من الذهب
وأوان مرمرية للعطور والدهون ، وأوان أخرى لنفس الغرض
ولكنها مصنوعة من حجر السبج (الحجر الزجاجى الأسود
— أوپسيديان) المصقول ومغلف جزء منها بالذهب ، ومرآة من
الفضة ذات مقبض من السبج والذهب . وقد وضعت هذه المجموعة
فى الأصل فى ثلاث علب من الأبنوس طعمت إحداها على الأقل
بالذهب والعاج والعقيق الأحمر والفيانس الأزرق . وهذه المجموعة

— ماعدا القليل منها الذى فى المتحف المصرى — موجودة الآن فى متحف المتروپوليتان للفنون فى نيويورك.

وسار سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث — اللذان شيدا هرميهما فى دهشور إلى الناحيتين الشمالية والجنوبية من هرم أمنمحات الثانى — على نمط سنوسرت الثانى فى استخدام الطوب اللبن لإقامة البناء العلوى والاستزادة من عدد الحجرات والممرات فى الجزء الأسفل.

واتبعا نفس الطريقة أيضاً فى عدم وضع مدخل المبنى السفلى فى الواجهة الشمالية ولكن عند نقطة بعيدة عن الهرم نفسه لا يمكن العثور عليها إلا بطريق الصدفة أو بعد البحث المضنى. وقد حدث لمورجان عندما قام بحفر هذين الهرمين فى عام ١٨٩٤ — ١٨٩٥ أنه قضى أشهراً عديدة من العمل غير المثمر قبل أن يجد سبيلا إلى حجرة الدفن، وأخيراً استطاع فى النهاية أن يعين موقع مدخل هرم سنوسرت الثالث فى الفناء الذى فى الجانب الغربى منه، وعين مدخل هرم أمنمحات الثالث فى مكان مشابه مواجه الركن الجنوبى من واجهة الهرم الشرقية. ورغم هذه المخادعة فقد فشل معماريو الهرمين فى تضليل اللصوص القدماء، ولم يجد دى مورجان فيهما إلا القليل.

ولكن حظه كان أفضل عندما قام بحفر مقابر أفراد الأسرة المالكة فى الجانب الشمالى من كل هرم، فوجد فى مقبرتى الأميرتين سات — حاتحور ومريت (داخل السور الخارجى لهرم سنوسرت

الثالث) وفى مقبرة الأميرة نوب — حتب (داخل السور الخارجى لهرم أمنمحات الثالث) مجموعة من الحلى من نوع مجموعة الحلى التى وجدت فى مقابر أميرات أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى. ولم توضع هذه الحلى على موميات الأميرات بل أخفيت فى مكان خاص داخل المقبرة ، وكان ذلك سبباً فى ظهور النظرية القائلة بأن مجموعة أخرى من الحلى — ربما كانت من نوع أردأ — كانت تجهز خصيصاً لتوضع مع المومياء ، أما الحلى التى عثر عليها مخبأة فى أماكن خاصة فهى الحلى التى كانت تلبسها الأميرات أثناء حياتهن .

وحكم أمنمحات الثالث ستا وأربعين سنة على الأقل ، وهو من بين الملوك البارزين فى تاريخ مصر ، ولكنه لم ينل شهرته بسبب أعماله الحربية وجرأته أو حسن إدارته، ولو أنه من المحتمل — عندما تزداد معلوماتنا عن الأحوال السياسية والاجتماعية فى عصره — أن يظهر أنه فى هذه النواحى أيضاً يستحق كل تقدير ، وإنما كانت شهرته بسبب أعماله الفنية وإنشاءاته المعمارية ومن بينها الهرمان اللذان اقترن اسمه بهما . ولا شك أن التماثيل التى بقيت لهذا الملك تعد من روائع فن النحت التى أخرجها قدماء المصريين (لوحة ١٣ ب) وهى توضح لنا أعلى درجة بلغتها النهضة الفنية التى بدأت فى عهد نب - حبت — رع منتوحتب واستمرت فى التقدم دون عائق يذكر حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة .

على أنه من قبل أن تكشف الحفائر عن أية واحدة من تلك الروائع الفنية ، كان مؤرخو اليونان والرومان قد خلدوا اسم

أمنمحات الثالث باعتباره منشئاً لبحيرة موريس فى الفيوم ومشيداً لقصر اللابرنت الذى كان على مقربة من البحيرة ، والذى قارنوه بقصر اللابرنت القديم الذى أقامه الملك مينوس فى كنوسوس فى جزيرة كريت . ووصف ديودور — الذى زار مصر فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد — تلك البحيرة بالكلمات الآتية : « موريس ... حفر بحيرة ذات فائدة عظيمة ولو أنها كلفته عناء كبيراً . ويقولون إن محيطها ٣٦٠٠ استاذ[1] وعمقها فى أغلب المواقع خمسون قامة (القامة ٦ أقدام) : فمن ذا الذى يتأمل فى عظمة هذا المشروع ولا يتساءل : كم من عشرات الآلاف من الرجال استخدموا فى هذا العمل ، وكم قضوا من السنين حتى أتموه ؟ لا يستطيع أحد أن ينتقص عمل ملك جاء بمثل هذه الفوائد والمزايا لكل سكان مصر .

« وحيث أن النيل لا يقف عند حدود ثابتة فى فيضانه ، وأن رخاء البلاد يتوقف على تنظيم مياه النهر ، فقد حفر الملك هذه البحيرة ليمد البلاد بفائض مائه ، ولكيلا يغمر النهر بشدة تياره الأراضى فتتكون المستنقعات والبرك ، ولكيلا تتسبب قلة مائه فى التأثير على المحصول عندما يكون فيضانه أقل من الحد المألوف ، لهذا حفر بين النهر والبحيرة قناة طولها ٨٠ استادا وعرضها ٣٠٠ قدم . وبواسطة هذه القناة كان يستطيع أن يجلب ماء النهر فى بعض الأوقات ، وفى أوقات

(١) الاستاد = ١٨٥٫٣ متر . (المعرب)

أخرى يتفادى ذلك ، وبهذا يمد الفلاحين بالماء فى الأوقات المناسبة بفتح مدخل القناة ثم إغلاقه ثانية بطريقة فنية تكلفه أموالا كثيرة لا تقل عن ٥٠ وزنة من ذهب (الوزنة الواحدة تساوى عشرة آلاف جنيه تقريباً) وهى المبلغ اللازم ليصرفه أى شخص يريد فتح أو قفل هذه الفتحة . واستمرت هذه البحيرة تخدم أغراض المصريين إلى أيامنا هذه ، واتخذت اسمها من اسم بانيها ، ومازالت تسمى بحـــيرة موريس »[1] .

ولكن بالرغم من أن أمنمحات الثالث قد قام على الأرجح بتنفيذ بعض مشروعات تتعلق بالرى أو استصلاح بعض الأراضى القريبة من هذه البحيرة ، وبالرغم من أن ديودور وبعض الكتاب القدماء نسبوا إليه أمر إنشائها فعلا ، إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أنها كانت موجودة قبل عصره ، وأن اسمها دون شك غير مشتق من اسمه الأول الذى كان ينطق « نمارا » على الأرجح ، والذى عرفه اليونانيين فى اللغة الدارجة باسم مارس ، بل هو مشتق من بلدة على البحيرة اسمها « مى ـ ور » (أغلب الظن أن موقعها مدينة غراب الحالية) أو من اسم القناة التى كانت تربط النيل بالبحيرة والتى كانت تسمى أيضاً مى ــ ور .

---

(1) Diodorus Siculus, The Historical Library, Bk, I, LI and L II (W. G. Waddell's translation).

ولحسن الحظ ثبتت صحة علاقة أمنمحات الثالث بقصر اللابرنت على أساس تاريخي مكين ، إذ استطاع بترى أن يثبت ذلك فى عام ١٨٨٨ — ١٨٨٩ عند ما قام بالكشف عن الهرم الثانى لهذا الملك فى هواره ، وعرف أن معبده الجنازي صمم فى الواقع على تخطيط يشبه التيه (اللابيرانت) . فقد كان ذلك المعبد بناء ضخما يغطى مساحة يبلغ طولها نحو ١٠٠٠ قدم وعرضها ٨٠٠ قدم ويختلف من حيث التصميم عن كل معبد جنازى آخر معروف ، إذ لا يحتوى على مجموعات من الأبهاء والممرات المؤدية إلى المقدس بل يشتمل على عدد كبير من الأبهاء المنفصلة المرتبة فى صفوف ، ولم يتمكن بترى من معرفة شيء من التفاصيل المعمارية اللهم إلا القليل نظراً لتخربه الكامل . ونستطيع أن ندرك شيئاً من مظهره الذى كان عليه من وصف استرابو الذى كتبه فى أوائل القرن الأول الميلادي ، قال :

« ولدينا هنا أيضاً (إلى جوار بحيرة موريس) اللابرنت : وهو عمل يتساوى مع الأهرام ، ويلاصقه قبر الملك الذى بنى اللابرنت . فإذا ما تقدمنا بعد المدخل الأول للقناة بنحو ٣٠ أو ٤٠ استادا ، لوجدنا سهلا مستويا فيه قرية وقصر كبير مكون من عدد من القصور بقدر عدد ما كان فى مصر من الأقاليم سابقا . ويوجد عدد مساو من الأبهاء الكبيرة المحاطة بالأعمدة ، وهى ملاصقة لبعضها البعض وعلى خط واحد مكونة مبنى واحدا يشبه جدارا طويلا أمامه هذه الأبهاء

الكبيرة . ومداخل هذه الأبهاء فى مواجهة الجدار ، وأمام هذه المداخل طرقات طويلة عديدة مسقوفة تربطها ببعضها البعض ممرات متعرجة ، ولذلك لايستطيع أى أجنبى أن يجد طريقه إلى هذه الأبهاء الكبيرة أو يخرج منها دون دليل يرشده . وأعجب ما فيها أن سقف كل من هذه المبانى مكون من حجر واحد ، وسقفت أيضاً كل الطرقات الموصلة إليها بالطريقة نفسها بكتل من الحجر ذات حجم كبير جداً دون أن يستعملوا معها الخشب أو أية مادة أخرى . فاذا ما صعدنا إلى السقف — الذى لم يكن على ارتفاع كبير لأن البناء مكون من طابق واحد — لرأينا السقوف كأنها حقل من الأحجار ، وعند ما نهبط ثانية وننظر إلى الأبهاء الكبيرة نجدها على خط واحد يحمل سقوفَها سبعة وعشرون عمودا صنع كل منها من حجر واحد . وقد بنيت الجدران أيضاً من الأحجار التى لا تقل حجما عن هذه .

وفى نهاية هذا المبنى الذى يزيد طوله عن ستاديوم (مقياس إغريقى يساوى ٢٠٢ ياردة) نجد القبر وهو هرم مربع الجوانب يبلغ طول كل ضلع منه نحو أربعة بلترونات (البلترون ١٠٠ قدم أو ٣٠٫٨٨ مترا) وارتفاعه مساو لطول ضلعه ، واسم الشخص الذى دفن فيه إيماندس (Imandes) . ويقال إنهم بنوا هذا العدد من الأبهاء لأن التقاليد كانت تحتم على أهالى كل الأقاليم أن يجتمعوا معا حسب

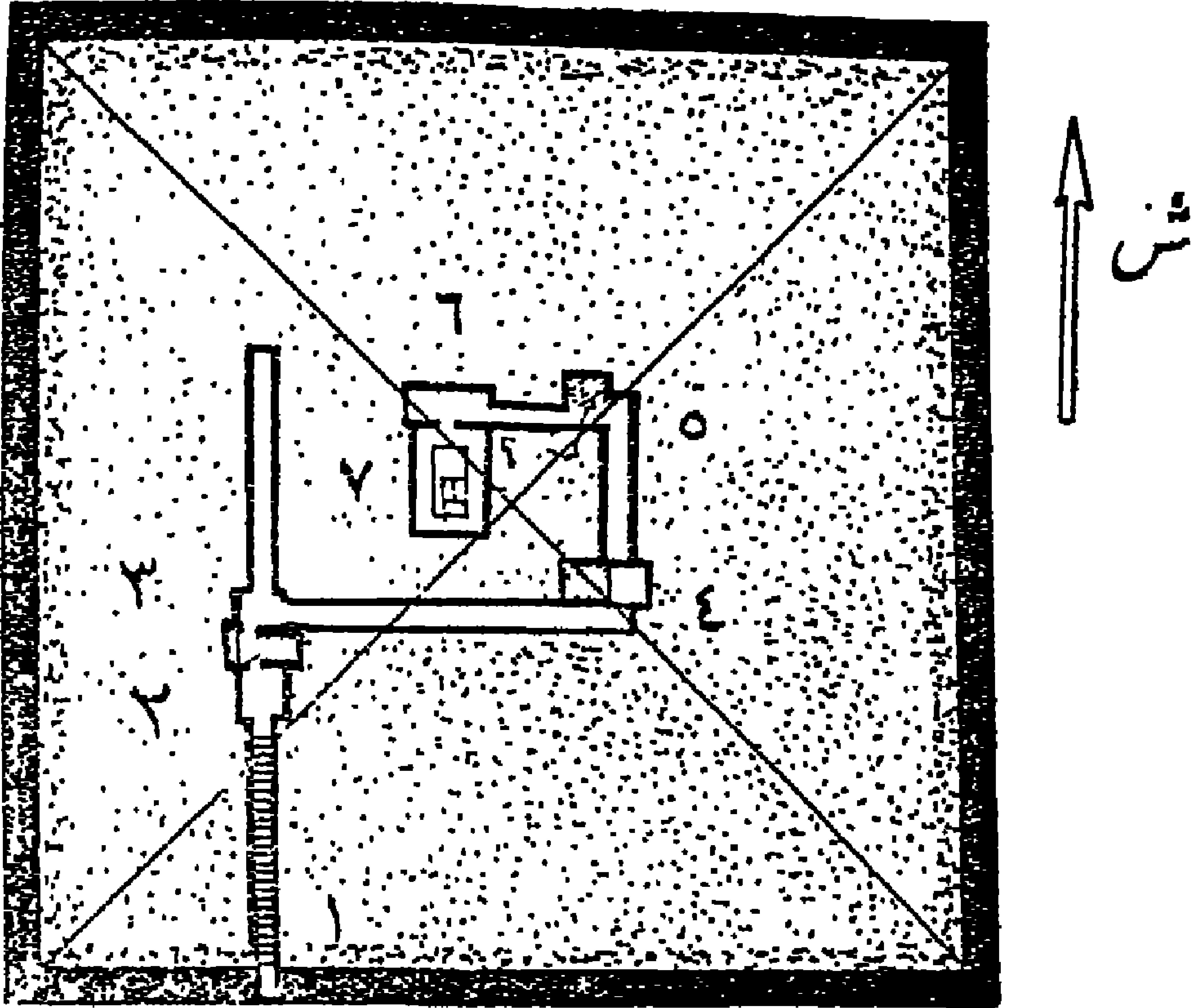
مراتبهم بكهانهم وكاهناتهم لأجل تقديم القرابين للآلهة ولأجل إقامة العدل فى الأمور ذات الأهمية العظيمة ، وكان أهل كل إقليم يذهبون للبهو المخصص لهم»[1].

ويقع الهرم الذى يشير إليه استرابو فى الجانب الشمالى من اللابرنت. وكان بناؤه الغلوى — حسب العادة التى كانت متبعة فى عصره — من الطوب اللبن ومكسيا بالحجر الجيرى . واتبعوا فى بنائه السفلى طرق التعمية والتضليل التى كانت فى أهرام أسلافه ، مما جعل پترى يعجز عن الوصول إلى مراته إلا بعد أسابيع من العمل مدى موسمين . ويقع المدخل على مسافة ٨٠ قدما تقريبا غرب منتصف الواجهة الجنوبية ، وتنزل منه درجات السلم (شكل ٢٧ — ١) إلى حجرة صغيرة (شكل ٢٧ — ٢) يقع بعدها ممر قصير يؤدى إلى مكان مغلق النهاية .

وفى سقف هذا الممر خبأوا كتلة كبيرة من الحجر تزن عشرين طنا وتنزلق انزلاقا جانبيا ، فكانت بذلك نوعا من الباب المتحرك يوصل إلى حجرة ثانية (شكل ٢٧ — ٣) وإلى الممرات التى خلفها ، ووضعوا تصميم أحد هذه الممرات ليخدع أى سارق ينجح فى ولوج الباب المتحرك ، فقد كان — رغم سده إحكام — لا يؤدى إلى أى

(1) Strabo, Geographica, Bk. XVII, I, 37 (Bohn's Classical Library).

مكان آخر . أما الممر الآخر فيغلق بباب خشبي وينعطف مرتين فى زاوية قائمة وله بابان متحركان فى السقف (شكل ٢٧ — ٤ ، ٥)



(شكل ٢٧ — هرم أمنمحات الثالث بهواره)

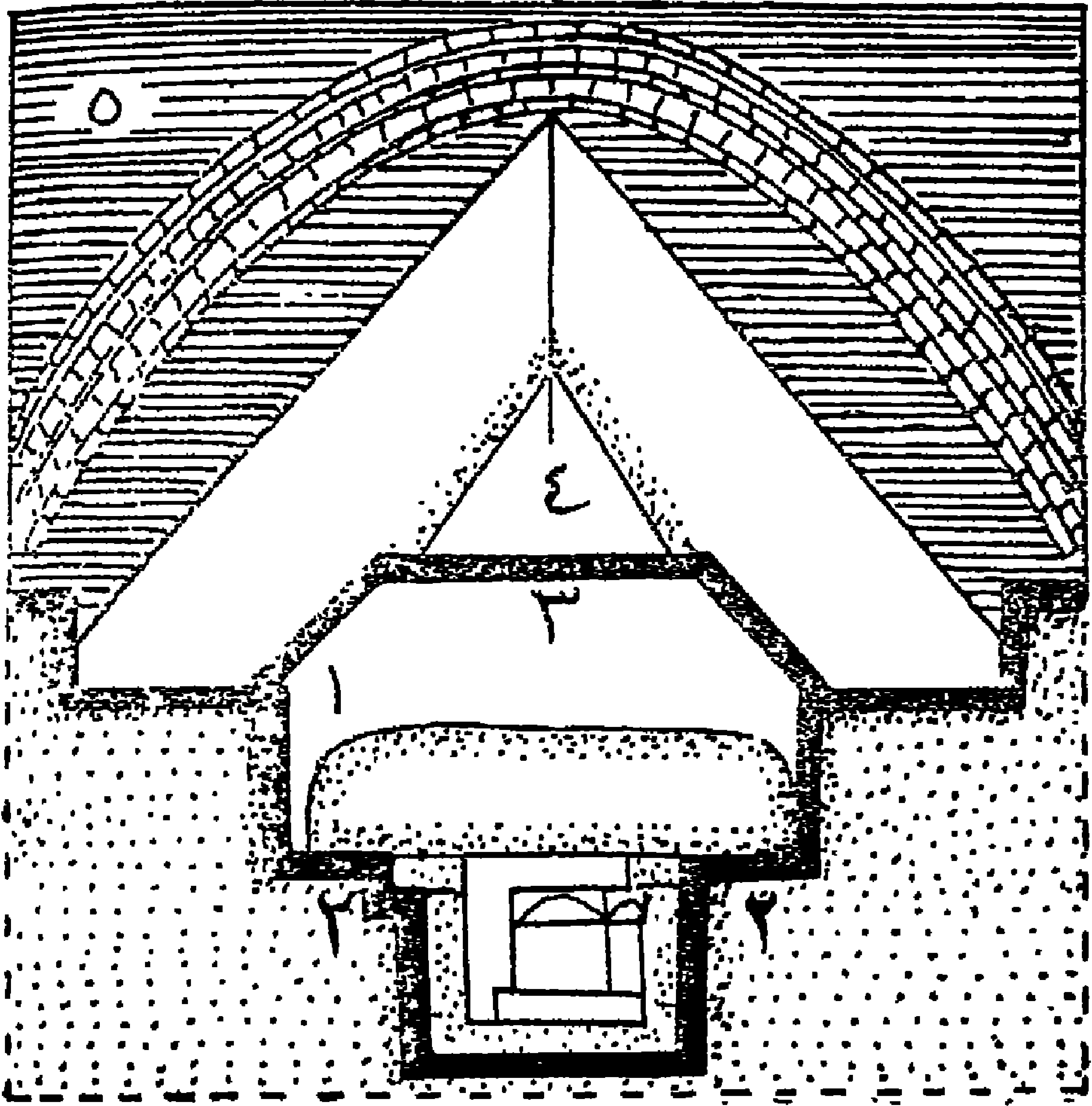
ويؤدى إلى الردهة الكبيرة (شكل ٢٧ — ٦) ، ولكنهم لم يغلقوا هذين البابين بعد الدفن . وحفرت فى كل طرف من طرفى الردهة بئر وهمية لكى تخدع السارق فيتوهم أن حجرة الدفن تقع بعدها ، فيضيع وقته وجهده فى إزالة ما يملأها . وهناك خدعة أخرى هدفوا بها إلى

الغرض نفسه ، وهى سد كل النصف الشمالى من الردهة بالأحجار بالرغم من أنها لا تخفى وراءها شيئاً سوى الجدار .

ولكى نفهم بوضوح الطريق الحقيق الموصل إلى حجرة الدفن (شكل ٢٧ — ٧) لا بد أن نصف أولا الطريقة التى بنيت بها هذه الحجرة . فقبل أن يقام مبنى الهرم العلوى حفرت فى الصخر بئر كبيرة مستطيلة عند نقطة تبعد غرباً عن مركز المساحة التى تغطيها قاعدة الهرم ، وأنزلوا إلى قاع هذه البئر — بعد أن كسيت بالأحجار — حجرة الدفن المكونة من كتلة واحدة من حجر الكوارتزيت الأصفر وعلى هيئة صندوق بغير غطاء . وقد قام پترى بقياس هذه الكتلة وأثبت أن طولها كان ٢٢ قدما ، وعرضها ٨ أقدام ، وارتفاعها ٦ أقدام ، ويزيد وزنها على ١١٠ أطنان . ورغم صلابة مادتها فقد نحتت وصقلت بطريقة رائعة ، وكانت أركانها الداخلية حادة لدرجة أن پترى ظنها لأول وهلة مجمعة من عدة أحجار . ويتكون سقف الحجرة من ثلاث كتل من حجر الكوارتزيت الأصفر وضعت جنبا إلى جنب ويبلغ سمك كل منها ٤ أقدام تقريبا (شكل ٢٨ — ١) .

ولا ترتكز هذه الأحجار مباشرة على جدران كتلة الكوارتزيت ، بل وضعت فوق مدماك من الكتل الحجرية بنيت فوق الجدران لكى يرتفع سقف الحجرة (شكل ٢٨ — ٢) . وكان فوق حجرة الدفن حجرتان ، السفلى منهما ذات سقف مسطح (شكل ٢٨ — ٣)

أما العليا فذات سقف مدبب مكون من كتل من الحجر الجيرى تزن كل منها ٥٠ طناً تقريباً (شكل ٢٨ — ٤) . وأخيراً بنوا قبوا من



(شكل ٢٨ — حجرة الدفن لأمنمحات الثالث بهوارة)

الطوب سمكه ثلاثة أقدام فوق السقف المدبب لكى يحمل قلب بناء الهرم (شكل ٢٨ — ٥) وإلى أن جاء الوقت الذى تم فيه إغلاق القبر

بصفة نهائية، وضعوا كتلة السقف بالقرب من الردهة فوق حمالات تاركة فراغا بينها وبين مدماك الأحجار الذى كان مفروضا أن توضع فوقه فى النهاية .

وقطعوا فى أرضية الردهة خندقا مستعرضا يوصل مباشرة إلى ذلك الفراغ تحت الكتلة المحملة ، وبهذا أمكنهم أن يدخلوا مومياء الملك عن طريق هذا الخندق إلى الفراغ ثم إلى حجرة الدفن ، حيث وضع فيها التابوت الكبير من الكوارتزيت فى مكانه قبـــل إنزال أحجار السقف إلى البئر . ووضعوا داخل الحجرة تابوتا ثانيا أصغر من الأول ومن المادة نفسها للأميرة بتاح نفرو، ووضعوا مع التابوتين الصناديق الكانوبية المصنوعة أيضاً من الكوارتزيت ، وبعد أن تمت مراسم الدفن أنزلوا كتلة سقف حجرة الدفن المحملة والبالغ وزنها نحو خمسة وأربعين طنا ، وملأوا الخندق فى الردهة وغطوه ببلاط حتى لا يبقى أى أثر ينم عن وجوده . ولكن رغم كل هذه الاحتياطات فقد تعرض هذا الهرم لنفس المصير الذى تعرضت له أهرام أسلافه ، ووجد بترى عندما نجح أخيراً فى الوصول إلى حجرة الدفن أن كل الأشياء المنقولة قد نهبت وحرق اللصوص الجثث والتوابيت الخشبية الداخلية .

ولسنا نعرف شيئا عن الظروف التى جعلت أمنمحات الثالث يبنى هرمين ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يكون قبره إلا فى هرم واحد

فلا بد أنه ترك الثانى فارغا ، والأرجح أنه الهرم الذى فى دهشور . وأغلب الظن أن سنوسرت الثالث قد بنى — علاوة على هرمه فى دهشور — قبرا رمزيا على شكل مصطبة فى أبيدوس ، وبهذا أصبح لروحه مقبرة ثانية تستطيع أن تسكنها فى أى وقت تشاء على مقربة من قبر أوزيريس .

ولم يكن هناك من البواعث الدينية ما يرجح اختيار دهشور أو هوارة ، ولذلك يمكننا أن نفرض أن أمنمحات قرر أن يستبدل قبره الأول فى دهشور بهرم ومعبد جنازى أكثر فخامة فى هوارة .

وبموت أمنمحات الثالث انتهت فعلا الدولة الوسطى ، وظهر أمنمحات رابع وملكة تسمى سبك نفرو فى نهاية الأسرة الثانية عشرة ، كما تقول السجلات التاريخية المتأخرة . ولكننا إذا درسنا نقوش الوثائق المعاصرة نكاد نحكم بأن أمنمحات الرابع لم يحكم بمفرده أبدا . بل اشترك فى الحكم مع أمنمحات الثالث ، وهذا ما كان يفعله الوريث المنتظر عندما تتقدم السن بالملك الحاكم . ولم يتول أمنمحات الرابع العرش بمفرده لموته المبكر . وعينت بعد ذلك الأميرة سبك نفرو شريكة فى الحكم ، وربما استمرت شاغلة للعرش بمفردها مدة قصيرة بعد موت أمنمحات الثالث . ولم يترك أمنمحات الرابع ولا سبك نفرو هرما يمكن تعيين مكانه بصفة قاطعة . ولكن إ . ماكاى (E. Mackay) عندما كان يعمل تحت إدارة پترى فى عام ١٩١٠ —

١٩١١ وجد فى مزغونة (Mazghuna) — التى تبعد مسافة ثلاثة أميال تقريبا عن دهشور — بقايا هرمين متخربين مطابقين فى تصميمهما لهرم أمنمحات الثالث بهوارة ، مما يحمل على الاعتقاد بأن الأهرام الثلاثة من عصر واحد تقريبا . وفى هرمى مزغونة بعض التحسينات البسيطة التى تثبت أن بانيهما قد استفاد من التجارب فى تشييد هرم هواره ، ولهذا فمن المحتمل جداً أن ينسب هرما مزغونة إلى أمنمحات الرابع والملكة سبك نفرو . ولكن ، أى الهرمين بنى للملك وأيهما بنى للملكة ؟ هـــذا ما لا يمكن معرفته حتى الآن ، لأن القرائن غير كافية .

وفى خلال القرنين اللذين مرا منذ الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة اجتازت مصر الفترة المظلمة الثانية من تاريخها . كان على رأس البلاد ملوك ضعاف لم يطل حكم أحد منهم ، وكانت فى حالة من الفوضى أشد من التى جاءت فى أعقاب الدولة القديمة . وشاء سوء الحظ أن تسود هذه الفوضى فى مصر فى الوقت الذى تأثرت فيه جميع بلاد غرب آسيا بحركة هجرة شعوب واسعة وصل أثرها حتى مصر . ففى أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة أو ابتداء الأسرة الرابعة عشرة غزت البلاد جيوش آسيوية كان معظمها من الساميين الذين أحضروا معهم سلاحا جديدا لم يكن للمصريين عهد به من قبل . وقد عرف هؤلاء الغزاة باسم الهكسوس ، وهو اسم فسره مانيتو بمعنى « ملوك

الرعاة » ولكن ربما يعنى «حكام البلاد الأجنبية » . وكان هذا السلاح الجديد هو العربة التى يجرها الجواد ، ولم يحصل جيشهم بفضلها على التفوق فى السلاح فحسب بل وعلى سرعة التحرك أيضاً . وبعد أن قضى الهكسوس على كل مقاومة ، أقاموا عاصمتهم فى أواريس ؛ ولم يحدد إلى الآن بصفة نهائية موقع تلك المدينة ، إلا أنه يبدو أنها كانت فى الجزء الشمالى الشرقى من الدلتا ، وربما كانت فى موقع المدينة التى عرفت فيما بعد باسم تانيس — مدينة زون الواردة فى التوراة .

وحكموا من هناك كل الدلتا ومصر الوسطى حتى مدينة القوصية على الأقل ، وهى على بعد ثلاثين ميلا شمال أسيوط . وإلى الجنوب من ذلك استقرت أسرة مصرية بحتة تحكم فى طيبة ، ولكنها كانت تعترف بسيادة الهكسوس وتدفع لهم الجزية . وأخيرا ثار أحد هؤلاء الحكام — ويسمى كاموسى ، آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة على الأرجح — وطرد الهكسوس من مصر الوسطى ، وربما استعاد منف . وتم طرد هؤلاء المعتدين الأجانب فى بداية القرن السادس عشر ق . م عندما استولى أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة على أواريس وطارد الغزاة إلى جنوبى فلسطين .

والآثار الجنازية الملكية التى يرجع تاريخها إلى الفترة المعروفة باسم عصر الفترة الثانية (من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة) قليلة جدا ، وذلك يرجع — إلى حد ما — إلى عدم استقرار

الأمور السياسية فى ذلك العصر . ومع ذلك فهناك بقايا هرمين ملكيين من الأسرة الثالثة عشرة اكتشفها چيكييه على مقربة من مصطبة شبسسكاف (مصطبة فرعون) فى سقارة . وبنى أحد هذين الهرمين ملك يسمى خنجر (Khenjer) ، ولكن صاحب الهرم الثانى — الذى يبدو أنه لم يتم — غير معروف . ويشبه كلا الهرمين فى تخطيطهما بوجه عام هرم أمنمحات الثالث بهوارة . وفى كل منهما نرى حجرة الدفن مكونة من كتلة واحدة من حجر الكوارتزيت ومسقفة بأحجار من الحجر نفسه ، وقدر چيكييه وزن حجرة الدفن فى الهرم الذى لم يتم بأكثر من ١٥٠ طنا . ونرى فى هذه الكتلة الحجرية شيئاً جديدا ، وذلك أن الأجزاء السفلى من التابوت والصندوق الكانوبى نحتت هى وأرضية الحجرة من قطعة واحدة ، أما الغطاءان فكانا قطعتين منفصلتين .

ولم تكتشف إلى الآن أية مقبرة لملك من ملوك الهكسوس ، وبالتالى أصبح من المستحيل أن نعرف ما إذا كانوا اتبعوا طريقة المصريين فى بناء أهرام أو أنهم دفنوا فى مقابر من نوع آخر . ونرى إشارات إلى أهرام ملوك الأسرة السابعة عشرة فى بردية أبوت الموجودة الآن فى المتحف البريطانى ، وتسجل هذه البردية نتائج عمل لجنة عينها وزير من الأسرة العشرين لتحقيق اتهامات معينة عن إهمال فى تأدية الواجب مما سبب سرقة القبور . وقد قدم هذه الاتهامات

عمدة طيبة ضد عمدة الجبانة فى البر الغربى حيث أقيمت تلك الأهرام. ومع أن الأدلة المادية قليلة ، إلا أنه يظهر أن المبانى العلوية كانت تغطي مساحة مربعة طول ضلعها ٢٥ قدما تقريبا . وتميل أوجه الهرم الأربعة إلى الداخل بزاوية قدرها ٦٥° ، مما جعل البناء يبدو مرتفعاً ونحيلا . وكانت القمة حجراً جيريا واحدا يحمل فى بعض الحالات اسم الملك وألقابه ، أما حجرة الدفن فقد نحتت فى الصخر تحت هيكل الهرم .

وربما كان أحمس الأول آخر من بنى هرما من الملوك المصريين . ويوجد قبره الحقيقي فى طيبة ، العاصمة ، ولكن قبره الرمزى الذى بناه في أبيدوس كان على شكل هرم . وأقام أيضاً فى أبيدوس هرما رمزيا لجدته تيتى شرى (Tetisheri) التى نعرف أن قبرها الحقيقى — الذى لم يعثر عليه للآن — كان فى طيبة ، بناء على ماجاء فى أحد النصوص التى عثر عليها فى أبيدوس .

إلا أن هذين الهرمين كانا استثناء للقاعدة العامة ، لأن باقى ملوك الأسرة الثامنة عشرة وخلفاءهم لأجيال عديدة لم يبنوا مقابر حقيقية أو مقابر رمزية على شكل هرمى . فلا بد أن التجربة قد علمتهم فى ذلك العصر أن الهرم ينبىء بارتفاعه غير اللازم عن مكان القبر ، وأن اللصوص — برغم كل خدعة تفتق ذهن الإنسان عنها — استطاعوا الوصول إلى حجرة الدفن ولم ينهبوا محتوياتها فحسب بل سرقوا الجثة أيضاً .

أرادوا أن يجربوا طريقة مختلفة لتفادى هذه الشرور . فبدلا من أن يقيموا معابدهم الجنازية مع قبورهم فى مكان واحد ، عمد فراعنة الدولة الحديثة إلى بناء معابدهم فى الوادى على مقربة من النيل، ونقروا كهوفا عميقة فى سفح الجبل الغربى لمقابرهم . وبهذه الطريقة يصبح المكان الفعلى غير معروف إلا للذين صنعوا هذه الكهوف ولعدد قليل من الموظفين وأفراد من الأسرة المالكة فقط .

ويصف المهندس الذى شيد أول قبر من هذا النوع فى « وادى الملوك » المشهور — وهو واد يجرى موازيا للنيل خلف الدير البحرى — السرية التى كان يسير عليها فى عمله بالكلمات الآتية : « أشرفت على قطع قبر جلالته (تحوتمس الأول) فى الجبل وحدى . لم يرنى أحد ، ولم يسمع بى أحد » . ولم يدر بخلد تحوتمس الأول أو مهندسه أن الوادى الموحش الذى اختاراه قدر له أن يصبح المكان المختار لدفن الفراعنة لعدة أجيال قادمة . ثم أصبح سر مواقع مقابر الملوك أمراً معروفا للجميع ولم تكن هناك مندوحة من أن يعود نهب المقابر .

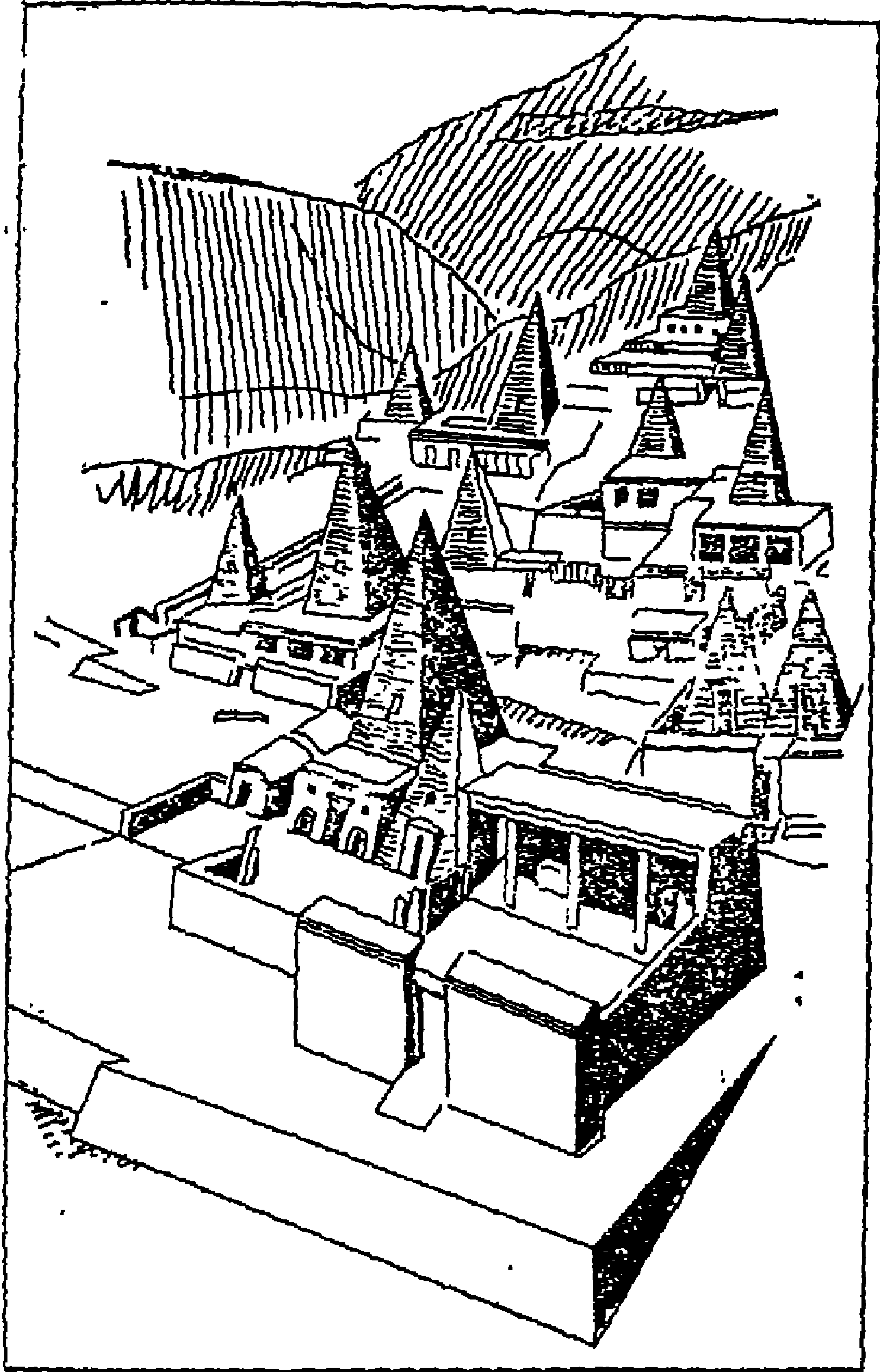
وقد نجا توت عنخ آمون وحده من بين ستين شخصاً ملكيا أو أكثر دفنوا فى هذا الوادى من العبث به حتى عصرنا الحديث . ولم ينج قبره إلا بسبب المصادفة السعيدة التى جعلت رمسيس السادس يحفر مقبرته فى سفح الجبل فوق مقبرة توت عنخ آمون مباشرة ، فكانت نتيجة ذلك أن أصبح مدخل المقبرة الأخيرة مدفونا تحت كمية كبيرة

من الرديم المستخرج من المقبرة التى فوقها ، فنسيها الناس منذ زمن طويل ، ونقلوا فى النهاية ثلاثا وخمسين مومياء من المقابر المختلفة فى هذا الوادى - من بينها موميات أشهر الفراعنة مثل تحوتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى — إلى مقبرة لم يتم العمل فيها فى الدير البحرى وإلى مقبرة أمنحتب الثانى حيث ظلت دون أن يصيبها عبث جديد حتى عثر عليها فى نهاية القرن الماضى .

وبالرغم من أن المقابر الخاصة ذات الشكل الهرمى ، أو المقابر التى يدخل فى تصميمها المعمارى شكل هرمى ، لا يمكن أن نقارنها ، بأية صورة من الصور ، بالأهرام الملكية ، فإن قدماء المصريين ظلوا يستخدمون هذا النوع من المقابر ، منذ الدولة الوسطى إلى عصر الرومان . وأقدم الأمثلة المعروفة حتى الآن عثر عليه ماريت فى أبيدوس ، وهو هرم صغير من الطوب اللبن فوق قاعدة مستطيلة غطى جزآه بطبقة من الملاط المكون من الطين ودهنت بالجير الابيض . وتقع حجرة الدفن داخل الهرم ، وهى مخروطية الشكل وذات سقف متداخل ، وأحيانا تبنى حجرة ثانية فى القاعدة لتقوم مقام السرداب . ولم يكن لمعظم هذه المقابر هياكل خارجية ، ولكن بعضها كان مزودا بهيكل من طابقين يبرز من الجانب ، ويحتوى كل طابق على حجرة واحدة فقط . وفى الحجرة العلوية كوة للوحة توضع فيها ، أما السفلية فكانت الطريق الوحيد للوصول إلى السرداب .

وفى الدولة الحديثة انتشر طراز من المقابر الخاصة أكثر فخامة ، ويشبه فى مظهره الخارجى مساكن الطبقة العليا فى ذلك الوقت . وقد عثر «بنارو» معهد الآثار الفرنسى على بعض من احسن الأمثلة لهذا النوع من المقابر عند دير المدينة على بعد قليل من جنوب وادى الملوك (شكل ٢٩) وتحتوى كل مقبرة على جزءين : جزء علوى وآخر سفلى . ففوق سطح الأرض كانوا يبنون فناء محاطا من ثلاث نواح فقط بسور من الطوب اللبن أو الحجر ، أما فى الناحية الرابعة من هذا الفناء فيبنون هيكلا أمامه أعمدة ، وفى داخل الهيكل حجرة واحدة فيها مناظر ملونة ، وتوضع فيها لوحة مثبتة فى الجدار الخلفى . وفوق سطح هذا الهيكل يبنون هرما أجوف من الطوب اللبن يضعون فوق قمته حجراً هرمى الشكل نقشت عليه صور صاحب المقبرة وهو يتعبد لإله الشمس مع كتابات قصيرة على جوانبه الأربعة ، وفى كوة فى جوانب الهرم المواجه للفناء كانوا يضعون تمثالا صغيراً لصاحب المقبرة تمثله أحيانا راكعا وفى يده لوحة صغيرة ، أما حجرة الدفن التى كانت على عمق غير قليل فى الصخر تحت الهيكل فكانت حجرة ذات سقف مقبى وتتصل بالفناء الذى فوقها بواسطة بئر منحدرة .

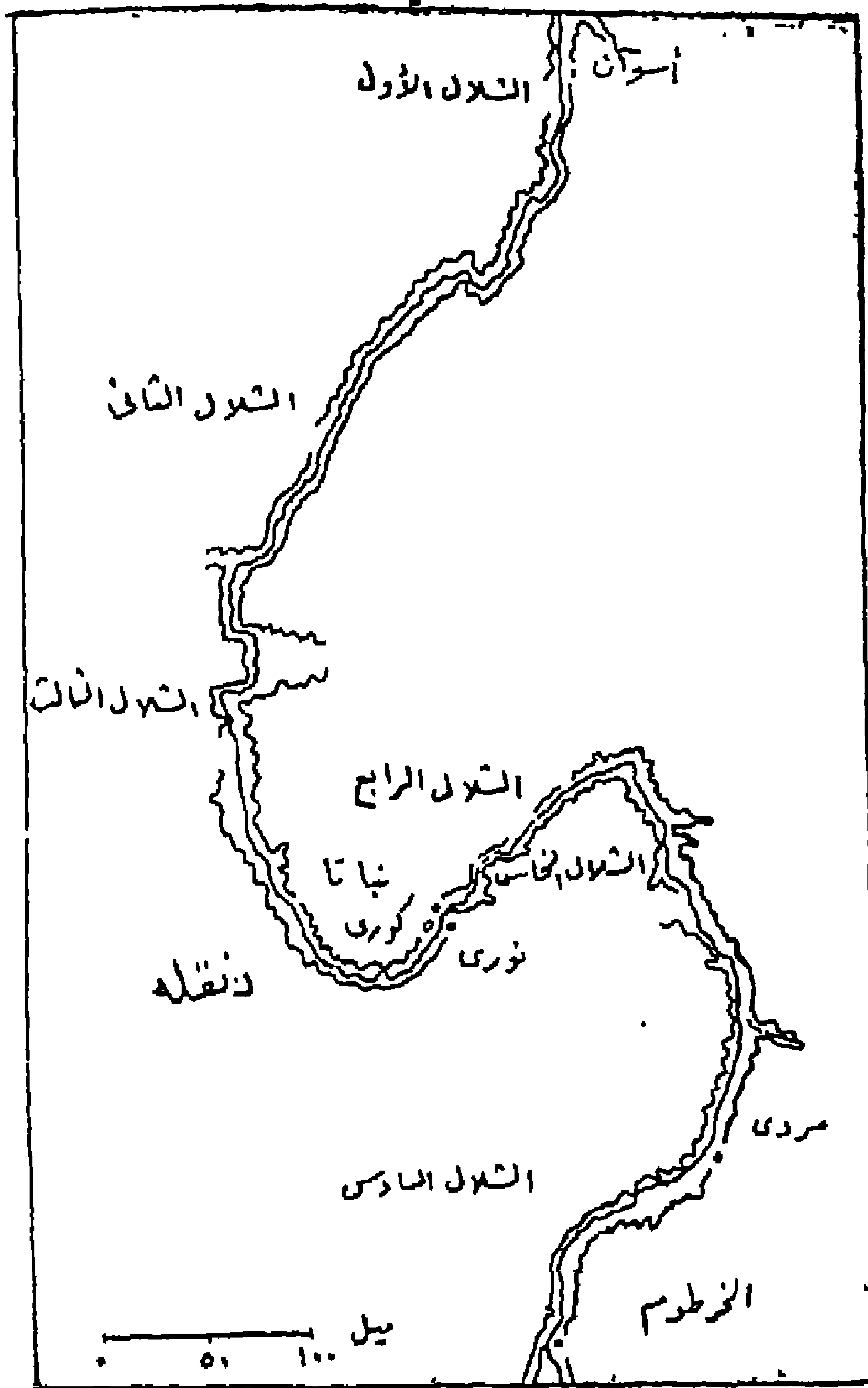
وبعد أن انقضى أكثر من ثمانمائة سنة على بناء آخر هرم ملكى فى مصر ، ظهرت فجأة مقابر هرمية فى السودان . وكان بناتها عدداً



(شكل ٢٩ — مقابر الأشخاص بدير المدينة)

من الملوك تقع عاصمتهم — التي عرفت في العصور القديمة باسم نَبَتا — على ضفة النيل في مديرية دنقلة على مسافة قصيرة بعد الشلال الرابع (شكل ٣٠) . وليس لدينا إلا معلومات ضئيلة جداً عن أصل هؤلاء الملوك ، ولكن ريزنر عثر على نعش أثناء قيامه بالكشف عن مقابرهم جعله يظن أنهم كانوا من أصل ليبي جنوبي . ولم تهيء الطبيعة حول نَبَتا مرعى خصبا يجذب إليها السكان ، بل تقع في جزء من أقحل أجزاء وادي النيل . وتعود أهميتها إلى موقعها الجغرافي على طريق التجارة الرئيسي بين أواسط إفريقيا ومصر ، الذي مكن حكامها من السيطرة على مرور الرقيق وكميات العاج والأبنوس والمر والصمغ والبخور والمنتجات الأخرى التي كان يحتاجها المصريون ، وكانت هذه المنطقة تشمل أيضاً المناجم الغنية بالذهب في الصحراء الشرقية .

ولكي يضمن ملوك مصر عدم اضطراب ورود هذه الأصناف ، عمد ملوك الدولة الوسطى — ومرة ثانية بين الأسرات الثامنة عشرة والعشرين — إلى ضم شمال السودان إلى إمبراطوريتهم . وفي المدة الأخيرة على الأخص بنيت المعابد لتكريم آلهة مصر في أماكن كثيرة بين الشلال الأول والشلال الرابع ، وكان أضخم هذه المعابد في نَبَتا حيث يقوم جبل مسطح القمة يسمى الآن جبل بركل اشتهر بأنه كان مقر الإله أمون . وفي نهاية الأسرة العشرين (أي حوالي ١٠٩٠ ق . م) كانت مصر من الضعف بحيث اضطرت لأن تترك



(شكل ٣٠ — النيل من أسوان إلى الحرضوم)

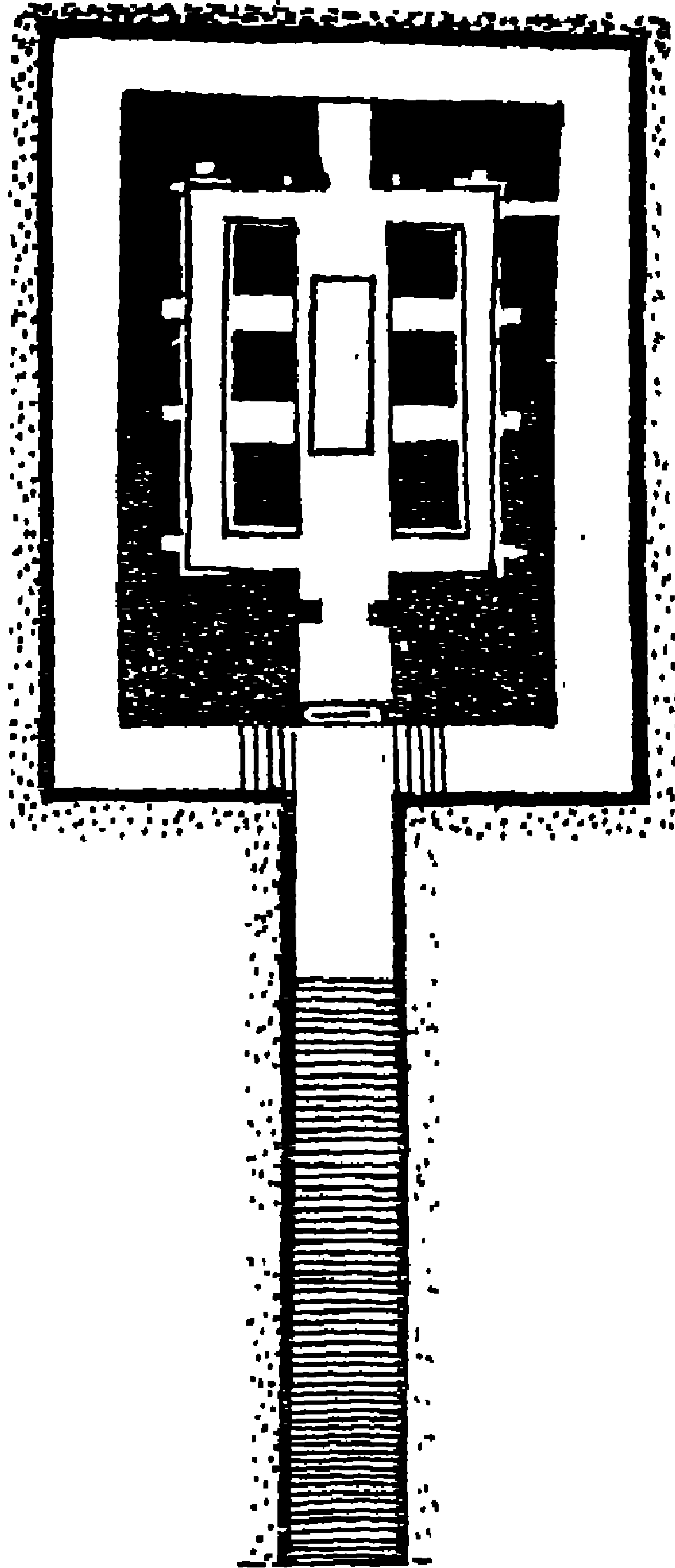
شمال السودان وشأنه . وبعد مرور أكثر من قرن من الزمان قبض أجداد الملوك الذين بنوا تلك الأهرام فيما بعد على زمام البلاد دون أن يجعلوا شعبهم ينبذ الديانة المصرية أو يهمل أسس الصناعة التى تعلمها من المصريين .

ولا نعرف شيئا عن العلاقة بين حكام نبتا الأولين وبين الملوك الليبيين الذين أسسوا الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين فى مصر . وتكونت الأسرة الرابعة والعشرون فى مصر من ملك واحد فقط اسمه بورخوريس الذى لم يزد حكمه عن ست سنوات ، وربما كانت سلطته على البلاد سلطة ضئيلة أو اسمية ، لأن مصر تقسمت سياسيا إلى عدد من المناطق المستقلة يحكم كلا منها حاكم مطلق صغير . وفى هذا الوقت تقدم كاشتا بجيشه الإثيوبى نحو الشمال فاجتاز الشلال الأول وغزا مصر حتى مدينة طيبة ، وأتم خلفه بيعنخى ذلك الفتح وأعلن فى سنة ٧٢١ ق . م أول ملك للأسرة الخامسة والعشرين . وتتكون هذه الأسرة من بيعنخى وأربعة ملوك من بعده هم : شباكا ، وشباتاكا وطرهاقا ، وتانوت أمون ؛ وقد ذكر أحدهم وهو طرهاقا فى التوارة لمساعدته حزقيا[١] فى مقاومته للآشوريين . ومع أن هؤلاء الملوك كانوا من دم أجنبى إلا أنهم لم يكونوا أجانب حقيقيين مثل غزاة الهكسوس . وكانوا فى الواقع متمصرين . واعتبر بيعنخى على الأقل

II Kings XIX 9. (١)

غزوه لمصر بمثابة جهاد فى سبيل الإلـه أمون لإصلاح بعض ما فقده هذا الإلـه خلال سنوات الاضطراب السياسى .

وربما كانت زيارة بيعنخى لمصر ورؤيته أهرام ملوك مصر السابقين فى سقارة والجيزة والأماكن الأخرى هى السبب الذى جعله يهجر طراز قبور المصاطب التى بناها ملوك نبتا الذين سبقوه ويبنى لنفسه هرما . واختار منطقة كورو ، على مسافة نحو خمسة أميال من نبتا ، وسط الجبانة الكبيرة التى بها مقابر أسلافه . ولم يبق حجر واحد من مبنى الهرم العلوى فى مكانه ، ولكننا نعرف أن طول ضلع قاعدته كان أربعين قدما . ومن دراسة الأهرام التى بنيت بعده والتى ما زالت فى حالة جيدة من الحفظ نرى أن جوانب الأهرام الأربعة تميل إلى الداخل بزاوية قدرها ٦٨° . وتقع تحت الهرم حفرة مسقفة بقبو متداخل كانت بمثابة حجرة الدفن ، وكانوا يدخلون تلك الحجرة بعد بناء الهرم عن طريق درجات سلم تبدأ من نقطة غرب المبنى العلوى وتصل إلى باب فى الجدار الغربى من الحجرة ، وبعد الدفن يملأون درجات هذا السلم بالرديم ويقيمون فوقها هيكلا جنازيا مكونا من حجرة واحدة مزينة بالنقوش . وعندما بنى شبا كا هرمه أضاف خندقا قصيراً فى نهاية درجات السلم ، ونحتت حجرة الدفن فى الصخر ، وأقام الهيكل الجنازى مستندا إلى الجانب الغربى للهرم مباشرة فوق الخندق وظلت درجات السلم — التى ملئت بعد الدفن بالرديم مثل خندق



(شكل ٣١ — هرم طرهاقا)

بيعنخى — خارج الجدار الغربى، وبهذه الطريقة قام الهيكل على أساس صخرى وأمكن إتمام بنائه أثناء حياة الملك .

وحول طرهاقا فى هرمه الواقع فى نورى — على مسافة خمسة أميال من نبتا — الخندق إلى حجرة صغيرة ، ووسع حجرة الدفن إلى بهو قسمه بأعمدة صخرية إلى ثلاثة أجنحة ، ونحت أيضا ممرا يحيط بتلك الحجرات ويصل إلى البهو عن طريق درجات سلم فى الناحية الشرقية (شكل ٣١) . وزاد بعض خلفائه عدد الحجرات السفلية فى أهرامهم إلى ثلاث ، وتعترض حجرة منها المسافة الواقعة بين حجرة المدخل وحجرة الدفن ، وكتب على جدرانها ما يسمى « الاعتراف السلبى » من كتاب الموتى ، إلا أنه رغم هذه التعديلات فى التفاصيل فإن النموذج العام للقبر الذى استنه شباكا لم يتغير فى جوهره .

وعلاوة على أهرام الملوك وجد ريزنر فى جبانة كورو صفا من خمسة أهرام بنيت للملكات ، وبالقرب من هذا الصف أربع وعشرون مقبرة للخيل : أربع منها لخيول بيعنخى ، وأربع أخرى لخيول تانوت أمون ، وقسم الباقى بالتساوى بين خيول شبا كا وشباتا كا . وكان كل جواد مزينا بطقم من الفضة وعقود من الخرز ، وكانوا يضحون بهذه الخيول عند موت الملك لكى ترافقه إلى العالم الآخر . أما فى مصر فلم تكتشف غير مقبرة واحدة للخيل ، مع أن مقابر الملوك وبعض الأمراء فى

الدولة الحديثة قدحوت العربات الحربية. وعلى ذلك ربما كان بيعنخي أول من ابتدع التضحية بالخيل ، لأن تعلقه بها أمر معروف وتشهد به عبارته فى لوحة النصر المشهورة ، ففى ذلك النص الشهير الذى يصف فيه غزوه لمصر نراه يعرب عن سخطه عندما علم أن « نملات » أمير الأشمونين ترك خيله تتضور جوعاً أثناء الحصار الذى ضربه هو بنفسه حول المدينة. وقد نال نملات العفو فى النهاية بعد أن كاد يدفع حياته ثمنا لإهماله للخيل .

وحوالى سنة ٦٦١ ق . م وضع الملك الأشورى أشور بانيبال حدا لسلسلة الحروب بين أشور وملوك الأسرة الخامسة والعشرين بالتغلب على تانوت أمون وفتح مصر كلها حتى مدينة طيبة ، فعاد تانوت أمون إلى نبتا حيث ظل هو وأتباعه يحكمون دون إزعاج ذى أهمية مدة تبلغ نحو ٣٥٠ سنة ، وكان يحد مملكتهم من الشمال الشلال الأول ومن الجنوب مستنقعات النيل الأبيض . وباستثناء اثنين من هؤلاء الملوك الذين بلغ عددهم واحدا وعشرين فقد دفنوا جميعا عند نورى فى أهرام من الحجم والشكل ذاته . وكان الاثنان المستثنيان هما تانوت أمون وملك آخر حكم بعده أقاما هرميهما فى كورو . وعلاوة على أهرام الملوك تحتوى جبانة نورى على ثلاثة وخمسين هرما صغيرا للملكات وأميرات .

ومنذ سنة ٣٠٠ ق. م. تقريبا حتى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد — عندما سقطت المملكة فى يد الأحباش — كانت العاصمة فى مروى على مسافة مائة وثلاثين ميلا شمال الخرطوم. وحدث فى مرتين أن نجح مدعو الحق فى العرش أثناء تلك الفترة فى جعل نبتا عاصمة للمملكة، ولكن فى كلتا المرتين انهارت سلطة الخارجين على العرش وعادت مروى إلى سلطتها السابقة. واستمر دفن ملوك مروى ومنافسيهم فى نبتا فى أهرام بلغت خمسين هرما فى مروى وثمانية عشر فى نبتا (لوحة ١٤ ا). وكانت كل هذه الأهرام —كسابقتها— مبنية بالحجر، ماعدا تلك التى بنيت فى مروى بعد عام ٢٠٠ بعد الميلاد عندما استخدموا فى بنائها الطوب اللبن المغطى بطبقة من الملاط.

وأحيا ملوك مروى عادة وحشية كانت قد انتشرت أيام الدولة الوسطى فى شمال السودان، هى دفن الخدم مع الملك فى قبره لكى تستمر أرواحهم فى خدمته فى العالم الآخر. ولا يزال أمر دفنهم من المواضيع التى تدور فيها المناقشة، ولسنا نعرف هل كانوا قد دفنوا وهم أحياء أم أنهم قتلوا قبل الدفن: على أنهم لم يفعلوا ذلك مع الملكات اللاتى كن يدفن أيضاً فى أهرام فى جبانة منفصلة فى الجانب الغربى من المدينة. وقد كتب سترابو يقول: «ما زالت العادة جارية فى إثيوبيا بأن الملك عندما يعجز عن استخدام عضو من أعضائه أو يفقده فى

حادثة أو لأى سبب آخر ، فإن أتباعه — وهم أولئك الذين كان مقدراً عليهم أن يموتوا معه — يبادرون بإظهار ولائهم له بأن يحدثوا فى أنفسهم نفس العاهة التى أصيب بها مولاهم » (١) . وربما أخطأ سترابو قليلا فى ذكر التفاصيل ، ولكن حفائر ريزنر فى مروى اثبتت أنه لا داعى للشك فى دقة ما كتبه بوجه عام .

(١) Strabo, Geographica, Bk. XVII, II, 3.

الفصل السابع

طريقة بناء الهرم والغرض منه

إن الوثائق المصرية الباقية — سواء المكتوب منها أو المصور — لا تلقى ضوءاً على الطرق التى اتبعها بناة الأهرام فى وضع تصميمها أو تشييد مبانيها الضخمة . إلا أن الدراسة الدقيقة للمبانى ، وما يصل إلينا من معلومات تزيد يوماً بعد يوم عن الأدوات التى كان يستخدمها البناؤون ، سهلت لنا التحقق من كثير من التفاصيل الخاصة بالبناء كما جعلت أيضاً فى إمكاننا أن نتكهن بما كانوا يفعلونه إذا أعوزنا الدليل المادى . ومع ذلك فلا زالت بعض المسائل محتاجة إلى حل ، وفى مثل هذه الحالات لا يسعنا إلا افتراض الجواب دون أن يكون هناك ما يؤيده سوى الاعتقاد بأن هذه الفروض يمكن أن تصل بنا إلى النتائج الملموسة .

فعند اختيار موقع لهرم من الأهرام كان من الضرورى مراعاة اعتبارات معينة : فيجب أن يكون الموقع غرب النيل — الجانب الذى تغرب فيه الشمس — ويجب أن يقام فوق مستوى مياه النهر وغير بعيد عن ضفته الغربية ، ويجب أن تخلو الأرض الصخرية من أى

عيب أو احتمال للتصدع ، ويجب ألا يكون بعيداً عن العاصمة ، بل وربما يجب أن يكون قريباً من القصر الذى ربما يكون الملك قد شيده لإقامته خارج العاصمة . وكان من بين المواقع التى اختارها ملوك الدولة القديمة : سقارة وأبو صير فى مواجهة منف ، وأبو رواش على مسافة سبعة عشر ميلا إلى الشمال ، ودهشور على بعد خمسة أميال إلى الجنوب . وتفصل ثلاثة وثلاثون ميلا منف عن ميدوم ، حيث بنى هرم واحد . وكان القرب من النهر عاملا مهما ، لأن كثيراً من الأحجار اللازمة لبناء الأهرام والمبانى الملحقة بها يجب أن تنقل من المحاجر بالسفن ، إذ لا يبقى أثناء موسم الفيضان من الصحراء إلا مساحة عرضها ٢٥٠ ياردة فقط بين النهر وهرم ميدوم ، بينما كانت المسافة عند الجيزة تبلغ نحو ربع ميل . ولكن عند دهشور وأبى رواش كان طول الطريق المعدة لسحب مواد البناء عليها يقرب من ميل .

وبعد انتقاء الموقع المناسب كان أول عمل يقوم به المشرفون على البناء هو إزالة الطبقة السميكة من الرمال والحصا التى فوق سطح الصحراء ، لكى يقام البناء على أساس ثابت من الصخر . ثم تبدأ بعد ذلك عملية تسوية الصخر وتهذيبه ، وكانت قطع الحجر التى يزيلونها من أماكنها إما أن تستخدم فى ملء الشقـــوق أو توضع جانبا لاستعمالها فيما بعد . ونستطيع أن ندرك مدى عنايتهم بهذه العملية فى الهرم الأكبر الذى ينحرف فيه المستوى الأفقى الأرضية المقام

عليها الهرم عن المستوى الحقيقى بأقل من نصف بوصة فقط ، وهو فرق لا يكاد يدرك ويرفع الركن الجنوبى الشرقى للهرم عن الركن الشمالى الغربى . ولا شك أن مثل هذه الدرجة العالية من الإتقان فى عملية التسوية كانت نتيجة لتجارب عديدة مرت على المصريين ،فتعلموا منها خلال أجيال كثيرة ترجع إلى ما قبل عصر بناة الأهرام عند ما كانوا يعدون أراضيهم للرى بالمياه الآتية من النهر بواسطة القنوات والترع . ولتسوية مساحة مثل قاعدة الهرم ؛ كان من الضرورى إحاطة جوانبها الأربعة بجسور واطئة من طمى النيل وملئها بالماء ، وقطع شبكة من الخنادق فى الصخر بحيث تكون أرضيـة كل خندق على نفس العمق تحت سطح الماء ، أما المساحات التى تتخللها فكانوا يسوون سطحها بعد إطلاق المياه . ولـكنه لم يكن من الميسور عمليا أن يسووا سطح جميع المساحة التى سيشغلها الهرم ،فكانوا يتركون أحيانا — كما هو الأمر فى الهرم الأكبر — نتوءا من الصخر فى الوسط ليستفيدوا منه فيما بعد أثناء عملية البناء .

وكان آخر ما يفعلونه من العمليات التمهيدية فى إعداد الموقع هو عمل دراسة دقيقة لـكى يتأكدوا من أن قاعدة الهرم تأخـذ بقدر الإمكان شكل المربع الـكامل ، وأن كل جانب من جوانبه يواجه جهة من الجهات الأربع الأصلية . وكانوا يستخدمون فى تنفيذ هذه العملية عصيا من الخشب طرف كل منها إلى طرف الأخرى ،

أو حبالا طويلة . وكانت وحدة القياس هى الذراع الملكى (طوله ٢٠٫٦٢ بوصة) ويتكون من سبعة أكف (راحة اليد) أو ثمانية وعشرين أصبعا (فالكف الواحد يساوى أربعة أصابع) . فإذا كانوا يستخدمون الحبال المصنوعة غالبا من ألياف النخيل أو ألياف الكتان فإنها كانت تزداد قليلا بشدها فى الاستعمال ، ولهذا فلا عجب فى أن نجد فرقا يبلغ ٧,٩ بوصة بين أطول وأقصر جانب فى الهرم الأكبر ، بل إن ضآلة الخطأ فى جوانب يزيد طولها عن ٩٠٠٠ بوصة هى فى الحقيقة التى تدعو إلى الإعجاب ، خصوصا عندما نتذكر أن وجود النتوء الصخرى فى الوسط يجعل من الصعب قياس أقطار المربع قياساً صحيحاً .

وليس من المستطاع ضبط جوانب الهرم نحو الجهات الأربع الرئيسية بمساعدة جرم أو أكثر من الأجرام السماوية فى وقت كانت البوصلة فيه — بكل تأكيد — غير معروفة ، على أن قدماء المصريين قد نجحوا فى هذا نجاحا كادوا يصلون فيه إلى حد الكمال ، كما يتضح فى الهرم الأكبر وهرم خفرع ، إذ لم يزد الخطأ فى الأضلاع الأربعة عن جزء من الدرجة كما يتضح مما يأتى :

الضلع الشمالى ″٢٨ ′٢ جنوبى الغرب

الضلع الجنوبى ″٥٧ ′١ جنوبى الغرب

الضلع الشرقى ″٣٠ ′٥ غربى الشمال

الضلع الغربي ٣٠″ ٢′ غربي الشمال

وبناء على دراسة پترى فإن متوسط الخطأ في الضلعين الشرقي والغربي من هرم خفرع يبلغ ٢٦″ ٥′ غربي الشمال[١] . ولا يمكن أن نعرف على وجه التأكيد أي الإجرام السماوية ، وكم منها ، استعان به المصريون للحصول على هذه النتائج . ولكن من الواضح أنه كان من الضروري أن يحددوا فقط واحدة من النقط الأصلية ، وبعدها يمكن تحديد النقط الثلاث الباقية باستعمال آلات بسيطة كانت في مقدور بنائي الأهرام . فالشرق والغرب كانوا يستطيعون تحديدهما على وجه التقريب من شروق الشمس وغروبها في يومي اعتدال الليل والنهار من كل سنة ، وكانوا يستطيعون معرفة الشمال من ملاحظة النجم القطبي . ولكن في كل حالة يكون الخطأ الناتج (حتى بعد عمل حساب التغيير في موقع القطب بالنسبة للنجم القطبي في مدى ٤٥٠٠ سنة) أعظم من الخطأ الذي وجد في هرمي الجيزة الكبيرين .

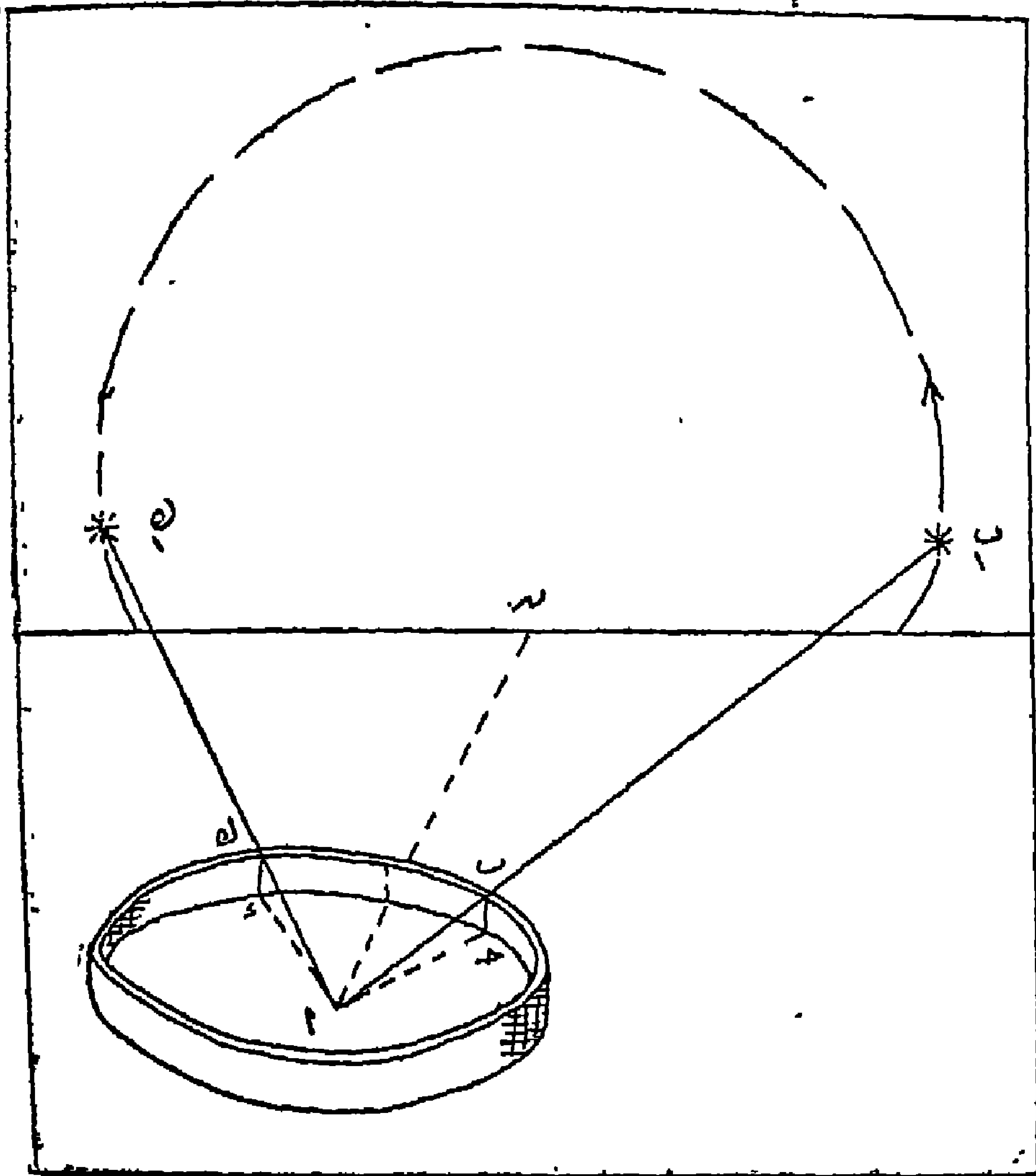
وهناك طريقة بسيطة لتحديد الشمال الحقيقي — وربما كانت هي الطريقة التي استعملت — وذلك بمراقبة نجم في الصف الشمالي من

(١) وكان من بين الأهرام الأخرى التي قام پترى بدراستها ثلاثة لاحظ الأخطاء الآتية في توجيه أضلاعها الشرقية والغربية :

الهرم المنحنى	١٢′	٩″	غربي الشمال
هرم ميدوم	٢٥′	٢٤″	غربي الشمال
هرم منكاورع	٣′	١٤″	شرقي الشمال

السماء، وتنصيف الزاوية المكونة من مكان شروقه ، والمكان الذى حدثت منه المراقبة ، ومكان غروبه . وللحصول على الدقة المطلوبة كان من الضرورى إما رؤية الأفق الحقيقى عند النقطتين اللتين يشرق النجم فيهما ويغرب ، وإما بعمل أفق صناعى على ارتفاع منتظم فوق هاتين النقطتين . ولما كان عدم انتظام مستوى الأرض فى أى مكان — مهما كان التغير قليلا — يعوق معرفة الأفق الحقيقى ، استلزم الأمر عمل أفق صناعى .

ويمكن الوصول إلى ذلك ببناء جدار دائرى قطره بضعة أقدام على أرضية الصخر التى سويت من أجل الهرم ، ويجب أن يكون ارتفاع الجدار كافيا ليمنع الشخص الواقف داخل الدائرة من رؤية أى شىء آخر خارجها سوى السماء . ولكن يجب ألا يترتب على ذلك أن يصبح الحائط أعلى من الشخص نفسه ، ويجب أن يكون السطح الأعلى من الجدار فى جميع أجزائه على ارتفاع واحد مضبوط . ويمكن الحصول على ذلك بسهولة بواسطة الماء ، وذلك بعمل جسور مؤقتة من الطين على أعلى سطوح الجدار الدائرى من الداخل والخارج ، مع ملاحظة الاحتياط اللازم لمنع تسرب المياه . ويقوم بالمراقبة شخص واحد ، فينظر من فوق قضيب قصير مثبت عموديا فى الأرض عند مركز الدائرة (شكل ٣٢ ا) ، ويقف شخص آخر داخل الدائرة يتلقى تعليماته من الشخص الأول ، وعندما يظهر النجم (شكل ٣٢ ب)



شكل ٣٢ — طريقة لمعرفة الشمال الحقيقى

فوق الحائط يضع علامة فوق الحائط مباشرة على امتداد الخط المستقيم الواصل بين المراقب والنجم .

ويجب أن تعمل هذه العملية أولا فى اتجاه الشرق (شكل ٣٢ ب) ثم نحو الغرب بعد ذلك ببضع ساعات (شكل ٣٢ ك، . ك) وذلك برصد النجم نفسه فى الحالتين . ثم يدلون ميزان البناء (وكان معروفا للمصريين فى عصر بناة الأهرام) من العلامتين اللتين على الحائط ، ويضعون علامتين على الأرض فى النقطتين اللتين ينزل عليهما الميزان عموديا (شكل ٣٢ جـ ، د) ، وبتنصيف الزاوية جـ ا د نحصل على الشمال الحقيقى ويصبح الخط ن ا هو الاتجاه الشمالى الجنوبى . ولزيادة التحقق يمكن إعادة هذه العملية برصد بعض نجوم مختلفة بنفس الطريقة قبل هدم الجدار الدائرى . ويقع المشرق والمغرب عند زاوية مقدارها ٩٠° من الخط الذى حصلنا عليه . ولكن لم يعثر حتى الآن على المثلث والأدوات الأخرى التى ربما كانت تستخدم لقياس مثل هذه الزاوية ، إلا أننا نرى من دراسة مبانى ذلك العصر أن أركانها تكون زوايا قائمة على أتم ما يكون ، مما يدل على معرفتهم لآلة دقيقة أوصلتهم إلى هذه النتيجة .

وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه الأعمال التمهيدية فى موقع الهرم ، كانت الاستعدادات للبناء ترتب فى مكان آخر . فكانوا مثلا يصنعون أساسات الطريق الصاعد من الحجر المقطوع محليا ليمكن استخدامه

فى نقل مواد البناء عندما تبدأ عمليات بناء الهرم . ولأجل عمل الكسوة الخارجية للبناء كانت تقطع كتل الحجر الجيرى من النوع الجيد من جبال المقطم على الجانب الشرقى للنيل عند طرة ، ويكتب العمال المكلفون بمثل هذا العمل أسماء فرقتهم بالمغرة الحمراء على الكتل قبل نقلها من المحجر . ومع أن هذه الأسماء غالبا ما تمحى أثناء العمليات المتعاقبة ، إلا أن قدراً كافيا منها بقى ليخلد أسماء كثير من هذه الفرق، فمثلا وجد « ألن رو » الأسماء الآتيـــة واضحة على كتل كسوة هرم ميدوم(١): « فرقة الهرم المتدرج » ، « فرقة القارب » ، « الفرقة القوية » ، « فرقة الصولجان » ، « الفرقة المتحملة » ، « فرقة الشمال » ، « فرقة الجنوب » . وعلى إحدى الكتل فى الهرم الأكبر تقرأ : « فرقة الصناع » ، « ما أقوى تاج خنوم خوفو الأبيض ! » .

وسبب وضع هذه الأسماء على الأحجار غير واضح ، اللهم إلا إذا كان لغرض تسهيل عملية جرد أعمال كل فرقة . وفى الوقت ذاته كانت هناك فرق أخرى من العمال يقطعون كتل الجرانيت اللازمة للأعمدة والأعتاب وأكتاف الأبواب والعقود وكتل الكسوة ، وفى بعض الأحيان التابوت الخارجى . ومما يثبت أن مثل هذا العمل لم يخل من الأخطار ، ما تقرأه فى مقبرة عند أسوان خاصة بحاكم

(1) Alan Rowe, The Museum Journal, Philadelphia, Vol. XXII (1931), p. 21 (pl. VI).

الجنوب المسمى أونى (Uni) الذى عاش أيام حكم ببي الأول ومرنرع، حيث يقرر أونى بفخر فى هذه النقوش ، أنه نتيجة لسيطرته على الخارجين على القانون فى تلك المنطقة، أمكن - لأول مرة فى التاريخ - إرسال بعثة لقطع الأحجار إلى أسوان تحت سيطرته ، ولم يكن يحرس هذه البعثة غير سفينة حربية واحدة .

أما الحجر الجيرى — سواء أحصلوا عليه من سطح الجبل القريب كما هو فى الجيزة أم من قلبه كما فى طرة — فلم يسبب لبنائى الهرم أية صعوبات جدية عند قطعه فى المحاجر . وقد اتضح من الحفائر الحديثة التى قام بها و. ب. إمرى فى جبانة سقارة أنه — حتى فى عصر الأسرة الأولى — كان لدى المصريين آلات نحاسية ممتازة الصنعة ، منها المناشير والأزاميل التى كانوا يستخدمونها فى قطع أى نوع من الحجر الجيرى (لوحة رقم ١٤ ب) ، وربما استعانوا — لتسهيل عملية النشر — بمادة مبتلة تساعد على التفتيت ، مثل الرمل الكوارتزى الذى يوجد بكثرة فى مصر ، ولكننا لا نملك الدليل القاطع على أنهم استخدموا مثل هذه المادة أو التجأوا إلى مثل هذه الطريقة .

وكانت الأزاميل والأسافين هى الآلات المفضلة لديهم فى قطع الأحجار الجيرية ، فتستعمل الأولى لفصل الكتلة عن الصخر من كل جانب عدا القاعدة ، والأخرى تستعمل لعزل الكتلة من أسفل . فنرى فى خندق أحد المحاجر مثلا تجويفا عميقا يشبه الرف يمتد بطول

عرض الممر بين السقف والكتلة المراد نزعها ، والغرض من هذا التجويف هو تمكين أحد عمال المحجر من الزحف فوق سطح الكتلة لفصلها من الصخر من الخلف بعمل شقوق عمودية تتجه إلى أسفل بواسطة إزميل يدقه بمطرقة من الخشب ، وفى نفس الوقت يقوم عامل آخر بإحداث شقوق رأسية مشابهة أسفل الجانبين . وأخيرا توضع الأسافين فى خروم ثقبت عند القاعدة لكى تفصلها أفقيا من الصخر ، وبهذا تفصل الكتلة بأجمعها .

وفى بعض الأحيان تستعمل أسافين من الخشب ، ويتم فصل الكتلة ببل الخشب بالماء ليتمدد . وتعاد العملية بعد ذلك فى الصخرة التى تحتها دون ضرورة لقطع التجويف الأول ، وهكذا إلى أن يصلوا إلى مستوى الأرضية . ثم يبدأون فى تكرار العملية عند مستوى السقف متجهين إلى أسفل فى الخندق [1] . وكانوا يقطعون الأحجار من سطح الجبل بنفس الطريقة تماما ، وهى أفضل كثيرا من قطع الأحجار داخل الخندق ، نظرا لأن مكان العمل ليس محدودا ويستطيع عدد كبير من العمال أن يعملوا فيه فى وقت واحد ؛ ولكن من ناحية أخرى

---

(١) وتقطع كثير من الأحجار اللينة فى المملكة المتحدة فى وقتنا هذا بنفس الطريقة ، مع فارق مهم هو إحلال الأدوات المصنوعة من الصلب محل الأدوات النحاسية والإكثار من استخدام المنشار . وربما عرف قدماء المصريين « أزمة » البناء المستخدمة الآن بدلا من الإزميل ، ولكن لم يعثر حتى الآن على عينة منها .

فإن أحسن أنواع الحجر الجيرى توجد فى طبقات عميقة تحت السطح ، وقطع الخنادق هو الطريقة العملية الوحيدة لاستخراجها .

ولا تزال الطرق التى كانوا يستخدمونها فى عصر بناة الأهرام فى قطع الجرانيت والأحجار الأخرى الصلبة موضع خلاف فى الرأى ، فقد ذكر أحد الباحثين أن المصريين لم يبدأوا فى عمل محاجر للحصول على الأحجار الصلبة إلا فى الدولة الوسطى ، ويصر على أنهم قبل ذلك كانوا يحصلون على الكمية المطلوبة ،من الصخور الكبيرة التى كانت فوق سطح الأرض(١) . ولكن من الصعب الاعتقاد بأن الأشخاص الذين وصلوا إلى درجة من المهارة مكنتهم من نحت وتشكيل الكتل الهائلة من الجرانيت المستخدمة فى مبنى الوادى الخاص بخفرع لم يكن فى مقدورهم استخراج كتل من هذا الحجر من المحاجر ، خصوصا وأن قطع الأحجار بطريقة قطع الخنادق لم تكن قد استعملت بعد . وعلاوة على ذلك فما زال واضحاً على ظهر الكتل المكونة لسقف حجرة دفن منكاورع آثار وضع الأسافين فيها ، ولا يدل أثر الأسافين إلا على أنها فصلت من صخور المحجر . ونحن نعرف أن هذه الطريقة كانت مستعملة بكل تأكيد فى العصور التالية ، ويثبت ذلك وجود ثقوب الأسافين التى لا يمكن حصرها وما زالت ظاهرة إلى يومنا هذا .

---

(1) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, (1934) pp. 62—3

فى محاجر أسوان (لوحة ١٤ ج) . ولا يوجد من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أن رجال المحجر لم يفصلوا الكتل بنفس الطريقة فى عصر الدولة القديمة ، ويمكن عمل الثقوب إما بحك الحجر بمسحوق مفتت وإما باستخدام آلة معدنية .

ولما كان النحاس هو المعدن الوحيد المعروف فى مصر قبل الدولة الوسطى ، فإنه يظن أن المصريين عرفوا طريقة تعطى النحاس درجة عالية من الصلابة ، ولكننا لم نعثر حتى الآن على ما يؤيد هذا الظن . وهناك طريقة أخرى لقطع الجرانيت ولكنها أكثر مشقة ، وذلك بدق الصخر حول الكتلة المراد فصلها بكرات من حجر الدولوريت ، وهو حجر صلب يميل إلى الخضرة ويوجد فى أماكن كثيرة فى الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر . فالمسلة غير التامة التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الحديثة ، والتى لا تزال فى مكانها فى أسوان ، كان العمل يجري فيها بهذه الطريقة دون شك ؛ وليس هناك ما يدل على أن عمال المحاجر فى عصر بناة الأهرام لم يعرفوا هذه الطريقة .

وأيا كانت طريقة استخراج الجرانيت من المحجر فقد حصلوا على الكتل اللازمة منه . فقد كانت هناك طريقة واحدة للحصول على النوع المطلوب من الحجر ، إذا لم يحصلوا عليه من الطبقة العليا . لأن الجرانيت — مثل كثير من الأحجار الأخرى — إذا ما سخن إلى درجة حرارة عالية ثم برد فجأة ، تحدث فيه شروخ ظاهرية ويتفتت

سطحه عند أى احتكاك بسيط وتتساقط أجزاؤه . وعلى هذا فقد كانوا يسخنون كتلة الجرانيت بالنار ، ثم يصبون عليها ماءً بارداً فيتفتت سطحها فيزيلونه بكشط صغير من الحجر ، ويكررون ذلك عدة مرات حتى يصلوا إلى الحجر ذى الصلابة المطلوبة .

ولم يكن نقل الكتل الكبيرة من محاجرها أقل الأعمال شأناً فى تشييد الهرم ، إذ أن بعض القطع الثقيلة من الحجر الجيرى المقطوعة محلياً والمستخدمة فى بناء معبد منكاورع الجنازى تبلغ نحو ٢٠٠ طن حسب تقدير ريزنر ، فإذا قارنا ذلك بكتل الكسوة فى الهرم الأكبر التى يبلغ متوسط وزنها ٢ ½ طن وبوزن الكتل الجرانيتية فى سقف حجرة الملك البالغ وزنها ٥٠ طنا ، لبدت هذه الأخيرة تافهة بالنسبة للأولى ؛ ثم ينبغى أن نتذكر أن الأخيرة كانت تتطلب نقلها بالسفن ، ثم إنزالها منها ، ثم رفعها بعد ذلك فى أغلب الأحيان إلى علو شاهق فوق الأرض . ومن المحتمل أنهم كانوا ينقلون هذه الكتل الحجرية أثناء موسم الفيضان ، وربما كان ذلك هو أقل الأعمال الشاقة فى تلك العملية بالرغم من أن ضبط المراكب المحملة بالأحمال الثقيلة فى نهر سريع الجريان كان دائماً عملية خطرة تحتاج إلى مهارة فائقة .

أما الطريقة المستعملة فى نقلها فوق سطح الأرض فكانت واحدة ، سواء أكان وزن الكتلة المنقولة ٢٠٠ طن أو ٢ ½ طن ، لأن عدد الرجال كان يتوقف على مقدار الوزن . ولكن ما هى هذه الطريقة ؟

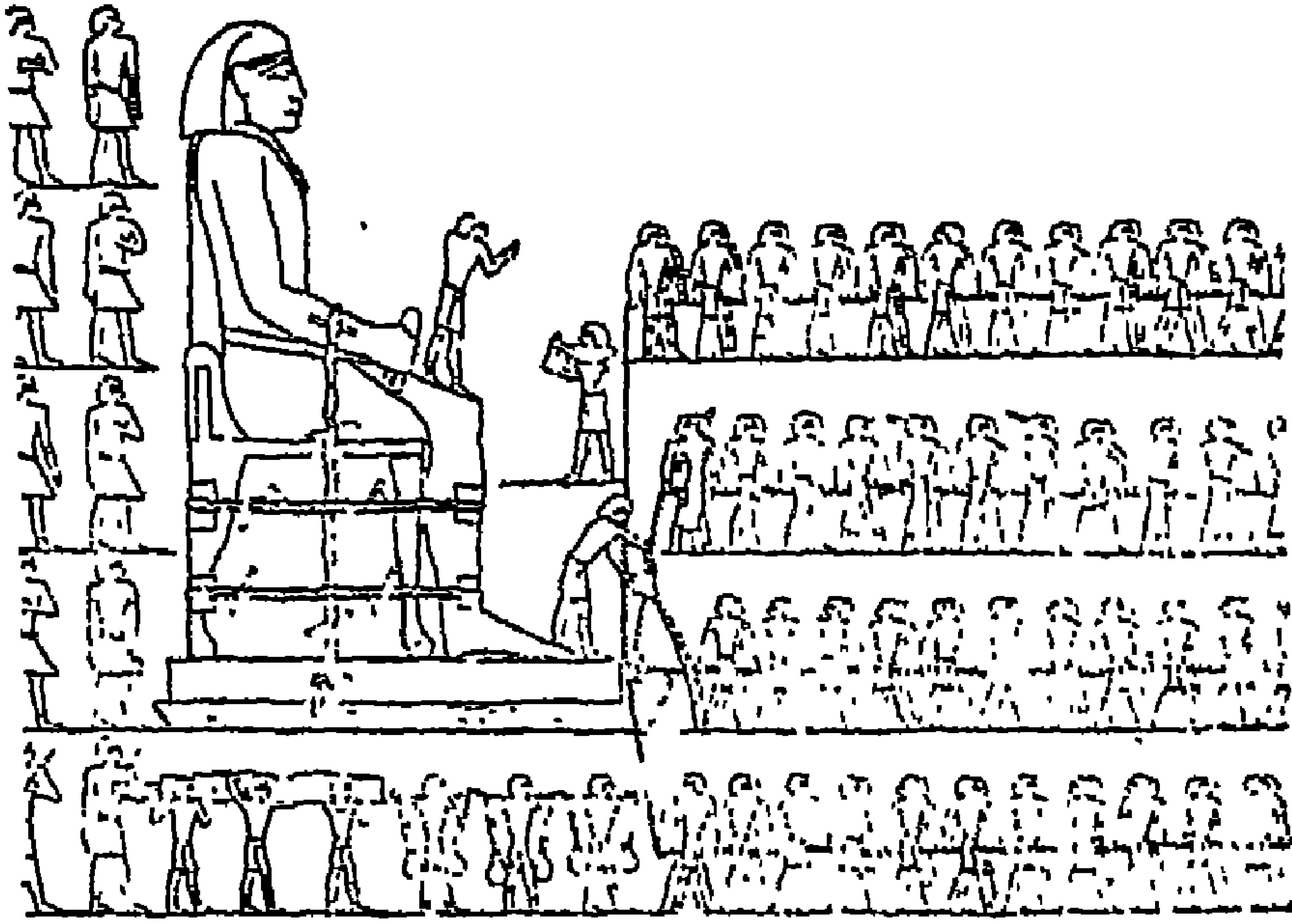
فليس هناك أي احتمال لاستخدامهم عربات ذات عجلات ، لأنه بالرغم من وجود نوع من العجلات منذ الأسرة الخامسة على الأقل(١) ، فإن الرسوم التي في قبور الأسرة الثامنة عشرة توضح لنا أنه بعد مرور ألف سنة بعد الدولة القديمة كانت التماثيل والكتل الثقيلة لا تنقل بواسطه العربات ذات العجلات ، بل استخدموا بدلا من ذلك زحافات . ولا يخامرنا شك في أن بناة الأهرام قد استعملوا أيضاً هذه الطريقة ، وأكبر الظن أن كل كتلة كانت توضع فوق الزحافة باستخدام رافعات من فوق الأرض مباشرة أو بعمل منحدر واطىء يبنى من الطوب اللبن أو الحجر . وبعد أن تربط الزحافة والكتلة معاً بالحبال يمكن رفعها ثانية بالرافعات (العتل) ليضعوا تحتها أسطوانات خشبية (درافيل) ثم يجرون الزحافة المحملة فوق طريق عليه (براطيم) من الخشب ويشدها الرجال بحبال مثبتة في الزحافة .

وفي مقبرة تحوتي حتب من الأسرة الثانية عشرة في البرشا (شكل ٣٣) رسم يمثل الطريقة التي كانوا يتبعونها ، نرى فيه تمثالا كبيراً من المرمر لصاحب القبر يزن نحو ٦٠ طنا فوق زحافة يجرها ١٧٢ رجلا(٢) ، كما نراهم يصبون الماء أو أي سائل آخر على الأرض ليقلل الاحتكاك ويسهل الجر .

---

(١) رسم في مقبرة كا ام حست من الأسرة الخامسة يبين سلم صعود فوق عجلات (انظر كتاب Somers Clarke and R. Engelbach, Egyptian Masonry, fig. 83)

(٢) وتبين النقوش التي عثر عليها في قصر سنحاريب في نينوى والموجودة الآن =



شكل ٣٢ — نقل تمثال كبير

ولكن بعد إعداد الموقع ، وبعد تشوين المواد المطلوبة على مقربة منه ، يبقى أمام المشرف على بناء الهرم معضلتان، أولاهما رفع الأحجار إلى الارتفاع المطلوب ، والثانية وضع الأحجار فى أماكنها بحيث يكتسب البناء تماسكا داخليا وألا تخرج هذه الأحجار عن التصميم الأصلى للشكل الخارجى . وقبل أن نحاول إيضاح الطريقة التى تغلبوا بها على هاتين المشكلتين يجدر بنا أن نتريث قليلا لنفكر فى المعالم الأساسية للمبنى المطلوب ، سواء الداخلية أو الخارجية منها دون أى تفكير فى الحجرات والممرات .

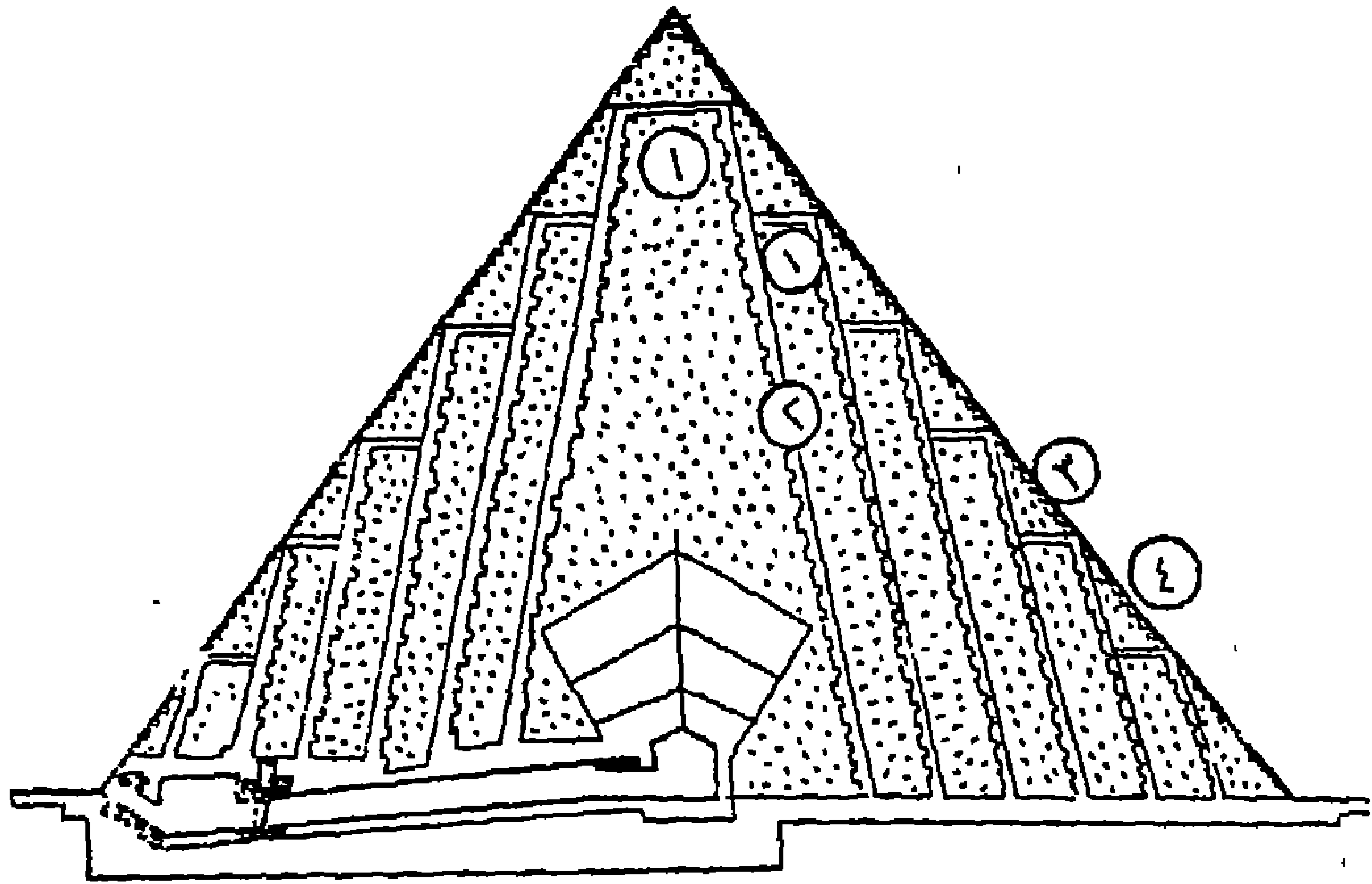
= فى المتحف البريطانى أن الأشوريين فى القرن السابع قبل الميلاد كانوا ينقلون تماثيلهم بطريقة قريبة الشبه جدا من تلك الطريقة .

فعندما كنا نتحدث عن هرم ميدوم قلنا إن قلبه مكون من بضع طبقات من البناء، تقل فى الارتفاع من الوسط إلى الخارج، وترتكز على نواة فى الوسط تبلغ درجة ميلها ٧٥° (شكل ١٢)، وقلنا إن كل طبقة كسيت من أعلى إلى أسفل بأحجار طرة الجيرية، ثم سوى سطحها الخارجى، ثم حول الهرم المدرج الناتج بعد ذلك إلى هرم حقيقى بملء الدرجات بالأحجار، وأضيفت إليه كسوة خارجية من أحجار طرة الجيرية الناعمة. وقد أوضح بورخارت أن نفس الطريقة ظل يتبعها بناة الأهرام فى الأسرة الخامسة[1] مع فارق بسيط وهو ترك أوجه أحجار الكسوة الداخلية كما هى دون تسوية، وربما استمرت هذه الطريقة نفسها متبعة حتى عصر أبعد من ذلك فى الدولة القديمة، فمثلا كان يتكون هرم ساحورع فى أبوصير من طبقات ترتفع عاليا فى قلب البناء (شكل ٣٤—١) وكسوات داخلية من الحجر الجيرى (شكل ٣٤—٢) وكتل الحشو من الحجر (شكل ٣٤ — ٣) وأخيرا الكسوة الخارجية الناعمة من أحجار طرة الجيرية (شكل ٣٤ - ٤)

ولسنا نعرف إذا كانت أهرام الجيزة الثلاثة قد بنيت بهذه الطريقة، لأنه — مالم تهدم أجزاء كبيرة من مبانيها العلوية — لا يمكن عمل أى فحص يؤدى إلى نتائج نهائية. واستنتج بورخارت من وجود أحجار الربط فى الممر الصاعد أنهم اتبعوا فى بناء الهرم الأكبر الطريقة

(1) L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, Vol. I, p: 29.

نفسها ، لأن كل حجر من أحجار الرباط فى رأيه جزء من الكسوة الداخلية[١] . ولكن اثنين ممن يعتد برأيهم — وهما سومرز كلارك



شكل ٣٤ — هرم ساحورع ، قطاع فى اتجاه الناحية الشرقية

وزانجلباك — رفضا قبول آراء بورخارت[٢] . وحتى لو كانت أحجار الرباط ليست أحجار كسوة داخلية ، فإن ذلك لا يثبت أن أحجار الكسوة لا توجد فى مكان آخر من الهرم . وعلاوة على ذلك فمن الثابت أن كل الأهرام الإضافية الموجودة فى الجيزة قد بنيت بكسوات داخلية ،

(1) L. Borchardt, Einiges zur dritten Bauperiode der grossen Pyramide bei Gise (Cairo, 1932).

(2) Somers Clarke and R. Engelbach, Ancient Egyptian Masonry, pp. 123—4.

ويصبح أمراً مستغربا إذا كانت الأهرام الأصلية بنيت بطريقة مخالفة .

وتتشابه كل الأهرام التى بنيت بعد الهرم المنحنى فى دهشور فى شكلها الخارجى ، ولا تختلف إلا فى الحجم وفى بعض التفاصيل الصغيرة ، كزاوية الميل ونوع الحجر المستعمل فى المداميك السفلية من الكسوة الخارجية . وكانت زاوية الميل المعتادة ٥٢ْ ، وهى الزاوية التى نحصل عليها إذا كان الارتفاع مثل نصف قطر الدائرة التى يتساوى محيطها مع محيط الهرم عند مستوى الأرض (القاعدة) كما نرى فى هرم ميدوم والهرم الأكبر ، أما هرم دهشور الشمالى المبنى من الحجر والذى تبلغ درجة الميل فيه ٣٦َ ٤٣ْ فهو الاستثناء الوحيد الذى شذ عن هذه القاعدة .

ويقول هيرودوت ، الذى نقل إلينا الرأى الذى كان يتناقله الناس فى مصر فى أيامه عن بناء الهرم الأكبر : « بنى الهرم من طبقات سماها البعض شرفات وسماها البعض الآخر درجات . وعندما تم الهرم على هذا الشكل رفعوا الأحجار الباقية إلى أماكنها بوساطة آلات صنعت من عروق قصيرة من الخشب ، فكانت الآلات الأولى ترفع الأحجار من الأرض إلى أعلى الدرجة الأولى ، وعلى هذه الدرجة يضعون آلة أخرى تتلقى الحجر عند وصوله وتنقله إلى الدرجة الثانية ، حيث تنقله آلة ثالثة إلى أعلى . وإما أنه كان لديهم آلات كثيرة بعدد

درجات الهرم ، وإما أنه كان لديهم آلة واحدة يسهل تحريكها ونقلها من طبقة إلى طبقة كلما ارتفع الحجر . فقد قيل لى الرأيان ، وإنى أذكرهما هنا . وأنجزوا الجزء الأعلى من الهرم أولا ، ثم الجزء الأوسط ، وفى النهاية الجزء الأسفل القريب من سطح الأرض »[1] .

وبينما تميل الاكتشافات الأثرية إلى تأييد الجملة الأخيرة ، إلا أنه لم يظهر فيها ما يؤيد ما قاله هيرودوت فى جملته . وعلى ذلك فلا بد أن نعترف بأن بناء الهرم موضوع ما زال ينتظر الحل .

ولعدم وجود البكرة — وهو اختراع لم يعرف فى مصر قبل عصر الرومان — لم يكن أمام قدماء المصريين إلا طريقة واحدة لرفع الأوزان الثقيلة ، وذلك ببناء منزلقات من الطوب اللبن والطين ترتفع إلى أعلى من مستوى الأرض ، إلى أى ارتفاع يريدونه . فإذا أرادوا مثلا بناء حائط قصير ، فإن أحجار كل مدماك بعد المدماك الأسفل كانت ترفع إلى المنسوب المطلوب على منزلق يبنى ملاصقا للجدار وبطوله كله ، ويبرز إلى الخارج بزاوية قائمة على خط الجدار . وعند إضافة مدماك تال إلى البناء ، يلزم أن يرتفع المنزلق ويمتد أيضا لكى يبقى الانحدار دون تغيير . وفى النهاية عندما يبلغ بناء الجدار أقصى ارتفاعه ، يزال المنزلق وتسوى السطوح الخارجية للأحجار التى لم تصقل سطوحها من قبل ، يصقلونها طبقة بعد طبقة متجهين إلى أسفل فى الوقت الذى يقللون فيه من ارتفاع المنزلق . ويمكننا أن نرى

(1) Herodotus, II, 125 (Rawlinson's translation).

مثالا لهذا المنزلق ملاصقا للصرح الأول الذى لم يكمل بناؤه فى معبد الكرنك[1] ، ولئن كان هذا المثال من العصور المتأخرة فإن مما يثبت أن هذه الطريقة نفسها كانت متبعة قبل ذلك فى العصور القديمة ما عثر عليه من بقايا المنزلقات عند هرم أمنمحات الأول فى اللشت وعند هرم ميدوم ، كما تبدو فى الصور المأخوذة من الجو بقايا واضحة من المنزلقات مازالت تحت رمال دهشور ، ولكن يجب أن ننتظر الدليل العملى عند القيام بحفائر هناك .

فإذا سلمنا — بناء على ما لدينا من أدلة — بأن بناة الأهرام قد استعملوا المنزلقات ، فكيف كانوا يرتبون هذه المنزلقات ؟ وخير الإجابات أن منزلقا واحداً كان يبنى بطول جانب واحد من الهرم لاستخدامه فى نقل ما يلزم ، وكلمـــا ارتفع الهرم ازداد المنزلق فى الارتفاع والطول ، كما يضيق عرض سطحه الأعلى تدريجا نظراً للتناقص المستمر فى عرض واجهة الهرم . فإذا كانت زاوية ميـل الهرم ٥٢° فلا بد أن تنحدر واجهتا المنزلق الجانبيتان بزاوية قدرها ٥٢° ، وبهذا يتفادون أي انهيار جانبي . أما جوانب الهرم الثلاثة التى لم تغط بمنزلق التموين ، فقد كانت أمامها جسور ذات عرض كاف فى أعلاها يسمح بمرور الرجال ومواد البناء . ولكن نظراً لأنها كانت لا تستخدم لرفع الأحجار من الأرض ، فإن درجة ميلها على السطح الخارجى

(1) Somers Clarke and R. Engelbach, op. cit , Fig. 87.

يمكن أن تكون منحدرة بقدر ما تسمح به المتانة اللازمة . وكانوا يضعون أيضاً براطيم من الخشب ، وقد عثر على بعضها فعلاً فى مكانها فى اللشت أثناء الحفائر فوق أعلى سطحى منزلق التموين وجسور المشى لتكون طريقا متينا لمرور الزحافات وهى محملة بكتل الأحجار .

ولتوضيح الطريقة التى ذكرناها ، لنتصور أن هرما من الأهرام قد بنى إلى نصف ارتفاعه النهائى[1] ففى هذه الحالة لا يمكن أن يظهر شىء من مبانى الحجر السابق وضعها لأى شخص واقف على الأرض ، لأن ثلاثة من الأوجه الخارجية ستكون مغطاة كلها بجسور لمشى العمال ، وسيحجب منزلق التموين الوجه الرابع . أما السطح العلوى من الهرم فسيكون أشبه برصيف مربع معد لوضع المدماك التالى فوقه ، وأول ما يسحب من الأحجار إلى هذا الرصيف هى الكتل الداخلية المجلوبة من المحاجر المحلية ، تترك جوانبها وسطوحها العلوية خشنة ولكن تسوى سطوحها السفلى . وتؤخذ هذه الأحجار إلى وسط الرصيف وتوضع إلى جوار بعضها البعض ، وتترك غالبا الفراغات الناتجة من عدم انتظام جوانبها دون ملء .

وكانوا يعنون بأن يمتد المدماك الجديد فى كل الاتجاهات الأربعة ،

---

(١) فى الوصف الآتى ، كما فى المواضع الأخرى من هذا الفصل ، أخذنا الكثير مما ورد فى كتاب (Acient Egyptian Masonry) تأليف Clarke and Engelbach (Oxford, 1930).

بحيث يبقى دائما فى شكل مربع تقريباً . وعلى مسافات منتظمة يجعلون جوانبه متساوية تماما فى الطول ، بإضافة كسوة داخلية من أحجار طرة الجيرية توضع مباشرة فوق نظيرتها من الكسوة فى أرضية الرصيف . أما الناحية الخارجية من الكسوة فتقطع بميل إلى الداخل بزاوية مقدارها حوالى ٧٥° ، ولكنها تترك دون صقل . وأخيراً تزاد مساحة المدماك الموضوع ، حتى لا يبقى من الرصيف الأصلى سوى شريط ضيق على حوافه الخارجية دون تغطية . وعندما نصل إلى تلك الدرجة تضاف كتل الحشو من الأحجار الجيرية المحلية ، مع العناية الفائقة باللحامات بين الأحجار . ونراهم فى الهرم الأكبر وضعوا كتل الحشو بطريقة تجعلها تميل ميلا خفيفا إلى الداخل نحو وسط كل مدماك ، فنتج من ذلك انخفاض يمكن ملاحظته متجها من أعلى إلى أسفل فى وسط كل وجه من أوجه الهرم ، ولا توجد هذه الظاهرة فى أى هرم آخر .

وعند ما يتم بناء قلب الهرم لا يبقى إلا أن تضاف له كسوة خارجية من أحجار طره الجيرية ، ويستلزم هذا العمل الدقة التامة ، لأن أى عيب فى وضع الأحجار لا يشوه المظهر الخارجى للأثر فحسب ، بل يؤدى حتما إلى عدم انتظام الشكل الهرمى . وعلاوة على ذلك يجب أن تكون زوايا اللحامات مضبوطة وملتصقة جداً ما أمكن ، ولكى يقتصدوا فى الوقت ويحصلوا على أعلى ما يمكن من الدقة كانوا يتركون زاوية

اللحامات الصاعدة — أى تلك التى بين الكتل المتجاورة فى نفس المدماك — ليقوم بها بناؤون على أكبر جانب من المهارة ، يعملون ذلك وهى على الأرض . وبهذه الطريقة يحصلون على نتائج باهرة فيما يسمى اللحامات الصاعدة المائلة ، تلك التى تقطع لا بزاوية قائمة فى اللحام السفلى ولا موازية مع محور الهرم المركزى . وربما يتم على الأرض أيضاً إعداد زوايا المحامات بين الأوجه الخلفية لأحجار الكسوة وبين الأوجه الأمامية لكتل الحشو ، حتى إذا ما وصلت كل كتلة فى النهاية إلى الرجال المنوط بهم وضعها فى مكانها ، احتاج فقط سطحها العلوى والأمامى — المنحوت طبقاً لزاوية الهرم ولم يصقل بعد — إلى عناية أكثر من البنائين .

وحتى بعد عمل مثل هذه الاستعدادات الدقيقة يظل وضع كتل الكسوة عملا صعباً ، خصوصاً إذا كانت كتلا كبيرة تزن الواحدة منها أكثر من عشرة أطنان . ولا شك أنهم كانوا يحملونها مع زحافتها إلى أقصى نقطة ممكنة فوق الجسر ، فى مكان يواجه مباشرة المكان المقرر وضعها فيه فى البناء ثم تنزل الكتلة على جانبها من الزحافة لتستقر على عوارض خشبية أعدت لتلقاها فوق حجر الكسوة فى المدماك الذى تحته . ولكى يحكم استعمال العتلات يترك الحجّارون نقراً فى الوجه الخارجى لكل كتلة من الكسوة ، وبينما تكون الكتلة فى ذلك المكان تبسط طبقة رقيقة من المونة على كل من وجهها الأسفل والوجه

المجاور للكتلة الأخرى . وكان الغرض الأساسى من المونة هو إيجاد نوع من مادة لينة تجعل الكتلة بعد وضعها فى مكانها ، تنزلق وتلتحم مع كتلة الكسوة السابق وضعها ومع كتل الحشو الموجودة خلفها .

ولسنا نعرف تماما كيف كانوا يقومون بذلك العمل ، ولكن من المحتمل أنه كان يتم بشد حبال مربوطة إلى براطيم من الخشب موضوعة عبر الركن الخارجى الخالى من كتلة الكسوة ، ثم يحركونها إلى الوراء بواسطة عتلات من الأمام حتى تصبح على حذاء الخط . ونرى كتل الكسوة القليلة الباقية عند أسفل الهرم الأكبر أحسن الأمثلة للحامات المكتشفة حتى الآن ، وإلى پترى يرجع الفضل فى جذب أنظار العالم الحديث إلى دقتها ، فهو الذى كتب عنها : « أخذت بعض مقاسات لسمك اللحامات فى أحجار الكسوة ، فبلغ متوسط السمك فى لحامات الجهة الشمالية الشرقية فى أحجار الكسوة ٠٫٢ من البوصة ، وعلى ذلك يكون متوسط الفرق فى نحت الحجر عن الخط المستقيم وعن المربع الحقيقى ٠٫١ ، وفى طول يبلغ ٧٥ بوصة على السطح . وهى درجة من الدقة تساوى ما تقوم به أحدث الأجهزة لضبط الحواف المستقيمة ، ورغماً من أنهم كانوا يقربون الكتل من بعضها إلى مسافة $\frac{1}{٥٠}$ من البوصة فالواقع أن متوسط الفتحة فى اللحام $\frac{1}{٢٠}$ من البوصة » .

وعند ما يتم وضع أحجار الكسوة فى أماكنها على الأوجه الأربعة

للمداك ، فمن الضرورى القيام بعمل مراجعة كاملة لهذا الجزء للتأكد من أنه لم يخرج عن الوضع الصحيح . ولم تكن هناك مندوحة من حدوث انحرافات صغيرة ، فإذا اكتشفت فى وقتها أمكن تداركها عند وضع المدماك التالى . وكلما تقدم العمل يزيدون فى ارتفاع منزلق التموين الرئيسى وجسور مشى العمال إلى المستوى الجديد فى الهرم ، ويعمل البناؤون فى تنعيم أعالى الأحجار التى أتموا وضعها وهى التى ستصبح اللحامات السفلية للمداك القادم . وهكذا يستمر البناء فى النمو مدما كا بعد مدماك ، حتى يصل فى النهاية إلى حجر القمة ، الذى كان يصنع عادة من الجرانيت ، فيوضع فى أعلاه . ولضمان تثبيت هذا الحجر فى مكانه نحتوا فى وسط قاعدته بروزاً أشبه بالقرص يركب مثل اللسان فى نقر أعد له فى وسط المدماك العلوى من البناء .

ويمكننا أن نفترض أن حجر القمة الذى يكون تشكيله قد تم ولكنه لا يزال خشن الجوانب ، كان يؤخذ إلى أعلى الهرم على زحافة ثم يحمل على عتلات حين ترفع من تحته الزحافة . ويمكن إدخال عوارض تحته ثم تبسط طبقة رقيقة من المونة فى المكان المعد له ، وأخيراً بعد سحب العوارض يهبط تدريجا بواسطة العتلات الموضوعة تحته فى الحافة الصغيرة التى فى الجوانب . وعثر جيكييه على نص فى هرم الملكة أوجبتن يتحدث عن حجر قمة هرمها المذهب ويوحى بأن هذه الأحجار كانت على الأقل فى بعض الأحيان تغطى بصفائح من الذهب .

ولم يصل إلينا مثال قديم من ذلك ، ولكن يوجد فى المتحف المصرى مثال جيد من هرم أمنمحات الثالث فى دهشور ، وهو مصنوع من الجرانيت الأشهب ونقشت على أوجهه الأربعة كتابات تحوى ابتهالات إلى إله الشمس وثلاثة آلهة أخرى .

وبذلك تكون عملية تشييد الهرم الشاقة قد انتهت ، ويمكن أن يبدأ العمل فى صقل الجوانب الأربعة الخارجية بادئين بحجر القمة ، وكلما تقدم العمل ينخفض منزلق التموين وجسر المشى وتظهر بذلك طبقة جديدة من أحجار الكسوة يبدأون فى صقلها هى الأخرى . ولكى ينجز العمل بسرعة أكبر فمن المحتمل ألا تجرى عملية تخفيض المنزلق والجسر تدريجا ، بل فى طبقات يبلغ ارتفاع كل منهما بضعة أقدام ، حتى يمكن إقامة سقالات من الخشب بدلا منهما ، وبهذا يستطاع استخدام عدد كبير من العمال يعملون على مناسيب مختلفة فى وقت واحد . ومن المؤكد أن السقالات كانت معروفة لقدماء المصريين ، وقد اقتصدوا وقتاً طويلا باستعمالها عند ما صقلوا ما تبلغ مساحته خمسة أفدنة من أحجار الكسوة على كل وجه من أوجه الهرم الأكبر . وعند ما تتم كل هذه العملية يطلق سراح عمال البناء ، وتصبح الأرض ممهدة لإقامة المعبد الجنازى ومبنى الوادى ، وما من شك فى أنهم كانوا قد وضعوا أساسات بعضها قبل أن يبدأوا فى تشييد الهرم نفسه .

ولم يأت بعد ذكر الطريقة التى استخدموها فى بناء الممرات

والحجرات بالهرم ، فمن جهة يتشابه العمل مع بناء الكسوات الداخلية لأن كلتا العمليتين تستلزم تركيب الأحجار بدقة فى وسط بناء من أحجار خشنة ، إلا أنه لما كانت الممرات والحجرات لا تشغل إلا جزءا صغيرا من الهرم كله فربما بنيت فى الغالب دون ارتباط بباقى العمل ، فتقام منزلقات إضافية يمكن فكها فى ساعات قلائل فى أية مرحلة مناسبة حتى يمكن رفع الكتل إلى منسوب أعلى بكثير من منسوب المدماك الجارى تركيبه . وبهذه الطريقة يصبح لدى العمال متسع من الوقت يستطيعون فيه تكملة عملهم فى الأجزاء الداخلية للهرم قبل أن ترفع المداميك المحيطة بقلب البناء إلى علو يتحتم فيه تسقيف الممر والحجرات ، وبعد ذلك لا يكون الوصول إلى الأجزاء الداخلية مستطاعا إلا عندما يزال جسر المشى أو منزلق التموين الذى يغطى الواجهة الشمالية للهرم إلى منسوب المدخل .

وكان من الممكن تسهيل العمل بإعداد الأحجار قبل أن يطلبها البناء . ونحن نعرف مثلا أنهم أعدوا كتل السقف بحجرة الملك فى الهرم الأكبر ووضعوها إلى جانب بعضها على الأرض ورقمت لكى يستطيعوا تركيبها ثانية دون تأخير عندما تؤخذ إلى مكانها النهائى ، وأدخل التابوت والسقاطات وكتل السدادات فى الهرم الأكبر فقط قبل أن تبنى جدران حجرة الدفن ، كما أتموا أيضا قبل ذلك الشتموق والدهليز التى كانت مهيأة لوضعها فيها .

وأرى أنه من الضرورى أن أذكر أن ما ذكرته فى هذا الكتاب خاصا بالطريقة التى أعتقد أن قدماء المصريين اتبعوها فى بناء الأهرام تختلف فى كثير من النقط الهامة مع وجهات النظر التى أعرب عنها بعض الاختصاصيين الذين يعتد برأيهم[1] . والاختلاف الرئيسى هو فيما يختص بعدد وترتيب المنزلقات ، وهى مشكلة لم يكشف حتى الآن عن الأدلة الكافية لإعطاء رأى نهائى فيها. وقد قرر پترى فى أحد أبحاثه عن هذا الموضوع اعتقاده بأن أحجار الكسوة فى الهرم الأكبر كانت تؤخذ إلى مداميكها الخاصة بها وأوجهها الخارجية مصقولة من قبل ، وكانت توضع فى مكانها بتحريكها من الداخل ؛ أى أن الكسوة توضع أولا فى كل مدمك ثم يملأ وسط الهرم بعد ذلك. وبهذه الطريقة — كما يقول پترى — يلزم إقامة منزلق واحد فقط ، ويتم إنجاز أوجه الهرم الثلاثة حال وضع أحجار كسوتها . وقد كتب پترى مدعما وجهة نظره : « هناك فرق بسيط فى الزاوية بين كتل الكسوة عند تلاحمها ، مما يثبت أن الأوجه لم تصقل منذ أن بنيت معا»[2] .

وفى الحقيقة ليس هناك مبرر معقول للشك فى دقة ملاحظات پترى أو مطابقة استنتاجاته للطريقة التى اتبعوها لوضع الأحجار

---

(1) Petrie, The Bu ng of a Pyramid in An:ient Egypt, 1930, pl. II, pp 33—9; N.F. Wheeler, Pyramids and their Purpose in Antiquity, Vol IX (1935), p. 172—4.

(2) Petrie, op. cit., p. 34.

القلائل الباقية من الكسوة فى الهرم الأكبر ، ولكن استنتاجه العام بأن نفس الطريقة قد اتبعت عند وضع كل أحجار كسوة البناء ، محل اعتراض قوى . فجميع الأحجار التى يتحدث عنها موجودة فى المدماك السفلى وتحتها أرضية ناعمة من أحجار طرة الجيرية تبرز إلى خارج خط الهرم نحو قدمين ، وكان من المستحيل وضع هذه الأحجار من الجهة الخارجية دون إتلاف حافة الرصيف الذى كان المفروض أن يبقى ظاهرا ، وبالمثل كان من الأمور غير المرغوب فيها تسوية الحافة السفلية للأحجار بعد وضعها فى مكانها ، لأن سطح الرصيف فى مثل هذه الحالة يتشقق ويخدش .

وعلاوة على ذلك فإن هذه الأحجار بالذات — أى المدماك الأسفل من الكسوة — ربما وضعت قبل غيرها من أحجار قلب الهرم لكى تحدد حجم واتجاهات قاعدة الهرم ، وذلك لأنه يمكن عمل التعديلات البسيطة فى وضع الأحجار إذا ما كانت طليقة من الخلف والأمام . وإن أى خطأ عند بناء القاعدة يسبب الخطأ فى الأثر كله وربما أخل بنظام شكله .

ولو أن پترى أوضح أن كتل الكسوة — فى أى منسوب مرتفع غير المدماك السفلى فى أى هرم — كانت توضع بزاوية بالنسبة لبعضها البعض لأصبحت حجته أقوى ، زد على ذلك أن الدليل على استعمال طريقة وضع أحجار الكسوة من الأمام راجح الكفة . ولو درسنا

بعض المبانى التى لم يتم العمل فيها لرأينا أن تلك الطريقة هى التى اتبعها البناؤون المصريون منذ بدء استعمال الأحجار الكبيرة فى البناء إلى آخر أيامهم ، ولدينا مثل فى أحد الأهرام وهو هرم منكاورع، حيث نجد أن الحجر الجيرى الذى استعمل لكساء الجزء الأعلى كان تام الصقل، ولكن أحجار الجرانيت التى تكسو الأجزاء السفلى ترك جزء منها خشنا ، وبذا تحددت النقطة التى وقف عندها العمل قبل أوانه . وإن وضع الأحجار من الأمام يستلزم ترك الأوجه الخارجية للأحجار فى حالة خشنة حتى توضع فى مكانها ، وإقامة الجسور أمام الوجه الخارجى من المدماك السابق وضعه والذى أصبح داخلا فى بناء الهرم، وكذلك إقامة الجسور أمام الوجوه الأربعة للهرم .

وهناك رأى آخر عن بناء الأهرام قاله ريتشارد ليبسوس ، وذلك أن حجمها كان يتوقف على طول حكم صاحبها ، وتلك هى النظرية المعروفة باسم « نظرية التزايد » . ولا شك أن بعض الأهرام — وخاصة هرم زوسر المدرج وهرم ميدوم — حدثت فيها زيادات متتالية، ونعرف كذلك أن كلا من الهرم الأكبر وهرم منكاورع حدثت فى مبانيه الداخلية تغييرات أثناء العمل فى التشييد ، ولكن التغييرات فى التصميم الأصلى كانت على أى حال نادرة الحدوث . ولو كان لطول الحكم علاقة مباشرة بحجم الهرم لتوقعنا من ببى الثانى — الذى اعتلى العرش حوالى أربع وتسعين سنة — أن يبنى هرما يبلغ حجمه

أضعاف هرم منكاورع الذى حكم مدة ثمانية عشر عاما فقط ، أو لفشل خوفو — الذى حكم نحو ثلاثة وعشرين عاما — فى بناء هرم مساو لهرم أوناس الذى يعتقد أنه حكم مدة ثلاثين عاما . فواضح إذن أن طول حكم الملك لا يمكن أن يؤثر على حجم الهرم ، أما الاعتبارات الفعالة فهى رغبة الملك الشخصية وسطوته والاعتقادات الدينية السائدة فى عصره .

وإزاء كل هذه العوامل المجهولة وغير الثابتة ، فمن العبث التخمين فيما يتعلق بعدد العمال اللازمين لبناء هرم من الأهرام الضخمة أو المدة التى يستغرقها العمل . وأى تقدير يبنى على الحقائق الميسورة لنا حتى الآن لا يمكن أن يكون دقيقا ، بل لا يمكن إلا أن يكون تقريبيا . ويقول هيرودوت إنه قد أخبر أن بناء الهرم الأكبر قد استغرق عشرين عاما ، وأن عمالا يبلغ عددهم مائة ألف رجل كانوا يشتغلون « لمدة ثلاثة أشهر » فى نقل الأحجار من المحاجر إلى الهرم[1] . ويبدو أن هيرودوت أراد أن يفهم قراءه أن العدد الكلى للعمال كان ٤٠٠,٠٠٠ رجل سنويا ، أى أربع مجموعات منفصلة كل منها ١٠٠,٠٠٠ رجل ، وكل مجموعة تعمل لمدة ثلاثة أشهر فى السنة . إلا أن مثل هذا العدد كان أكثر من اللازم ، ويمكننا التأكد من ذلك بعملية حسابية بسيطة ، فإذا كان المجموع المقـــدر لعدد الكتل فى الهرم وهو

(1) Herodotus, II, 124.

٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة صحيحا إلى حد ما ، فإن متوسط عدد الكتل اللازم نقلها فى كل سنة من العشرين سنة يكون ١١٥,٠٠٠ كتلة . . وكان متوسط وزن كل كتلة يبلغ نحو ٢½ طن ، وهو وزن يعتقد پترى أنه كان فى استطاعة جماعة مكونة من ثمانية رجال أن تنقله[1] . ولنفرض أن پترى كان على حق ، وأن مائة ألف رجل فقط كانوا يشتغلون فى كل سنة ، فإذن كان يطلب من كل جماعة نقل عشر كتل فى اثنى عشر أسبوعا . . ومثل هذا العمل كان بكل تأكيد فى مقدور مثل هذه الجماعة لو أن المسافة المراد قطعها لم تكن طويلة جداً ، حتى فى حالة كتل قلب البناء . وعلاوة على ذلك — كما قال پترى — كان العمل يجرى أثناء موسم الفيضان ، أى بين آخر يوليه وآخر أكتوبر ، وهو الوقت الذى تزرع الأرض فيه ويكون معظم الأهالى بلا عمل .

ولا يخامرنا الشك فى أن عمالا آخرين كانوا يشتغلون فى بناء الهرم ، علاوة على المائة ألف رجل الذين كان يؤتى بهم سنويا لنقل الكتل إلى الهرم الأكبر ؛ وهؤلاء الرجال هم البناؤون المهرة ومن معهم من العمال الذين كانوا يعملون بصفة مستمرة طوال السنة لتجهيز ووضع الكتل وإقامة أو هدم المنزلقات وجسور المشى ، وكانوا يسكنون فى مبان وجدها پترى غرب هرم خفرع . وبناء على تقدير پترى كان حوالى ٤٠٠٠ رجل يقطنون فى هذه الثكنات ، أى أن هذا العدد يمثل المجموع

(1) Petrie, The Pyramids and Temples of Gizeh, p. 210.

الكلي للعمال الدائمين، وكانت شظايا الأحجار التي يطرحها الحجارون تلقى على جوانب سفوح التلال شمال الهرم وجنوبه . وكتب پترى عن كمية الرديم فقال إن حجمها ربما ساوى أكثر من نصف حجم الهرم[1] .

وعثر في هرم ميدوم على بعض أحجار عليها تواريخ ملكية كان أعلاها « سنة ١٧ » ، وهي تشير إلى حكم سنفرو كما هو المفروض . إلا أنه في أثناء حكم ذلك الملك تغيرت كيفية حساب سني الحكم من الطريقة القديمة التي كان الملوك بمقتضاها يحسبون حكمهم على أساس التعداد الذي كان يعمل كل سنتين لحصر ممتلكاتهم . إلى إحصاء يعمل كل سنة ، وعلى هذا ربما كانت « سنة ١٧ » تحتوي على عدد من سني الإحصاء (كل منها مكون من سنتين تقويميتين) وبعض سنين فردية ، إذ أننا لا نعرف عدد كل نوع منها على حدة . وحتى لو أمكن معرفة التركيب المضبوط للتاريخ على وجه التحديد ، فلا بد من معرفتنا في أية سنة من حكم الملك بدأ العمل في الهرم ليمكن حساب المدة التي استغرقها بناؤه .

ولا شك أن حصولنا على المعلومات الخاصة بهذه المسائل — أي الطرق التي استخدمها بناة الأهرام ، وعدد العمال الذين استخدموهم ، والوقت الذي استغرقه العمل — يلقي ضوءاً على التقدم الصناعي في العصور القديمة ، ولكن ذلك لا يعطينا الجواب عن سؤال أهم ، وهو :

---

(1) Petrie, op. cit., p. 21.

لماذا اختار قدماء المصريين بناء مقابرهم على هيئة الهرم ؟ على أنه — قبل محاولة الإجابة على هـذا السؤال — يحسن أن نناقش أصل كلمة « الهرم Pyramid » . فى اللغة المصرية القديمة كانت تطلق كلمة مر (m(e)r) على هذا النوع من المقابر ، ولـكن هذا الاسم لا ينطوى مطلقاً على أى معنى وصـــفى . وترجع كلمة Pyramid فى أصلها إلى الكلمة اليونانية "Pyramis" وجمعها "Pyramides" التى كثيراً ما حاول الباحثون معرفة الأصل المصرى التى اشتقت منه ، ولـكن دون جدوى .

وهناك تعبير هندسى يُنطق : پر . إم . أس Per-em-us (أى الذى يخرج رأساً من الـ أس us . وهى كلمة ليس لها معنى محدد) . وتـكتب هذه الـكلمة فى الهيروغليفية بحروف ساكنة ويقصد منها الارتفاع الرأسى للهرم فى أحد الأبحاث الرياضية[1] . ولـكى نقبل أن "Pyramis" مشتقة من Per-em-us يجب أن نفرض أن الإغريق إما أنهم أخطأوا فى فهم التعبـير المصرى ، أو أنهم — لأسباب غير معروفة — أسموا الـكل باسم الجزء على سبيل المجاز . ونظراً لعدم وجود أى تفسير مقنع ، يبدو من الأفضل أن تعتبر Pyramis كلمة إغريقية أصيلة غير مشتقة من لفظ مصرى .

---

(1) The Rhind Mathematic Papyrus in The British Museum
بردية ريند فى المتحف البريطانى .

وتوجد كلمة مشابهة تماما معناها «كعكة من القمح»، وقد قال البعض بأن الإغريق استعملوا هذه الكلمة على سبيل الفكاهة للتعبير عن تلك الآثار المصرية[1]، لأنها عندما ترى من بعيد تشبه الكعك الكبير. ومن هذا القبيل كلمة obeliskos، فهي — علاوة على أن معناها مسلة — لها معنى آخر وهو «بصقة بسيطة» أو «سيخ»؛ وهذا مثل آخر للطريقة التى طبقها الإغريق فى تسمية الأشياء التى لا يوجد لها شبيه فى بلادهم، فبدلا من أن يستعيروا لها كلمة أجنبية يجتهدون فى أن يطلقوا عليها وصفا فكاهيا بلغتهم.

ويعتقد بورخارت أن الهرم الكامل تطور من الهرم المدرج بنفس الطريقة التى تطور بها الهرم المدرج بدوره من المصطبة[2]. والدليل الواضح على هذا التطور فى الحالة الثانية هرم زوسر المدرج، حيث يمكن رؤية طرف المصطبة الأصلية فى الواجهة الجنوبية، وفى الحالة الأولى هرم ميدوم، حيث تحول من بناء مدرج إلى هرم كامل، بملء الدرجات بالبناء لكى تصبح الجوانب مائلة بزاوية واحدة مستمرة من القمة إلى القاعدة. وما من شك فى أن الأثرين المذكورين قد حدث فيهما التحول المنسوب إليهما، ولكن قبل أن نستطيع الادعاء بأن الشكل الأخير كان مجرد تطور أملته الدوافع الفنية يجب أن نبين

(1) W. G Waddell, Herodotus, II. p. 139

(2) L Borchardt, Die Entelenbung der Pyramide (Berlin,1928)

أن الأثر فى هيئته النهائية كان أول مثل معروف من نوعه . ولكن مثل هذا القول لايمكن التقدم به الآن عن الهرم المدرج ، لأن و.ب إمرى (W. B. Emery) قد عثر حديثا فى سقارة على مقبرة من الطوب اللبن من نوع متدرج يرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى[١] .

كما أن ما قيل بشأن هرم ميدوم لا يمكن أن يكون قائما على أساس متين . ومع أن الهرم المنحنى أصبح منبعج الشكل فى النهاية ، إلا أنه كان قد صمم على أنه هرم كامل . ولكن التغيير حدث عندما وصلوا إلى منتصف بنائه ، وذلك إما ليسرعوا فى إتمامه أو لأن بنائيه غير المدربين خافوا من أن ميله الشديد الانحدار قد يودى بالبناء كله[٢] .

ولا يعلم من هو صاحبه على وجه التحقيق ، ولكن هناك أسبابا قوية تدفعنا للاعتقاد بأن هذا الهرم قد بنى قبل هرم ميدوم ، أو على الأقل قبل أن يتخذ شكله النهائى . فمثلا نجد أن ميل أحجار كسوته إلى الداخل مطابق لميل أحجار كسوة الهرم المدرج ، ومن جهة أخرى

---

(1) W. B. Emery, "A Preliminary Report on Architecture of the Tomb of Nebetka" in Annales du Service des Antiquités, Vol. XXXVIII (1938), pp. 455—9.

وذكر ريزنر فى كتابه (Tomb Development, p. 112) أن الهرم فى زاوية العريان بنى فى الأسرة الثانية ، ولكن ما قدمه من أدلة ليس مقنعا .

(٢) ربما لم يكن من الأمور العارضة أن رفيقه فى دهشور — وهو ثانى هرم كامل — قد بنى بنفس الزاوية التى بنى بها الجزء الأعلى من الهرم القبلى

نجد أن أحجار كسوة هرم ميدوم الخارجية وضعت مسطحة وتتفق في هذه الناحية مع الأهرام التي تلت هرم دهشور .

وأغلب الظن أن هرم ميدوم هو نقطة الانتقال من طريقة البناء القديمة إلى طريقة البناء الحديثة ، لأن الطبقات الداخلية من أحجار الكسوة وضعت في مداميك مائلة .

فإذا سلمنا بأن الهرم المنحنى كان قد صمم في الأصل كهرم كامل ، وأنه بنى قبل هرم ميدوم ، فإن تفسير الشكل الهرمى يجب أن نبحث عنه في مكان آخر بعيدا عن محيط التطور المعمارى . ولكن تنشأ أمامنا مشكلة أخرى ، لأننا في حاجة لمعرفة سبب الرجوع إلى طراز الهرم المدرج في ميدوم (كما وضعوا تصميمه الأول) بعد أن أدخل بناؤو الهرم المنحنى شكل الهرم الكامل ، وسنقدم فرضا محتملا لهذه المشكلة الثانية في مكان آخر من هذا الفصل .

وقد جاء في كتابات ج . ه . برستد عن أهمية الهرم أن « الشكل الهرمى لمقبرة الملك كان له أعظم معنى مقدس . فكأن الملك يدفن تحت رمز إله الشمس الذى كان في قدس الأقداس في معبد الشمس في هليوبوليس ، وهو الرمز الذى اعتاد منذ اليوم الذى خلق فيه الآلهة أن يظهر نفسه على هيئة طائر الفونكس (العنقاء) . وعندما كان الهرم يرتفع كالجبل فوق ضريح الملك مشرفا على المدينة الملكية التى كانت تحته ، وعلى الوادى ، وكان الناس يرونه من مسافة أميال عديدة ، كان

هو أعلى المبانى التى تحي إلـه الشمس فى جميع أنحاء البلاد ، وكانت أشعة الشمس فى الصباح تتلألأ على قمته قبل أن تنتشر فى الوادى الذى تحته وفى مساكن الأشخاص الذين هم دونه فى الجاه والذين لم يكتب لهم الخلود» [1].

فإذا كان الهرم — كما اعتقد برستد — صورة مكبرة لرمز الشمس المحفوظ فى معبد هليوپولس ، ترتب على ذلك أن هذا الرمز ربما كان حجرا على شكل هرمى . ولكن ماالذى كان يمثله هـذا الحجر ؟ ليس أمامنا إلا جواب واحد ، وهو أنه يمثل أشعة الشمس وهى تنزل على الأرض . فكثيرا ما نرى منظرا تنشرح له النفس بعد ظهر يوم كثير السحاب من أيام الشتاء فى منطقة الجيزة ، عندما نقف فى الطريق الموصل إلى سقارة وننظر جهة الغرب نحو الهضبة التى تقوم فوقها الأهرام ، إذ تنفذ أشـعة الشمس إلى أسـفل من خلال فرجة بين السحب فى زاوية تقارب الزاوية التى تميل بها أضلاع الهرم الأكبر . وإن الأثر الذى يتركه مثل هـذا المنظر فى النفس هو أن كلا من الأصل غير العادى والصورة المادية يقومان فى هذا المكان جنبا إلى جنب [2] .

---

(1) H. Breasted, The Development of Religion and Thoughts in Ancient Egypt.

(٢) ولاحظ ألكسندر موريه (Alexandre Moret) فى كتابه (Le Nil) ص ٢٠٣ الملاحظة الآتية : « إن هذه المثلثات العظيمة المكونة لجوانب الهرم =

ولكن هل من الضرورى أن نظن — كما ظن برستد — أن الهرم كان يقصد به مجرد صورة من الرمز الشمسى فى معبد هليوپوليس ؟ أليس من الممكن أيضا أن يكون له معنى آخر ؟ فكثيرا ما نقرأ فى متون الأهرام وصفا للملك وهو يصعد إلى السماء على أشعة الشمس، فمثلا نقرأ فى المتن رقم ٥٠٨ : « لقد وطئت أشعتك هذه كأنها منزلق تحت أقدامى عندما صعدت إلى أمى ، الصل الحى على جبين رع » ، ونقرأ ثانيا فى المتن رقم ٥٢٣ : « لقد قوت السماء لك أشعة الشمس لكى تستطيع أن ترفع نفسك نحو السماء مثل عين رع » .

ومن هذا نرى أن فكرة اعتبار الهرم أنه الوسيلة التى يستطيع الملك المتوفى أن يصعد بها إلى السماء فكرة مغرية لا يمكن مقاومتها ، إذ أن هذا التفسير يجعل من بناء الهرم غرضا ماديا محضا ويتفق مع العناصر الأخرى فى المجموعات الجنازية للملك .

زد على ذلك أن الهرم لا يصبح فى هذه الحالة التمثيل المادى الوحيد لشىء لا يمكن الإحاطة به أو لمسه بين الأثاث الجنازى والمعدات الخاصة بالملك . فالمراكب الخشبية التى كانت توضع على مقربة من الهرم فى حفرات يكسون جدرانها من الداخل بأحجار جيرية من طرة لم تكن إلا ممثلة للمراكب غير العادية التى يستخدمها الملك فى سفره عبر السماء فى صحبة إله الشمس .

= تبدو مثل أشعة الشمس إذ تسقط من السماء عندما تحجب العاصفة قرصها فتنفذ من خلال السحب، كأنها تنزل سلما من الأشعة نحو الأرض » .

إن الفكرة التى تقوم عليها كل حالة من الحالتين هى مبدأ حلول شىء مكان آخر ، أى نموذج منه ، سواء أكان تمثالا حجريا لشخص أو منظرا منقوشا على الحجر ، فإن ذلك فى اعتقادهم يملك كل المزايا التى للشىء الحقيق الذى تمثله .

ولم يكن للحجم أى أهمية أساسية فى صلاحية الشىء البديل ، وربما كان ذلك هو السبب فى التدهور السريع فى حجم الهرم بعد أيام خوفو وخفرع .

ولنلق الآن نظرة جديدة على الكلمة المصرية التى تعنى الهرم فى ضوء هذه النظرية الجديدة ، فلعلنا نجد لها معنى لم نلاحظه حتى الآن . لقد كان المصريون يطلقون على الأجزاء المختلفة من معابدهم وغيرها من الأماكن الدينية أسماء تدل على وظائفها ، فالمبنى الذى كان فى معبد هيلوبوليس والذى كانوا يضعون فيه الرمز الشمسى المسمى بالمصرية «بن — بن» كانوا يسمونه «بيت البن — بن» ، وكانوا يسمون المقبرة — كما ذكرنا — «حصن الأبدية» . وكذلك أطلقوا على بعض أجزاء من المجموعة الهرمية أسماء تدل عليها ، فالطريق الجنازى كان اسمه «طريق السَّحْب» (را — ستا) ومعنى الكلمة أنه الطريق الذى تُسحب عليه الزحافات التى تحمل جسد الملك المتوفى وما معه من أشياء خاصة به . وكذلك الباب الوهمى فى المقدس كانوا يسمونه «مدخل البيت» (را — پر) ، وسموا المركب المقدس «السفينة الإلهية» .

ومن الممكن أن تكون كلمة مر (= هرم)من قبيل هذا النوع من الأسماء ، إذا أمكننا أن نثبت أن هذا مكون من مقطعين أولهما « م » التي تأتى فى اللغة المصرية بمعنى مكان إذا وضعت فى المقدمة ، والمقطع الثانى « عر » ومعناها يصعد أو يذهب إلى أعلى ، فيصبح معنى « مر » مكان الصعود . وسقوط حرف العين بعد حرف الميم فى أول الكلمة ليس بالشىء النادر فى اللغة المصرية فى تكوين الكلمات . على أننا لا نقول إن هذا رأى تحت أيدينا البرهان على صحته ، وإنما هو فى الواقع نتيجة لمناقشة سلبية . وعلى ذلك فإذا لم نحصل على دليل إيجابى عن اشتقاق كلمة « مر » فكل ما يمكننا قوله أن تفسيرها بأنها « مكان الصعود » أمر لا يتعارض مع القواعد اللغوية ، وملاءمتها للفكرة يجعلها أدنى إلى أن تكون مقبولة .

وهناك نقطه أخرى هامة توحيها إلينا كتابه كلمة « عر » . فقد كان من عادة المصريين فى كتابتهم أن يضيفوا علامة المخصص إلى آخر الكلمة . وهذه المخصصات ليست إلا علامات بمعانى الكلمات يضعونها فى آخرها . وكانت الكلمات المصرية مكونة من حروف ساكنة ،لأنهم لم يكتبوا حروف العلة .

والمخصص الذى كتبوه بعد كلمة « عر » هو 𓊍 الذى فسر دائما على أنه سلم مزدوج ، ولكن من الممكن أيضا اعتبار أنه يمثل هرما مدرجا ، فقد كان من عادة المصريين عند رسم شىء أن يصوروه سواء من الجانب

أو من الأمام ويوضحوا منظره كله ، لأن رسم ثلاثة أرباع الشيء أمر لم يعرفه المصريون .

وعلى ذلك فمخصص كلمة « مر » كان يكتب دائما [hieroglyph] وهو يمثل المنظر الأمامي لهرم كامل يحيط به سور مستطيل . فإذا كانت تمثل هرما مدرجا فإنها تكون المخصص الذي اختاروه لكلمة « عر » ، لأن الأهرام المدرجة كانت وثيقة الصلة بفكرة الصعود ، ونرى في المتن ٢٧٦ من متون الأهرام بعض ما يفسر لنا هذا الموضوع : « لقد وضع لأجله (أي الملك) سلم للسماء ليصعد به إلى السماء » ، وتكررت الفكرة ذاتها في متن ٦١٩ ؛ وعلى ذلك يمكن تقديم تفسير واحد لكل من شكلي الأهرام . أما اختلاف شكليهما فيرجع إلى أن لكل منهما أصلا نقل عنه .

ولم يكن المصريون هم وحدهم بين شعوب الشرق القديمة الذين يؤمنون بأنه يمكن الوصول إلى السماء وإلى الآلهة بالصعود على بناء مرتفع ، إذ نرى هذا الاتجاه في التفكير في بلاد ما بين النهرين . ففي وسط أي مدينة في أشور أو في بابل كانت توجد منطقة مقدسة فيها المعبد وملحقاته وقصر الملك . وفي داخل حرم المعبد يقوم برج مرتفع مشيد بالطوب ، وهو المعروف باسم « الزقورة » . ويصف هيرودوت « زقورة بابل » — وهي التي يعتقد العلماء أنها أصل برج بابل المذكور في التوراة — فيقول :

« وفى وسط الفناء قام برج متين البناء طوله ٢٢٠ ياردة ($\frac{1}{8}$ ميل) وعرضه كذلك ، وبنوا فوقه برجا آخر ، وبنوا فوق الثانى برجا ثالثا ، وهكذا حتى وصلوا إلى الثامن . وكانوا يصعدون إلى الأبراج العليا بواسطة سلم من الخارج يدور حول الأبراج ، وفوق البرج العلوى معبد فسيح ، وفى داخل المعبد سرير كبير مغطى بمفارش جميلة وإلى جانبه منضدة من الذهب .

ولا يوجد فى هذا المكان تمثال من أى نوع ، كما أن هذه الحجرة لا يشغلها أحد أثناء الليل اللهم إلا امرأة من الأهالى يؤكد الكلدانيون كهنة الإله أن الإله اختارها لنفسه من بين جميع نساء البلاد . ويقولون أيضا — ولكنى لا أصدقه — أن الإله يأتى بنفسه إلى هذه الحجرة وينام فوق السرير »[1] .

وكانت للزقورات أسماء ، شأنها فى ذلك شأن الأهرام ، فزقورة سيبار مثلا كانت تسمى « بيت سلم السماء الساطعة » وهو اسم واضح الدلالة على أنهم كانوا يقصدون من هذا البناء أن يكون حلقة اتصال بين السماء والأرض . ولكن هذا التشابه بين البناءين لا ينطبق على موضوع الدفن ، لأن الزقورة لم تستخدم أبدا كقبر ، بينما كان كل هرم يقام لهذا الغرض .

ونظرا لقلة الأدلة المكتوبة فإن أية محاولة لمعرفة الأصلين التاريخى

(1) Herodotus, I, 181—2.

والديني للأهرام تكون مفعمة بالتخمينات ، ولا يمكن أن نتوقع منها إلا نتائج غير حاسمة .

ومع ذلك فإن هذه المعضلة من المعضلات التي يجب أن نواجهها دائما عندما نحاول من دراستنا للمخلفات الأثرية أن نكون في أذهاننا صورة عما كان يحدث في الماضي البعيد .

ويشبه هذا العمل من وجوه كثيرة حل لغز من الألغاز التي تستخدم فيها القطع الخشبية الصغيرة المكملة لبعضها ، ففي مثل تلك اللعبة يمكن تجميع أجزاء مختلفة من المنظر يوافق بعضها البعض قبل أن نعثر على القطع التي تربط بعض هذه الأجزاء ببعض ، وكم من مرة يحدث عند العثور على قطعة من القطع أن يغير الشخص رأيه الذي كان قد بدأ يكونه عن الفكرة العامة للمنظر كله أو صلة الأجزاء المختلفة ببعضها .

وفي تفسيرنا لمعضلات الآثار فإن الفكرة العامة للغز نحصل عليها من حوادث معينة نعرف تواريخها على وجه التقريب ، ولكن تظل بينها فجوات كبيرة نحاول ملأها فلا نجد ما نملأها به إلا حقائق ثابتة حينا ومجرد تخمينات في حين آخر . وعندما تسفر الحفائر الأثرية أو الأبحاث العلمية عن معلومات جديدة تعطي تفسيرات جديدة لأشياء كانت معروفة على وجه آخر ، فإننا نبادر إلى ملء بعض الفجوات ، ولكن كثيرا ما يحدث عندما نشرع في ذلك أن نرى أن كثيرا من الأماكن قد ملئت خطأ فنضطر إلى تصحيح الأوضاع من جديد .

فإذا طبقنا هذا التشبيه على المقابر الملكية المبكرة ، فإن القطع الرئيسية الثلاث فى هذا اللغز هى المصطبة والهرم المدرج والهرم الكامل ، والمعضلة هى أن نحاول ملء الفجوات التى تفصل هذه القطع الثلاث .

فبين المصطبة والنوعين الآخرين من الأهرام فجوة واسعة ، فأولاها تمثل القصر الملكى ، وفى هذا دلالة على أن الحياة بعد الموت لا يمكن أن تكون فى أى مكان آخر غير المقبرة ، أما الأخيران فيدلان على توقع الوصول إلى المناطق السماوية .

ولسنا نعرف على وجه التأكيد التاريخ الذى حدث فيه تغيير شكل القبر ، ولكن هذا التاريخ يجب أن يكون محصورا بين منتصف الأسرة الأولى وبداية الأسرة الثالثة . فإذا سلمنا بأن كلا من «عحا» و«چر» دفن فى المقبرة المنسوبة إليه فى سقارة ، فلا بد أن كلا منهما دفن فى مصطبة . . ولكن زوسر بنى هرما مدرجا ، فهل كان هذا التغيير فى طراز القبر راجعا إلى تغيير فى العقيدة ؟

فإذا كان الأمر كذلك فإن المصريين يكونون قد بدأوا يمزجون بين العقيدتين فى عهد زوسر ، لأنه — علاوة على هرمه — نراه قد بنى لنفسه «المصطبة الجنوبية» ، لتكون على ما يظهر قبرا رمزيا له .

ولسنا نعرف إن كان قد صاحب هذا المزج فى العقائد نزاع دينى

مرير أو أنه تطور تطورا سلبيا . ولكن منذ الوقت الذى تم فيه هذا المزج عاشت العقيدتان جنبا إلى جنب فى صفاء ، وأراد الملوك أن يقسموا حياتهم الأخرى بين القبر وبين المناطق السماوية .

ومما يدعو إلى الأسف أن الهرم ذا الطبقات والهرم الناقص — وكلاهما فى زاوية العريان — قد عدا عليهما الزمن، ثم هما فى الوقت ذاته لم يتم العمل فيهما ، وعلى ذلك فلا يمكن أن نعرف منهما أكثر من أن بعض ملوك الأسرتين الثانية والثالثة — غير الملك زوسر — بنوا أهراما مدرجة . ولا يوجد على الإطلاق ما يثبت أنهم بنوا — أو عزموا على بناء — مصطبات إضافية .

وإلى أن نعرف صاحب الهرم المنحنى لا يمكننا البحث فى أمره ، ولكن لا يوجد فى معالمه المعمارية ما يدل على أن تاريخه بعد تاريخ هرم ميدوم . لقد بنى سنفرو هرمين أحدهما فى ميدوم والآخر فى دهشور ، وتم بناء أولها كهرم مدرج قبل أن يحولوه إلى هرم كامل . وعلى ذلك يتضح لنا أن غرض سنفرو الأصلى هو أن يكون له هرم من كلا النوعين ، وبذلك يكون له مدفن من الطراز القديم وآخر من الطراز الحديث [١] .

وهنا تظهر المشكلة مرة ثانية . ونتساءل عما إذا كان تغيير شكل

(١) لم يعد لهذه التخمينات محل بعد أن ثبت أن هرمى سنفرو هما هرما دهشور ، القبلى (المحنى) والبحرى . [المعرب]

الهرم من مدرج إلى كامل قد تم دون حدوث احتكاك ، لأن الحوادث التى حدثت بعد ذلك تشير إلى أن هذا الانتقال لم يكن سهلا .

وتقع ميدوم على بعد ٢٨ ميلا من دهشور ، ولا بد أنه كان هناك سبب لوضع إحدى المقبرتين بعيدة عن الأخرى بهذه المسافة . فهل كان سنفرو يخشى من حدوث احتكاك بين كهنة هرمه المدرج (فى ميدوم) وكهنة هرمه الكامل ؟

إن تغيير هرم ميدوم لكى يصبح فى النهاية هرما كاملا ربما أوجبه تأكد الملك من أنه لا يمكن التوفيق بين الكهنة من الفريقين ، ومعرفته بالأخطار التى تصيبه فى الحياة الأخرى نتيجة لتنافسهما وحرص كل منهما على أن يكون الحارس لجسده . فلما أتم سنفرو تحويل هرم ميدوم إلى هرم كامل بدلا من هرمه ، أصبح مالكا لقبر رمزى ينفعه فى حالة حدوث أى ضرر لقبره فى دهشور ، وبذلك أعطانا البرهان القاطع على تدهور شأن عقيدة الهرم المدرج .

وبعد أن انتصرت العقيدة الجديدة واستتب لها الأمر ، بنى خوفو أعظم الأهرام الكاملة حجما وأكملها من الناحية المعمارية والذى يعد بحق من عجائب الدنيا النادرة وليس من بين عجائب الدنيا السبع وحسب . وهرم خفرع الذى يقوم إلى جانبه لا يقل عنه إلا قليلا .. ومن هذا نرى أن مؤازرة الملوك للعقيدة الجديدة تدرجت من الأب إلى الابن دون حدوث شىء .

ولكننا نعرف أن « ددف رع » — وهو ابن لخوفو من زوجة فى المرتبة الثانية — جلس على العرش بين خوفو وخفرع . وهناك ملاحظتان بشأن قبر هذا الملك ، الأولى أنه لم يبن هرمه فى الجيزة حيث يوجد مكان متسع لهذا القبر بل بناه فى أبى رواش على مسافة خمسة أميال ، والثانية أن بناءه السفلى كان يختلف عن أى هرم بنى بعد الهرم الناقص فى زاوية العريان وهرم زوسر المدرج . فهل أراد ددف رع فى البداية أن يبنى هرما مدرجا ليكافئ كهنة هذه العقيدة الذين ساعدوه فى تولى الملك ؟ لا جواب على هذا السؤال . لأنه لايكاد يوجد حجر واحد باقيا فى مكانه فى المبنى العلوى ، كما أنه من الممكن أن يكون تصميم البناء السفلى قد أملته طبيعة الصخر فى أبى رواش .

وبعد ددف رع لا يوجد إلا ملك واحد فى الدولة القديمة أعرض عن الهرم الكامل ، وهو شبسسكاف . وأسهل تفسير لهذا النكوص هو أن الذى أملى عليه ذلك هو رغبته فى الخروج على النفوذ الطاغى المتزايد لكهنة إله الشمس فى هليوبوليس ؛ واعتقاده بأن المصطبة يمكن أن تؤدى جميع مطالب الحياة الأخرى غير السماوية .

وتبعته زوجته خنتيكاوس فبنت قبرها أيضاً على شكل مصطبة على مقربة من مبنى الوادى التابع لأبيها منكاورع ، ولكن قبل أن توارَى التراب أخذ نجم عقيدة كهنة الشمس فى الارتفاع ، وأصبح لها النصر الكامل عندما تأسست الأسرة الخامسة .

وربما جعلت سنوات النزاع أولئك الكهنة يتخذون موقفاً أكثر مسالمة ومحبة للتوفيق ، لأن متون الأهرام تبين لنا أنه لم تأت نهاية الأسرة الخامسة حتى نرى أن جميع المذاهب التى كانت معروفة من قبل عن الحياة الأخرى قد جمعت معا دون نظر إلى ما فيها من متناقضات .

ولم يحدث تغيير جوهرى فى بناء الهرم فى الأسرة السادسة . ومن هذا الوقت استمر المصريون فى تشييد الأهرام ، على أنه من المشكوك فيه أن يكونوا قد جعلوا لها أى معنى خاص أكثر من أنها الطراز المعتاد للقبر الملكى .

حاشية : فى الوقت الذى كان فيه هذا الكتاب تحت الطبع ، ظهر فى الصحف[1] تقرير بأن عبد السلام حسين القائم بعمل حفائر فى دهشور لحساب مصلحة الآثار المصرية ، قد عثر فى الهرم المنحنى على بعض أحجار عليها اسم سنفرو . ويجب أن ننتظر تقريرا كاملا عن هذا الاكتشاف ينشره المكتشف نفسه لنعرف أهميته ، وعلى أى حال فقد جاء الدليل الآن على أن هذا الهرم يخص سنفرو وليس حونى (Huni) سلفه . فإذا كان هرم ميدوم هو هرم سنفرو الثانى — كما يبدو على الأرجح — فإن الهرم الحجرى الشمالى فى دهشور يجب أن يكون لملك آخر نتوقع أن تكشف عن حقيقته الحفائر فى المستقبل[2] .

---

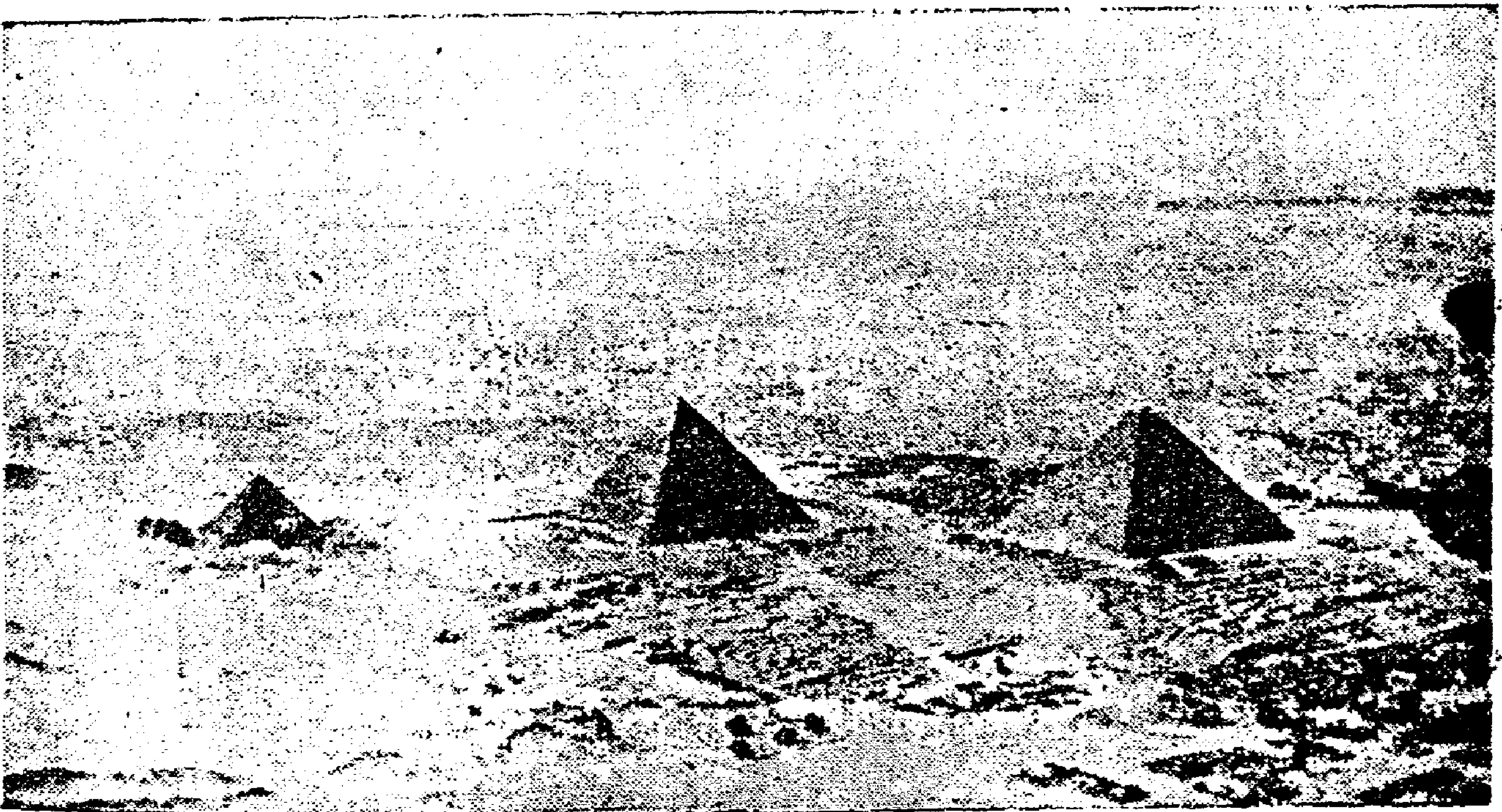
(1) Illustrated London News, 22 nd March and 5 th April 1947.

(٢) قد ثبت أن هرم دهشور البحرى هو هرم سنفرو الثانى . [المعرب]

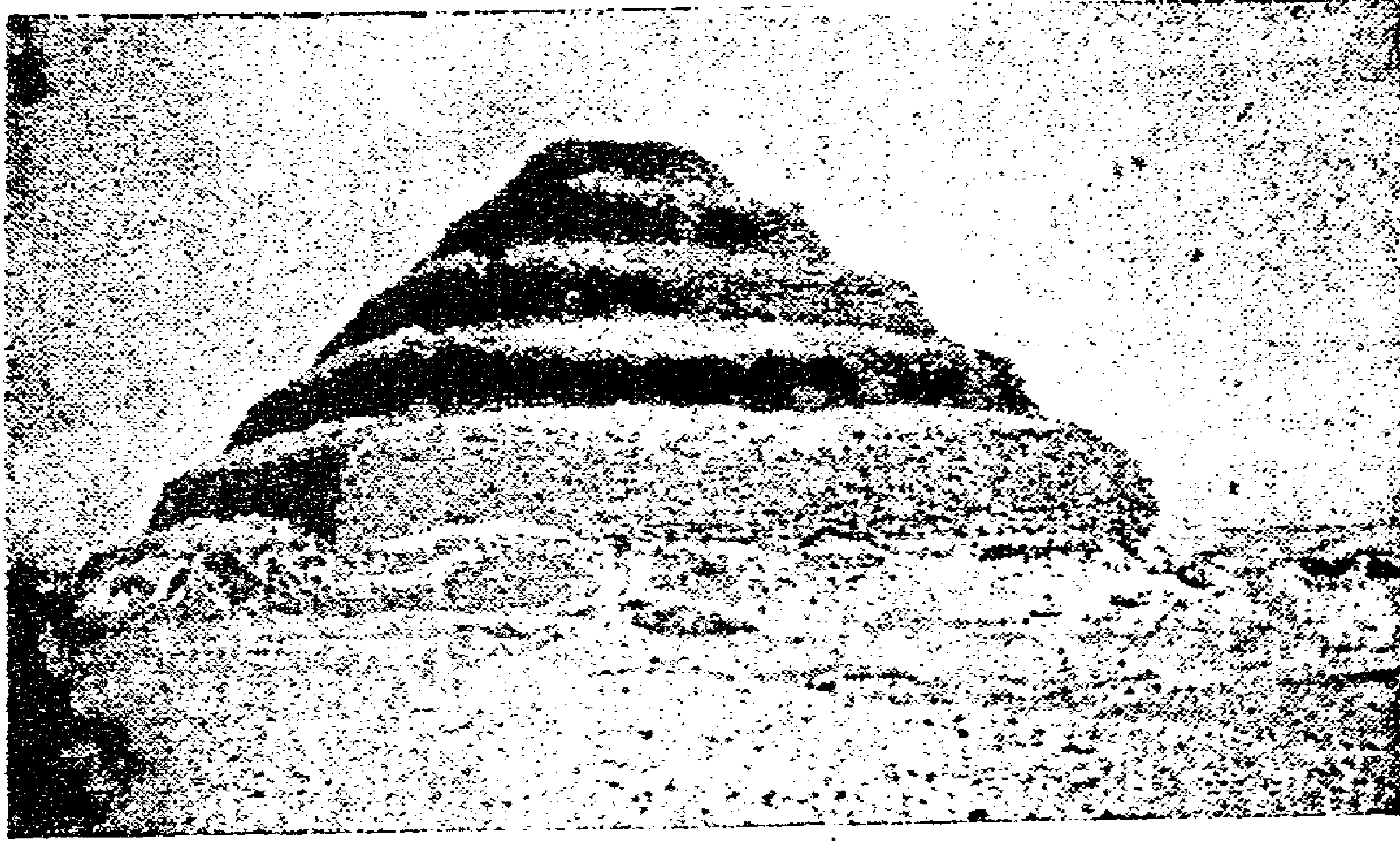
أهم أهرام الدولتين القديمة والوسطى

اسم الملك	الأسرة	المنطقة	أبعاد القاعدة بالتقريب	اسم الهرم
زوسر (الهرم المدرج)	الثالثة سنة ٢٨١٥ ق.م	سقارة	٤١١ قدما شرق . غرب ٣٥٨ قدما شمال . جنوب	—
حع . باو (؟) (هرم الطبقات)	الثالثة (؟)	زاوية العريان	٢٧٦ قدما مربعاً	—
نب . كا (؟) (الهرم الناقص)	الثالثة (؟)	زاوية العريان	—	—
حونى (؟) (١) (الهرم المفني)	الثالثة	دهشور	٦٢٠ قدما «	—
سنفرو	الرابعة ٢٦٩٠ ق.م	ميدوم	٤٧٣ قدما «	الهرم الجنوبي «سنفرو يلمع»
سنفرو(١)	الرابعة	دهشور	٧١٩ قدما «	الهرم «سنفرو يلمع»
خوفو (الهرم الأكبر)	الرابعة	الجيزة	٧٥٦ قدما «	الهرم «خوفو هو المنتسب للأفق»
ددف رع	الرابعة	أبورواش	٣٢٠ قدما «	— —
خفرع	الرابعة	الجيزة	٧٠٨ قدما «	الهرم «عظيم هو خفرع»
منقرع	الرابعة	الجيزة	٣٥٦ قدما «	الهرم «منكاورع إلهي»

(١) انظر الحاشية



لوحة ١ — أهرام الجيزة مصورة من الجو



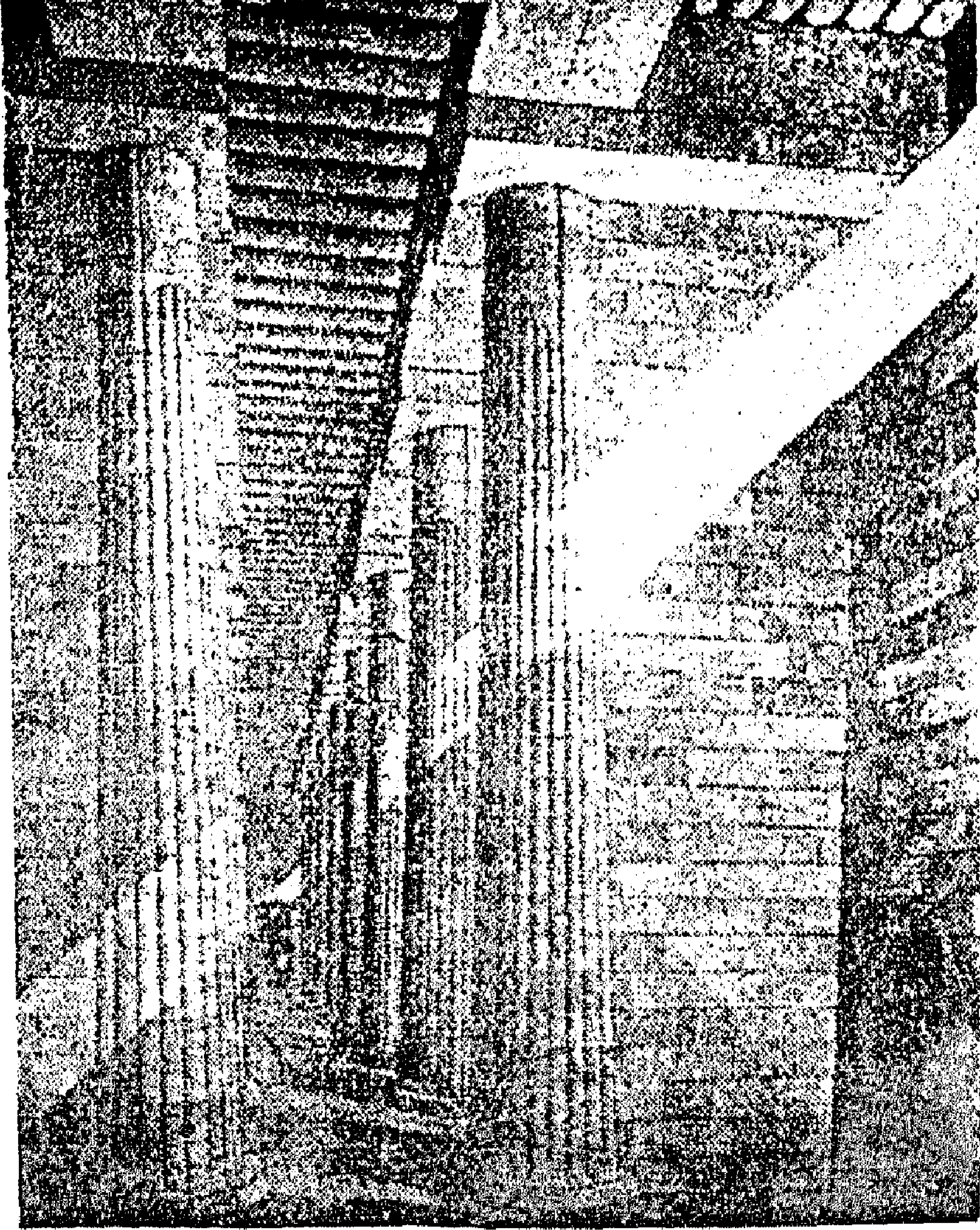
لوحة ٢ — الهرم المدرج بسقارة . الجانبان الجنوبى والغربى



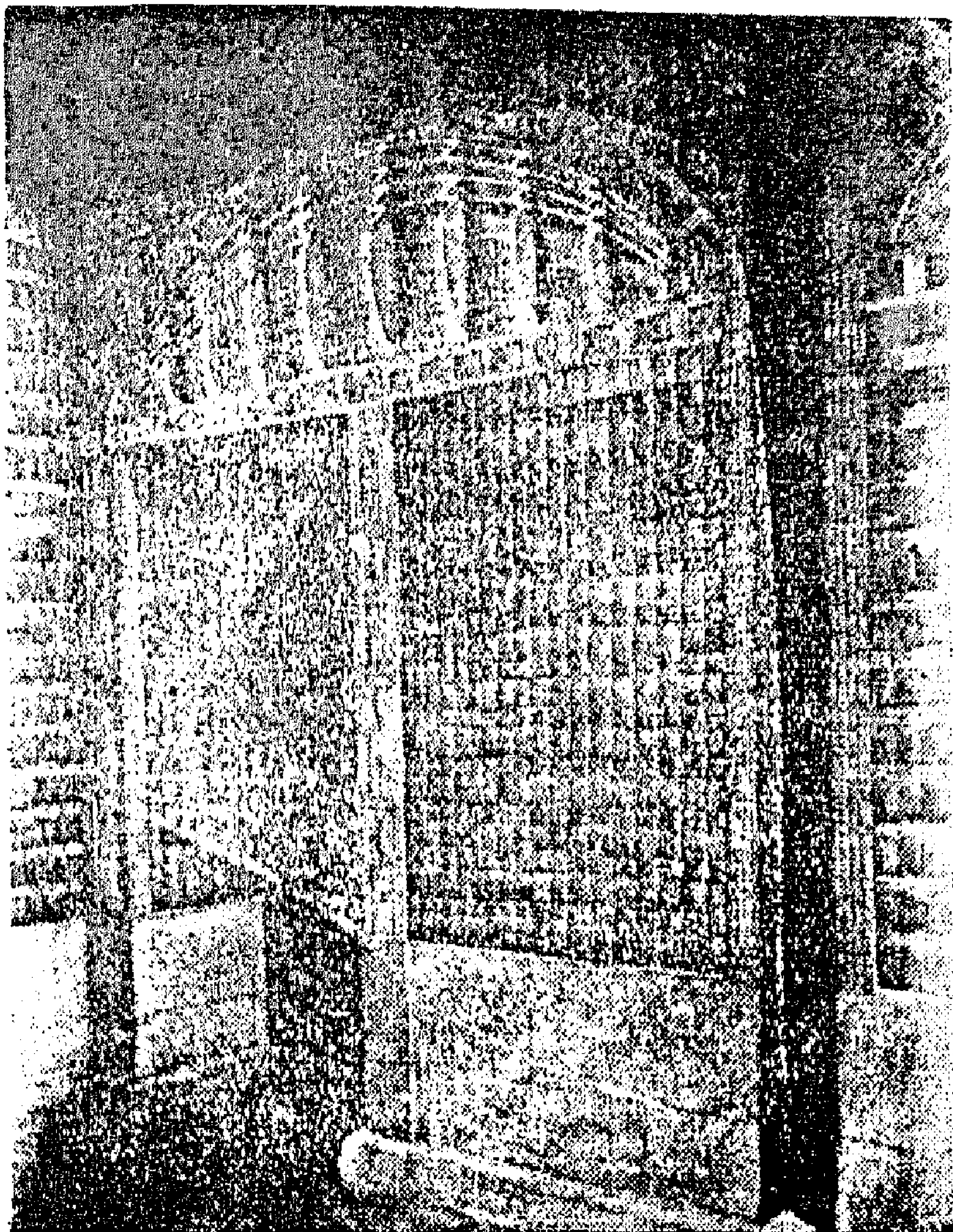
لوحة ٣ ا — نقوش بارزة على الحجر للفرعون زوسر
وهو يؤدى بعض الطقوس الدينية . سقارة



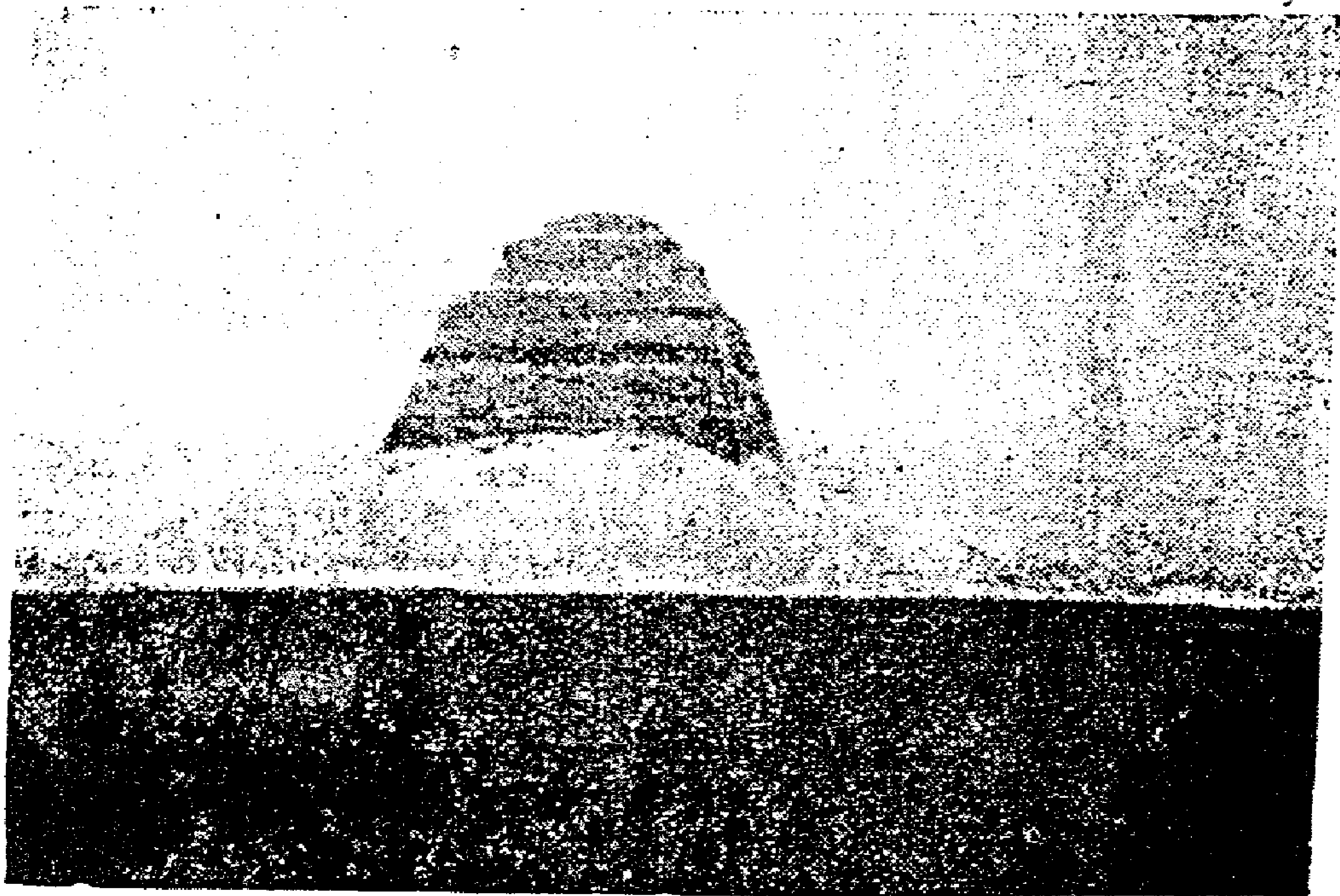
لوحة ٣ ب — تمثال للفرعون زوسر
من الحجر الجيرى . بالمتحف المصرى



لوحة ٤ — الهرم المدرج . مدخل صالة الأعمدة بسقارة



لوحة ٥ — التغطية بالقيشانى كما كانت فى المصطبة الجنوبية بسقارة



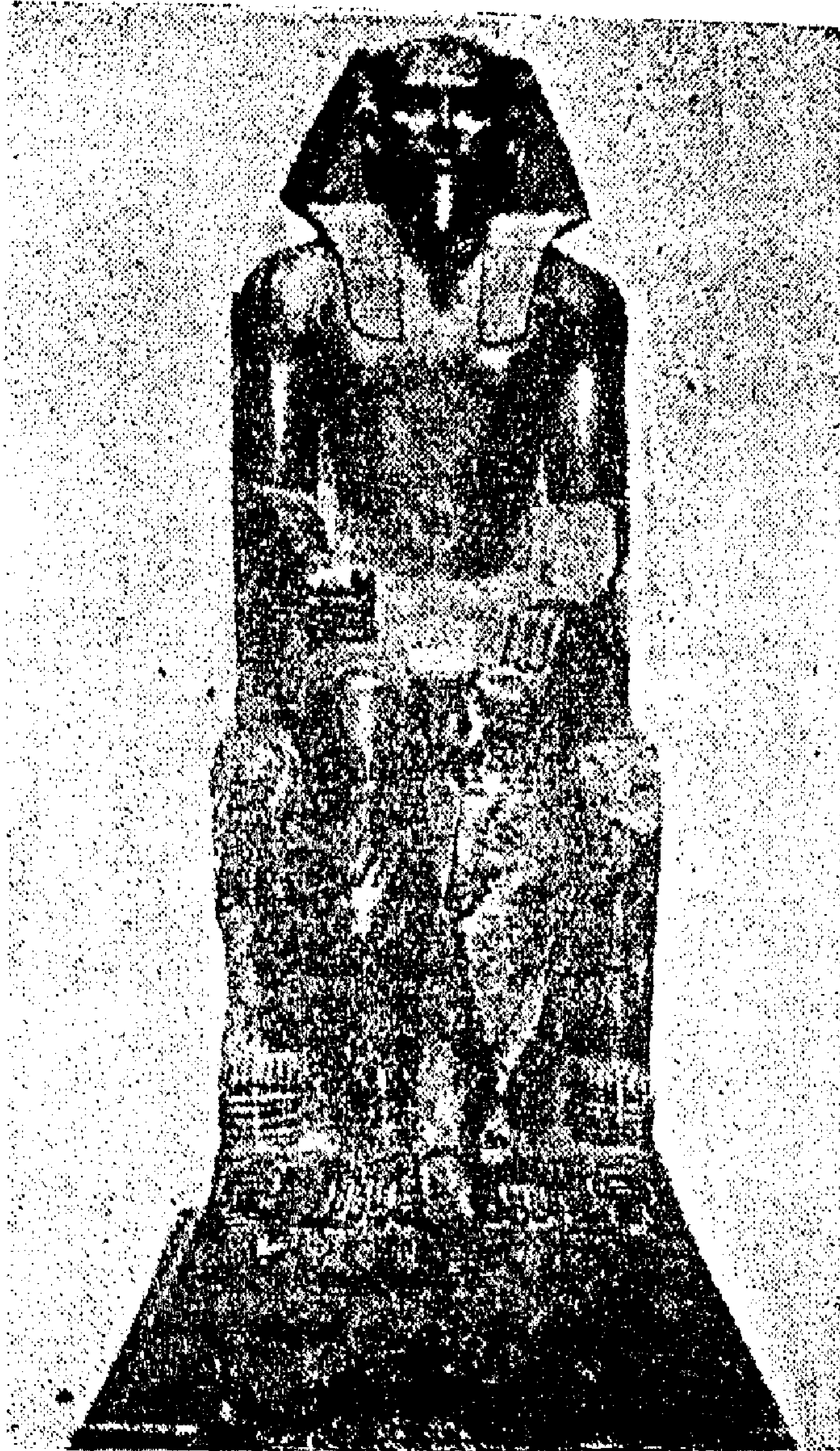
لوحة ٦ ا — هرم ميدوم



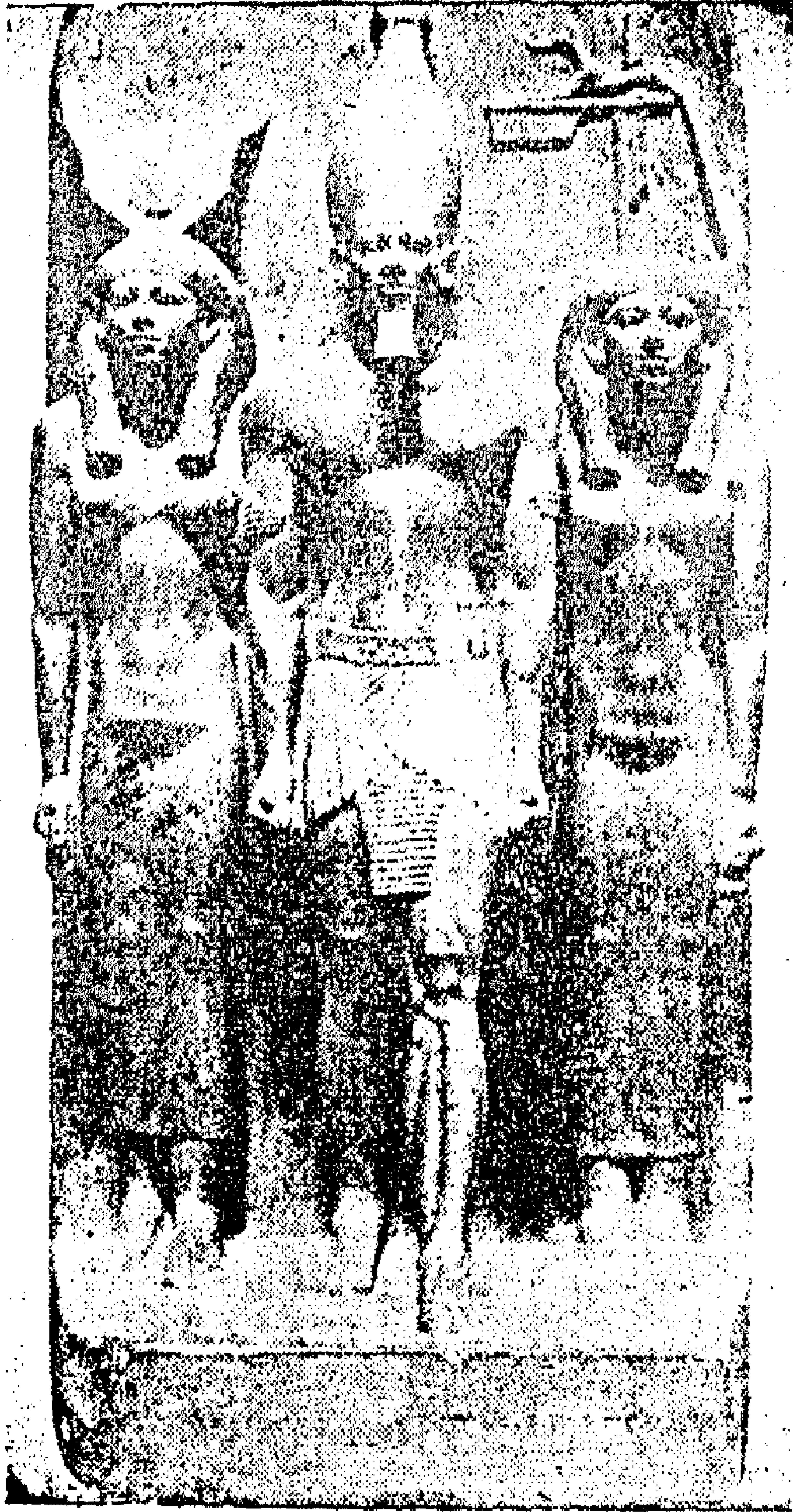
لوحة ٦ ب — أبو الهول بالجيزة



لوحة ٧ — تمثال للفرعون خوفو من العاج بالمتحف المصرى



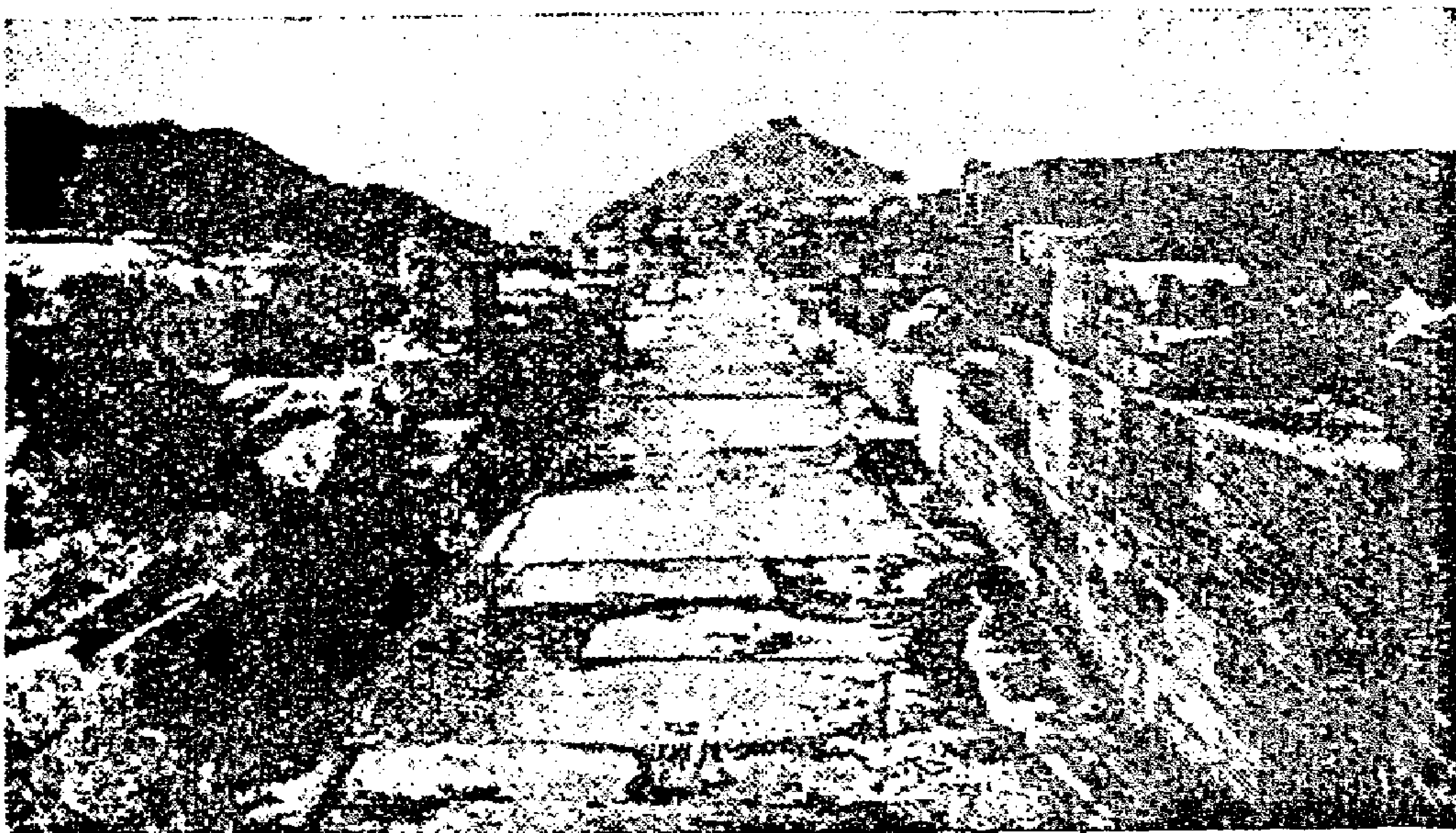
لوحة ٨ — تمثال للفرعون خفرع من حجر الديوريت
بالمتحف المصرى



لوحة ٩ — لوحة تمثل ثالوثا لأحد أقاليم مصر نرى فيها منكاورع ،
وحاتحور والإلهة إقليم ابن آوى . بالمتحف المصرى



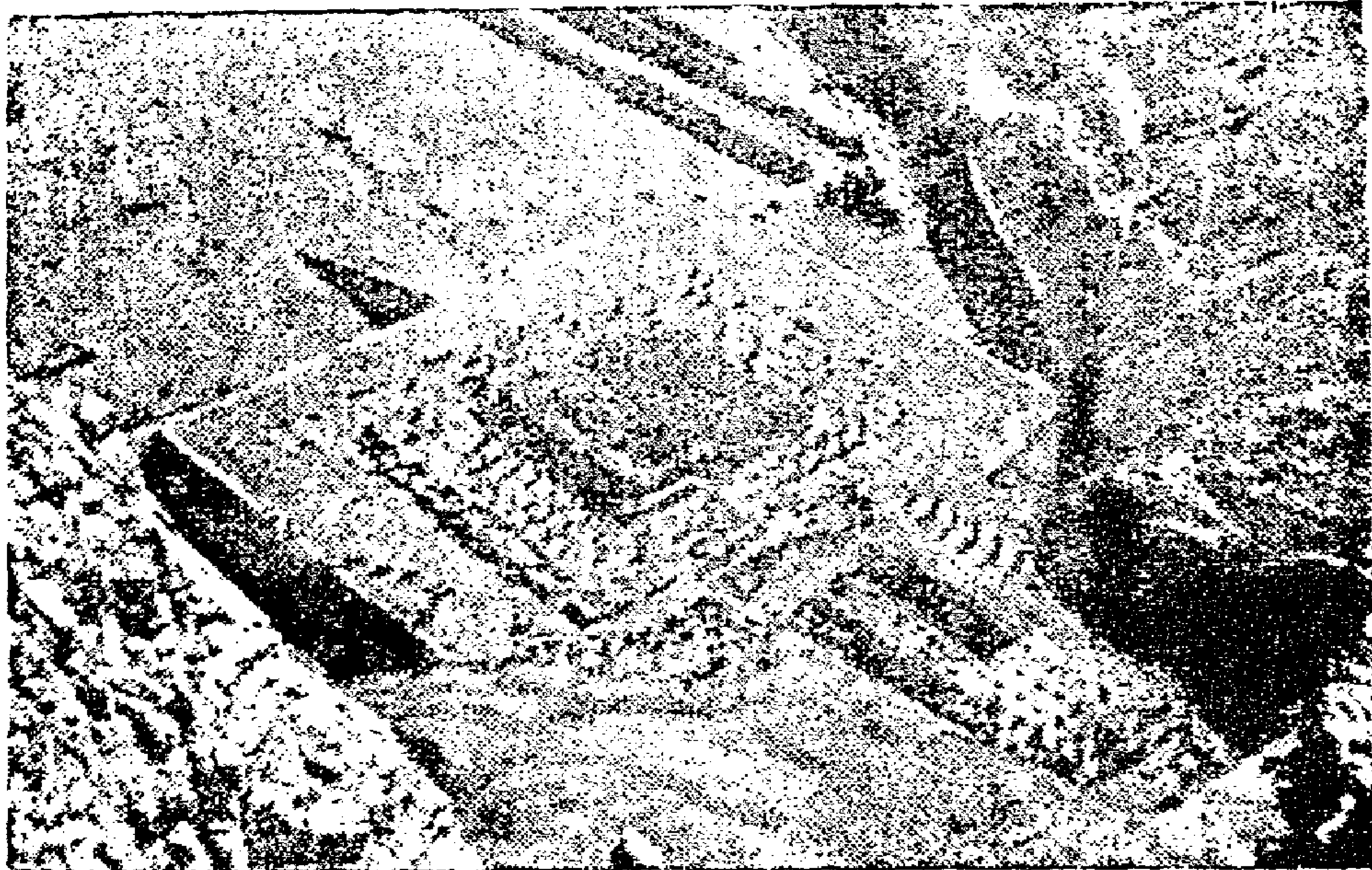
لوحة ١٠ — مجموعة تمثالي منكاورع والملكة
خع . مرر . نبتي . في متحف الفنون الجميلة ببوسطن



لوحة ١١ ا — الطريق الجنازى لهرم أوناس بسقارة



لوحة ١١ ب — منظر مجاعة من رسوم طريق هرم أوناس الجنازى بسقارة



لوحة ١٢ — المعبد الجنازي المهدم من عهد « نب . حت . رع »
« منتوحتب » بالدير البحري



لوحة ١٣ أ — تمثال صغير من المرمر
للفرعون ببي الثاني وهو طفل
بالمتحف المصرى



لوحة ١٣ ب — أمنمحات الثالث فى شبابه
بالمتحف المصرى



لوحة ١٤ ا — أهـــرام مروى



لوحة ١٤ ب — أدوات نحاسية من الأسرة الأولى بالمتحف المصري



لوحة ١٤ جـ — الثقوب في الجرانيت من أعمال عمال المحاجر القدماء في أسوان



لوحة ١٥ — تمثال سنوسرت الأول
من الحجر الجيرى بالمتحف المصرى

اسم الملك	الأسرة	المنطقة	أبعاد القاعدة بالتقريب	اسم الهرم
أوسركاف	الخامسة ٢٥٦٠ ق.م	سقارة	٢٣١ قدما مربعا.	الهرم «طاهرة هى أماكن أوسركاف»
ساحورع	الخامسة	أبو صير	٢٥٧ قدما «	الهرم « روح ساحورع تلمع»
نفرايركارع	الخامسة	أبو صير	٣٦٠ قدما «	الهرم « أصبح نفر ايركارع روحا»
نفرافرع	الخامسة	أبو صير (؟)	—	الهرم «روح نفر افرع إلهية »
ن أوسررع	الخامسة	أبو صير	٢٧٤ قدما «	الهرم « أماكن ن أوسر رع خالدة »
أسيسى	الخامسة	سقارة	٢٧٠ قدما «	الهرم « أسيسى جميل »
أوناس	الخامسة	سقارة	٢٢٠ قدما «	الهرم « جميلة هى أماكن أوناس»
تيتى	السادسة ٢٤٢٠ ق.م	سقارة	٢١٠ قدما «	الهرم « باقية هى أماكن تيتى »
بيى الأول	السادسة	سقارة	٢٥٠ قدما «	الهرم « بيبى ثابت وجميل »
مرنرع	السادسة	سقارة	٢٦٣ قدما «	الهرم « مرنرع يلمع وجميل »
بيى الثانى	السادسة	سقارة	٢٤٥ قدما «	الهرم « بيى يلمع وحى »
ابى	السابعة ٢٢٩٤ ق.م	سقارة	١٠٢ قدما «	—

اسم الملك	الأسرة	المنطقة	أبعاد القاعدة بالتقريب	اسم الهرم
نب. حبت. رع منتوحتب	الحادية عشرة ٢١٣٢ ق م	الدير البحرى	٧٠ قدما مربعاً	الهرم «فخمة هى أماكن «نب. حبت. رع»
سمنخ كارع منتوحتب	الحادية عشرة	طيبة الغربية	غير تام	—
أمنمحات الأول	الثانية عشرة ١٩٠٠ ق م	اللشت	٢٩٦ قدما «	الهرم «أمنمحات عالٍ وجميل»
سنوسرت الأول	الثانية عشرة	اللشت	٣٥٢ قدما «	الهرم «ذو الصلة بأماكن سنوسرت»
أمنمحات الثانى	الثانية عشرة	دهشور	٢٦٣ قدما «	—
سنوسرت الثانى	الثانية عشرة	اللاهون	٣٤٧ قدما «	الهرم «سنوسرت قوى»
سنوسرت الثالث	الثانية عشرة	دهشور	٣٥٠ قدما «	الهرم «سنوسرت فى راحة»
أمنمحات الثالث (؟)	الثانية عشرة	دهشور	٣٤٢ قدما «	—
أمنمحات الثالث	الثانية عشرة	هوارة	٣٣٤ قدما «	الهرم «أسبح أمنمحات روحا»
الملكة سبكنفرو	الثانية عشرة	مزغونة	—	—
أمنمحات الرابع (؟)	الثانية عشرة	مزغونة	—	—
خنجر	الثالثة عشرة ١٧٧٧ ق م	سقارة	—	—

استدراك : السطران الثالث والرابع من صفحة ٣٤٤ يقرآن هكذا :

وعلى ذلك فخصص كلمة «مر» كان يكتب دائماً ◬ وهو يمثل المنظر الأمامى لهرم كامل يحيط به سور مستطيل . فإذا كانت ◬

الفهرس

تم الكتاب بعون الله تعالى